محمد الصفتي

... رواية ...

التطواني

غلاف: مي بسري

بسلاسة وخِفَّة، يجذبك محمد الصفتي لرحلة غموضٍ وكشفٍ، مُمسكًا بطرفِ عقلك المُرتقِب وقلبك اللاهث خلف الأحداثِ.. رحلة تجوب بك الزمان والمكان بإيقاعٍ مُتقافز، ولغة منتقاة، وشخوص تشعر أنك مررت بهم من قبل، فتأخذك الدهشة حين تخوض معهم عوالمَ لم تدركها، مع أنك تكاد تلمسها.. التطواني رواية تكشف عن موهبة في الكتابة الروائية احتشدت طويلًا، حتى أعربَتْ عن نفسها بخبرةٍ، وذكاءٍ وقدرة بالغة على الإمتاع

الكاتب / أحمد القرملاوي

ISBN 9789776436961

نشر والتوزيع

إهداء

إلى من علّمتني كيف أحب، ومنحتني الأسباب تلو الأسباب لأصبح إنسانًا أرقى بها ولها.. كنتِ مقدّرةً لي في البدء حين بثّ الله روحي، وصرتِ قدري حين التقت روحانا، وحين منحنا الله أبناءنا صرنا ذاتًا واحدةً لا تنفصم أبدًا.. إليكِ فيض روحي طفلًا بين يديك.

أسعد

(١)

لم يكن حمل نهلة هيّنًا كما لم يكن هناك مبرر طبي قاطع لتأخيره: مايطلق عليه أطباء اليوم تأخير الحمل غير المبرّر هو ما انطبق حينها على حالة الأسرة التي لم تصر أسرةً بعد في نظر أسعد، الأبُ الذي طالما تمنى من الله سرًّا أن يرزقه الولد حتى ولو جاء دون أي نِعَم أخرى.

لم يكن صعيديًا يسعى لعزوة أبناء سوف يختالون بالآلي يومًا لتأديب أبناء عبد الراضي الذي تطاول عليه ووصفه (بالخِرع)، ولا كان ريفيًّا يسعى للمفاخرة بأبنائه الذين تبوّءوا مناصب القضاء وارتدوا معاطف الطب وحملوا السلاح الميري، وهو قابعٌ في داره ينتظر زياراتهم ليفاخر بهم العمدة ذاته ويكيد مأمور المركز إن أمكن!

لم يكن ثمة سبب ملموس ومقنع لحلمه المستمر بإنجاب الولد: فقاهري السكن مثله الذي انقطعت علاقته ببلدته الريفية ليس من الشائع أن يلجأ لكل الوسائل بتلك الصورة الهستيريّة التي كان عليها أسعد ليكون طفله المنتظر ولدًا، كان يطرق أبواب العرافين والدجالين وذوي الخطوة وكأنه امرأة تخشى فقدَ زوجها إن هي لم تفلح في إنجاب الولد.

فقط كان يصارح زوجته بأنّ إنجاب الولد قد ارتبط في ذهنه ارتباطًا لن ينفصم بالرجولة وبحلول أفكاره بل وروحه ذاتها في الابن المنتظر، وكانت الزوجة المطيعة تستجيب وتبدي اقتناعًا بل وتعِدُ بما لا تملك أحيانًا.

هناك فقط في ركنٍ سحيق من أعماقه كان السر الحقيقي وراء رغبته الجامحة في امتلاك الولد يكمن كشيطانٍ على دِكّة الاحتياط في انتظار الفرصة.. كابوسٌ يجثُم على روحه يكاد يُزهِقُها يتكرر بتفاصيله مُنذ قرر الزواج وكأنّهُ مصيرٌ محتوم لن يستطيعَ مِنهُ فِكاكًا.. كان هناك دائمًا في ساحة الحلم ذلك الرجل فارعَ القامة المَشّحَ بالسواد الذي لا يراهُ إلا بطرفِ عينه بينما رأسه مثبّتة لا تملك الالتفات، يزوم الفارعُ الذي لا يُرى إلا بمنظورٍ جانبيّ ثم يُسمِعُ أسعد كلماتٍ ليست كالكلمات – لا تمُتّ بالطبع لأغنية ماجدة الرومي بأية صلة- والأخير يُنصِت مُجبَرًا، ترنّ الكلمات كطرقاتٍ على وعاء أجوف في جنبات روحه:

" إرحل أيُّها المفقود.. أو لا ترحل.. هو اختيارُك تحمِلُهُ وتتحمّلُه.. لا تكن أصلًا بلا فرع.. ولا بيتًا بلا عُمّار.. لا تكن قولًا بغير حروف.. كُن أبًا بلا ولدٍ وولدًا لابنتِك.. إبْقَ كما أنت وستفنى وتبقى منك لعنتك تجوب بروحها الأزمان.. تتمنّى لو أنّها لم تكُن وتلعن روحها روحَك للأبد... ولن ينجّيك سوى الولد..."

ترتجُّ رأسُه وينخلعُ قلبُه رعبًا ويتمنى لو طاوعه عُنُقه ليلتفت ويرى ذلك المهيب فيجده رجلًا كأي رجلٍ، ولكن أيكونُ بشرًا من يملك قوةً كتلك التي تُطوّق عنق أسعد عن بُعدٍ كالكلّابة الحديدية فلا يملك أن يدير رأسه ليراه؟

كانت تلك الكلمات الملغّزة تثير حنقه دومًا، فكيف يكون ابنًا لابنته؟ ثم ما معنى أن تكون له ابنة ثم لا ينجيه سوى الولد؟

كم أفاق أسعد من كابوسه كالمحكوم عليهم بالإعدام يتحسس عنقه ويستعيذ من الشياطين محاولًا تهدئة أنفاسه التي تتسارع بنشيجٍ متقطّع طالما أخجله.. أيبكي كالفتيات خوفًا من حُلمٍ؟ لن يعدو الكابوسُ كونَه حُلمًا مزعجًا يطلقه عقله الباطن الذي يرزح تحت ضغوطٍ وهو المقدِمُ على الزواجِ الذي ينوء بحمل تكاليفه ومسؤولياته، فمن أولى منه بالكوابيس؟

كانت كذلك تُصيبه أحيانًا لحظاتٌ من الجنون فيصبُّ جام غضبه على صورته المنعكسة في المرآة ويلعن نفسه الأمّارة بالزواج، النبوءة الكابوسية لا تتحدث سوى عن الأصل والفرع والبيت والعمّار والأولاد والبنات، أي كل ما يربطه بتكوين أسرة عن طريق الزواج، إذًا فليُخرِج لسانه لذلك الشيطان المتنبىء ويعزف عن الزواج! ولكن سرعان ما كان أسعد يثوب إلى رشده ويسخر مما جال بخاطره ويطلق بضع ضحكاتٍ هستيرية ينفض بها عن رجولته ما علق بها من صبيانيةٍ لا يقبلها!

وتم الزواج ولم يتوقف الكابوس، وأطلقت نهلة أجولةً من البخور في أركان المنزل على مَرّ السنوات، ولم تكن إذاعة القرآن الكريم تنقطع من غرفة النوم طيلة النهار وزُلَفًا من الليل.

كانت المرأة المسكينة تدفع كل يومٍ ثمن ما تظنه مسًّا أصاب زوجها أو عملًا سفليًا من فعل واحدةٍ من بنات عماته العانسات، أهناك سبب آخر لكوابيسه السخيفة التي تنفض قلبها كل حينٍ لتصحو فزِعةً تبسمل

وتحوقل وتتعوذ؟ أهناك مبرّر أكثر إقناعًا من ذلك لتأخُر الإنجاب الغامض رغم خصوبة الأرض وجودة البذور؟

ثم حدثت المعجزة..

والغريب أنَّ طبيعة أسعد المتشائمة قد باعدت - رغم كل ما يبذل من جهودٍ مضنية- بينه وبين توقع حمل زوجته فأفقده سماع النبأ العظيم توازنه، ارتجّت رأسه بالمخاوف: هل استنفد كل الوسائل التي تساعد على أن يكون الجنين صبيًّا؟ هل اتّبع كل الوصفات والوصايا؟ هل أخلص في الدعاء بكل ماورد في هذا الشأن؟ هل قرأ كافة كتب السحر التي تناولت المسألة وطبّق ما فيها؟

كان يعلم أن السحر ظلمٌ وظلمات وأنه لا يجتمع والدعاء المستجاب في قلبٍ واحد، ولكن في أعماقه كان هناك ذلك الصوت الذي يطمئنه بأنّ الله سوف يغفر له وأنّه في حُكم المضطر. دفعته الكوابيس إلى السعي وراء أي طريقٍ متاحٍ قد يأتي بالولد رغم علمه باستحالة ما يطمح إليه، ولكنّه الأمل والرعب من تحقق الكابوس. لم يسعفه الوقت طويلًا لتطبيق كل ما بحث فيه من سبلٍ قد تزيد من فرص إنجاب الولد فبدا لنفسه كطالبٍ مهمل باغتته نهاية العام، الأطعمة المالحة واللحوم وعسل النحل كان يتناولانها بكمياتٍ كبيرة رغم كراهية نهلة زوجته للمذاق المالح، ولكن وصفات العالِمين بتلك الأمور لم يكن أسعد يسمح بمناقشتها من الأساس، اهتم كثيرًا بوصفات العطارين الموضعية من المرّ ولبان النار وغيرها كداعم إضافي للأسحار والتمائم التي كان يجلبها ولم يعلم أبدًا أهي ذات جدوى أم لا.. فبالرغم من لجوئه الدائم لمغارات السحرة وأوكار الدجالين إلا أنّه كان يخشى كتب السحر المصفرّة

المطلسمة خشيته للجان ذاته، فبات أسيرًا لفكرة أنه قد صار نهبًا لطغمةٍ من الدجالين.. لكنّه الوسواس القهري الأمر المُطاع عندما يملِك على أحدهم كيانه، فلم يتوقف يومًا عن الانصياع لما يطلبه الدجالون دون مناقشة!

تحت وطأة الشعور باقتراب الامتحان انتابته الكوابيس المتكررة بمولد فتاة.. العجيب أنه يذكر ملامح ابنته الحاضرة بذاتها في الكوابيس .. شفافية لعينة دهمته فجأة وارتعب من هاجس استمرارها حتى إنّه صار يخشى الأحلام الكاشفة الّتي تُفصّل له مسبقًا ما سوف يأتي من أنباء سيئة، فلا ينعم براحة الغافل قبل الصدمات المفاجئة ولا يملك ترف اعتبارها أضغاث أحلام بعد ما اكتشف لاحقًا أنها رؤى حقيقية قد أنبأته بحقيقة مولد هالة.

"ولن ينجيك سوى الولد..."

* * *

(٢)

بعد أن حدث ما حدث ولم يأتِ الولد، ظهر «فارس».. الأربعيني المهيب فارع الطول الذي يكاد يتحدث من طرف أنفه فعليًا، كانت صيدلية أسعد تقع في شارع جانبي بإحدى مناطق مدينة نصر المقفرة نسبيًا آنذاك، ولم تكن ثمة محلات أخرى سوى مخبز أفرنجي وبقال متطور نوعًا ما، ثم ظهر العُمّال ذات يومٍ فجأة ليقوموا بتجهيز محلٍّ مغلق مجاور للصيدلية، وسرعان ما انتهوا منه في وقتٍ قياسي.

تأكّد لدى أسعد أن المحل سيمارس نشاط العطارة عندما رأى الأرفف الخشبية التي غزت كافة حوائطه. لم يعتقد أن اختيار المكان يناسب نشاطًا كهذا، فالمباني قليلة والمعمورُ منها أقل، والناس يحتاجون جميعًا للدواء والخبز وأصناف البقالة، ولكن هل يكفي عشرات السكان لتوفير دخلٍ مناسبٍ لمحلّ عطارة؟ ربّما كان المستأجر - الذي اتّضح فيما بعد أنّه تملّك المحلّ- يحسب حسابًا للمدى البعيد حين يزداد الحيّ عمرانًا ويصير الحصول على مساحةٍ كتلك أمرًا مكلّفًا لا يُطيقه.

كان من المستغرب أنّ العمال يأتون صباحًا قبل أن يفتح أسعد صيدليته ويستمرون في العمل حتى الليل ثم ينصرف وهم مستمرون في عملهم حتى ظنّ أنهم يصِلون الليل بالنهار، ولم يكن هناك من يأتي ليتابع عملهم في أي وقتٍ من أوقات اليوم كما لم يعرج عليه أحدهم لطلب (بورشامة للصداع) ولا دخول الحمّام ثم إلقاء نظرة متفحصة بحثًا عن

عدّة الشاي، لم يرَ أسعد عُمّالًا كهؤلاء طيلة حياته، كان على يقينٍ من أنهم سوف يكتسحون أي مسابقات (للصنايعي) المثالي.

وضعت اللافتة وظهر فارس وافتُتِحت العطارة في غضون أسبوعٍ واحدٍ من بدء العمل، ولم تكن هناك أية مظاهر للافتتاح من فراشة وكاسيت يذيع الأغاني بأعلى صوت ممكن - قبل انتشار ظاهرة تجهيزات الليزر وميكروفونات (إحياء الموتى) في حفلات الافتتاح- حتى بدا أنّ فارس هذا بلا أهل ولا أصدقاء يأبهون بخطوةٍ عملاقةٍ كهذه في حياة أربعينيٍّ أخنف.

استغرق الأمر عدّة أيام حتى حدث اللقاء الأول بين الجارين، لقاء جس النبض بين غريمين، يبيع الأول دقّة العِلم الحديث و يتاجر الثاني ببركة علوم الأقدمين.. كان المبادر بالزيارة هو الدكتور أسعد باعتباره المضيف و(شيخ الحارة) المرحّب بالوافد الجديد:

- سلام عليكم.

- عليكم السلام والرحمة.. إتفضّل يا دكتور.

إذًا هي بداية طيبة فالرجل يعرف أسعد ولن تحتاج الأمور لكسر مزيدٍ من الجليد:

- مبروك عليك الافتتاح إن شاالله تكون المنطقة قدم خير عليك.

- داحنا اللي جايبين الخير والبركة معانا يا دكتور ماتقلقش، البركة هتعمّ المكان على إيدينا.

- يسمع من بقك ربنا، إلا ما اتعرفناش بالإسم الكريم.

- فارس أنا فارس التطواني.

- التطواني؟ منين حضرتك؟

- الوالدة مصرية و مولود في مصر، الوالد بقى مغربي، يعني البركة هتحلّ ع المكان شرقي ومغربي ها ها ها.

- دي حاجة عظيمة، أنا اعرف انّ أهل المغرب شاطرين في العطارة كتير.

- ما يعصى علينا حاجة يا حبيبي، العطارة أسرار ومفاتيح الأسرار دي كلها اتخرطت في بلدي.

لم يدرِ أسعد أجاء فارس بما بدا عليه من ثقةٍ وتمكُّنٍ من أسرار العطارة في هذا التوقيت كنعمةٍ يُنتفع بها أم كحسرةٍ جديدة تضاف إلى شعوره بالعجز عن استباق الحمل فزيادة احتمالات إنجاب الولد. لقد جئت متأخرًا يا فارس لكن لا بأس فالقادم طويل وعلمك باقٍ.

تبادل الرجلان أطراف الحديث لبضع دقائق ثم تواعدا على اللقاء فيما بعد لفتراتٍ أطول على سبيل توطيد أواصر الصداقة المنطقية.

ظهر له فارس بعد ذلك في أحلامه. ظهر لمرةٍ واحدةٍ في هيئة رجل عجوز بجلبابٍ ناصع البياض يمنحه أشياء لم يعلمها ثم يقهقه بضحكاتٍ عالية، وينسحب شيئًا فشيئًا من المشهد لتنطلق صرخات طفل في ركنٍ آخر من خياله لم يرَه ولكنّه كان يشعر أنّها صرخات ولد..

أتكون أضغاث حلمٍ؟

أم تكون رسالةً تمهّد له طريق ما يبغي؟

* * *

(٣)

كانت العطارة قد بدأت في التحوّل إلى ما يشبه وكر المزاج الذي يؤمه أسعد يوميًا بتكرارٍ طفولي لا يكل، يزورها في أي وقتٍ ليتنشق عبير الأصناف التي لم يعرف لأغلبها اسمًا وهو الصيدلي الخبير، غير أنّه لم يكن ليهتم بأسماء تلك (المخدرات) الممتعة كثيرًا، ماكان يهمه فقط هو توليفة الرائحة العطرية النفّاذة الممتزجة بهواء المكان والتي تذهب بعقله فيتصور نفسه أليس (مذكّرة) خشنة المظهر يستوعبها عالم المرآة الساحر!

حديث فارس الشائق كان أيضًا من أهم عوامل جذب أسعد إلى وكر المزاج هذا، حيث كانت حكاياته المسحورة ذات الأجواء المغاربية تقوم مقام (المزّة)، ماكان يرويه جعل أسعد يتشكك في أنّه قد عرف مكان تلك البلاد الغامضة على الخريطة يومًا، أهي هي؟ تلك المملكة العربية التي لا يختلف أهلها عنّا في شيءٍ اللهم إلا لهجتهم العربية التي لا يمكن لأمثالنا فهمها سوى باستخدام ترجمة أنيس عبيد أسفل شفاه متحدثها؟

أيمكن أن تحوي بعض تلك الرؤوس السمراء العربية التقليديّة كل هذا القدر من الأعاجيب والألاعيب السحرية المرعبة؟ سمع عدة مرات عمّا يسمى بالسحر المغربي، لكن ما تلتهمه أذناه من أحاديث فارس ليس سحرًا تقليديًّا كما خبره في السنوات الماضية من عمره، إنّه عالَمٌ قاسٍ شرير تختلط فيه الحياة بالموت ويمتزج فيه العشق بالرعب. ومع أقداح القهوة المعطّرة ذات النكهات العشبية المختلفة تحوّل فارس التطواني إلى شهرزاد خنفاء تقص أعاجيب العالم السفلي وأحابيل السحرة مما

يشيب له الولدان على أسماع أسعد المأخوذ بعالمٍ كان يعلم بوجوده لكن ليس إلى هذه الدرجة!

وعلى مدار جلساتهما ألقى فارس على مسامع أسعد بعض التقديمات العلميّة عن ماهية وأصناف السحر وكأنه مندوب مبيعات (تايم شير) يُحكم شباكه حول ثريٍّ متلهف. علم أسعد أن السحر على وجه العموم عملية تستهدف العمل ضد قوانين الطبيعة باستخدام وسائل خفية تفترض وجود قوى خارقة قادرة على الشفاء أو الإيذاء بواسطة عمل روحاني، أخبره فارس أن السحر الشعبي المغربي الذي تدور في فلكه خبرات فارس ينقسم إلى قسمين: السحر الدفاعي والسحر العدواني: يلجأ الناس إلى الأول في حالات الإصابة بالعين الشريرة واستدامة لعنة سوء الحظ كما هو الحال لدى النساء اللواتي يتكرر سقوط حملهنّ، وكذلك الفتيات اللاتي لا يتزوجن، والعشاق المهجورين، والرجال الذين تفشل أشغالُهم أو تصاب بالكساد.

بينما يلوذ بشرور السحر العدواني من يسعون إلى أغراض استجلاب الحب، والتفريق بين الأزواج، واستحضار المصائب والموت لغيرهم، وكقاعدةٍ: لا تتمّ تلك الأعمال إلا في النصف الثاني من الشهر القمري، وبالأخصّ الأعمال التي تستهدف الانتقام أو الإيذاء، أو كما يقولها السحرة "كيفما غاب القمر، يغيب فلان يغيب".

علم أسعد أيضًا من محاضره (الأخنف) أنّ تصنيفات السحر العامة لا تختلف كثيرًا عن هذا النظام الثنائي في التصنيف، فهناك دائمًا تلك الثنائيات مثل السحر الأبيض والسحر الأسود، والسحر الإيجابي والسحر السلبي، والسحر التشاكلي والسحر الاتّصالي، وسحر العامّة وسحر النخبة.

فالسحر الأبيض يلبّي على سبيل المثال أغراضًا نافعة للفرد والمجتمع. لا إيذاء فيها لأحد ولا تتعارض مع أعراف وقوانين المجتمع، ويعدّ أهم نوعين من السحر الأبيض السحر الخاص بالتنبؤ بالمستقبل أو الغيب النسبي، والسحر الخاص بالعلاج والتطبيب.

أما السحر الأسود فينصبُّ على إلحاق الأذى بالآخرين، ومن أهم أشكاله سحر الانتقام وهو أيضًا السحر العدواني، بينما يعتبر السحر التشاكلي والسحر الاتصالي فرعين من السحر التعاطفي القائم على قانون التعاطف، أي أنّهما يفترضان إمكانية تأثير الأشياء في بعضها عن طريق نوع من التعاطف الخفي، فبالنسبة للسحر التشاكلي (أو سحر المحاكاة)، فإنه يقوم على مبدأ التشابه أي "الشبيه ينتج الشبيه"، ومن أبرز الأمثلة المعبّرة عنه محاولة إلحاق الأذى أو الدمار بأعدائك عن طريق إيذاء صورهم أو تدميرها كما هو الحال في استخدام الدمى أو (الفتيش).

بينما يعتمد السحر الاتصالي على فكرة أن الأشياء المتّصلة- حتى بعد أن ينفصل تمامًا أحدها عن الآخر- تظل في علاقة تعاطف، بحيث أن ما يطرأ على أحدها يؤثر على الآخر بالضرورة تأثيرًا مباشرًا. ومن أمثال هذا النوع من السحر تلك الخرافة الشائعة في العالم كله، والتي تجعل الإنسان يحاذر من وقوع أجزاء من جسمه كالشعر والأظافر والمشيمة وحبل السرة وغيرها في يد إنسان آخر قد يستغلها في أعمال سحرية ضده (بحيث تجعله خاضعًا لإرادته مهما بعدت المسافة بينهما).

يا الله.. عالم لم يفترض أسعد من قبل أنّه قد يكون بهذا التعقيد والتنظيم! كان الأمر في مخيلته لا يتعدّى الصورة التقليدية المبتذلة للمرأة الريفية التي تقوم بتثقيب الورقة الصغيرة المطويّة على هيئة

(الحسود) بينما تتمتم برقياتٍ ساذجة ثم تقوم بحرق الورقة التي قد تكون عقد زواج عرفيًا كما فعلت "زينات صدقي" يومًا لتضع مستقبل "شادية" على المحكّ في أحد أفلامها!

ربّما كان يعتريه بعض التوتّر عندما يشاهد في الأفلام كودية الزار ومعاونها من الرجال ذوي الشعر الغجريّ المجنون لكنّه وبالرغم من لجوئه بذاته للسحر، ظل يعتبر ذلك محض مشهدٍ تمثيليّ بارعٍ لا تنقصه المؤثرات البصرية والصوتية، الأعمال السفليّة سمع بها لكنّه لم يزّهها يومًا عن كونها ألاعيب دجل وشعوذة تؤثّر على السذّج الذين يؤمنون بها لأنّهم يريدون تصديق مدى نجاعتها، فلسوف يحيلون بأنفسهم الفشل نجاحًا حتى تثبت كرامات الشيخ عجوة بأيّ ثمن!

لم يكن يعتبر ما يقوم به شخصيًا من اللجوء للمشايخ وذوي الخطوة لاستجلاب الولد ضربًا من ضروب السحر الممجوج وكما أشرنا قبلًا كان يبرّر هذا المسلك لنفسه بركوب الصعب للمضطرّ!

ولكن أن تحيط كل تلك الهالة المخيفة الجادّة الكئيبة بالأمر كما استفاض فارس في رواياته فهذا هو اللامعقول بعينه يتحقق أمام عينيه. لم يكن فارس مجرّد راوٍ يسرد ما سمعه وقرأه عن الأمر بل كان في قلب كل شيء.. كان كذلك رجلًا فارع الطول ألقى هيبةً باردةً كالثلج في روح أسعد.

* * *

هالة

(٤)

كانت تحاول الفكاك من أسر ذلك الحلم المتكرّر دون جدوى، الحقيقة أنّها لا تدري حتى الآن ما إذا كانت ترغب بالفعل في الخلاص منه والعودة إلى حالة النوم الخاوي الذي اعتادته طيلة حياتها أم أنّ متعةً ما في تكرار ذلك الحلم الأشبه بأفلام الرعب قد تستحق ماتعانيه من ذروة فزع ما قبل لحظة الاستيقاظ.

لم تنسَ ما كان يعتريها من غصّةٍ تحرقُ حلقها حين كانت تراقب صديقاتها يتحاكّين بأعين لامعةٍ عن أحلامهن الحريرية حينًا والملتهبة بالأحداث أحيانًا أخرى ودائمًا ما كانت تتهمهن في خيالها بالكذب.. كانت كذلك تشعر بامتعاضٍ عندما ترى أحدهم يزهو بشفافيةٍ مُنِحها من الله دون غيره تغرقه في سيلٍ من أحلام ورؤى تستشرف المستقبل وتنبش الماضي وقد يكون ذلك الحالم بالأساس ممن يتخذون السرقة أوالنخاسة بأطوارها الحديثة وسائل لكسب العيش!

هي لم تمارس الحُلم قطّ رغم قُربها من الله ورغم ما كانت تنكب عليه في أيام النضج الأولى من عباداتٍ تستغرق قسطًا عظيمًا من أوقاتها المنفردة ليلًا.. هي كما ترى ذاتها أولى الناس بالمنح الربّانيّة فهل يكون أمثال هؤلاء أكثر منها شفافيةً واستحقاقًا لها؟

تذكر في سني طفولتها الأولى عندما كانت تنصت إلى حكايات أمها وخالاتها الحماسية حول الأحلام فلا تفهم، وعندما طفقت إحدى المعلمات في المدرسة تروي حلمًا (شفّافًا) في فخارٍ للتلاميذ وهي تلهم بشهية – مع (ساندوتش) من الطعمية- نظرات الانبهار في العيون الصغيرة كساحرٍ نصاب في سيرك. ترسَّخ في عقلها منذ ذلك اليوم أنّ الأحلام مجرد أكذوبة يَحيكها الكبار ليحكموا سيطرتهم على الصغار بسطوة الغامض المهيب الذي لا يُرى ولا يُسمع.

مع ذلك ظلت لياليها الخاوية تعكرُ صحوها كلما استيقظت كالصفحة البيضاء لم يخط فيها حلمٌ واحد ولو كلمة. حتى جاء ذلك اليوم الذي انهارت فيه قناعاتها الدامغة وداهمها حُلمٌ ليس كأي حُلم، شديد الوضوح كما تصف النسوة من صديقات أمها ما يطلقن عليه الرؤى الشفافة، وشديد القسوة كما تروي الفتيات المراهقات من زميلاتها الكوابيس ليبدين مختلفات ويُثِرن فزع الأخريات، حافلٌ بالأطياف الغامضة التي لا تتمكن ذاكرتها من استعادتها بعد الاستيقاظ.. تمنّت حين استيقظت لأول مرة غارقةً في عرقٍ باردٍ لو أنّ حالة (عطب الأحلام) المزمنة لديها لم تعُنها الليلة! لم تجد تفسيرًا لما خاضته سوى أنّ أشباح اليقظة التي تشاغلها كلما لفتت رأسها قد انتقلت من أثير عالمها لتسكُن عقلها.

كانت بالفعل ترى أطيافًا لا يراها سواها وكانت كثافة رؤيتها لتلك الأطياف تزداد يومًا بعد يوم وطيفًا بعد طيف.. لم يكتمل طيفٌ واحد أمام ناظريها بل كانت ترى ماتراه يمرُّ بمجال إبصار عينها اليسرى كأوضح ماتكون الصورة الجانبيّة ثم إذا التفتت لاتجد إلا الخواء..

وكظنّها بالأحلام لم تجرؤ يومًا على البوح بأطيافها لكائنٍ كان إلا في موقفٍ عارضٍ جمعها ببيت الجدود في مرة من المرات النادرة التي كانت ترتاده في الأعياد بطبيب عيون من أبناء عمومتها. سمعته عرَضًا يتحدث في هاتفه المحمول عن ظاهرة الذبابة الطائرة التي يراها الإنسان في مجال البصر كالطيف. اتّسعت حدقتا عينيها واحتلّت الدهشة ملامحها حينما طرقت كلمة الطيف سمعها.. تحوّلت بكل حوّاسها إلى جهاز تسجيل حيّ لكل كلمةٍ نطقها الطبيب شارحًا الظاهرة لمن يهاتفه.. مجرد ألياف شفافة تسبح في السائل الزجاجي الذي يملأ تجويف العين تصيبها عتامات مفاجئة لأسبابٍ متعددة فتظهر وكأنها ذباباتٍ صغيرة حين تمرّ أمام مركز الإبصار. هكذا سمعت من الطبيب الشاب وارتجفت كل خليّة في جسمها على إثر ما سمعت تشوّقًا لما قد يكون تفسيرًا علميًّا لسرّها الصغير العجيب.

انتهى د. أشرف من مكالمته ضئيلة الأهمية التي لم يدرِ أنها قد تكون مفتاحًا لكشفٍ فائق الأهمية يغيّر الكثير في حياة هالة. نعم هي هالة وكأنّما تنبأ أبواها حين مولدها بأنّ ثمة هالة من الغموض والانكفاء على الذات سوف تحيط بابنتهما الوحيدة. دائمًا صامتةٌ هي.. دائمًا ترمق من حولها في شرودٍ ولا تردّ عندما يبادرها أحدٌ بالنداء إلا بعد التكرار ولحظاتٍ من الاستيعاب، بالرغم من ذلك كانت أكثر ذكاءً من قريناتها بما لا يُقارَن وهو ما فسره الجميع على طريقة جمع كل ما هو غير تقليدي في سلة واحدة وأنّ (البنت مش طبيعية) فجاء التفسير بأنّ (كل ذي عاهةٍ جبار!!).

اقتحمت هالة الحجرة التي كان د. أشرف يجري مكالمته فيها بعيدًا عن صخب عشرات الأطفال المنتشرين في أرجاء الفيلا عتيقة السمت وحديقتها المهملة. فندّت انتفاضة دهشة سريعة عنه سرعان ما تمالك نفسه بعدها وابتسم لها في عدم فهم، منحته هالة ابتسامةً خجلى ثم بادرت طبيبها المنقذ الذي هبط من السماء بالسؤال دون أن تلقي عليه التحية:

- معلش يا دكتور أشرف أنا ماكانش قصدي اتصنّت، لكن سمعتك بتتكلم عن حاجة اسمها الذبابة الطايرة.. إيه دي؟

مبهوتًا من تلك التي اقتحمت خلوته دون تحية أجابها:

-أهلًا يا هالة.. لا عادي ده مش سر أنا كنت باطمن واحد صاحبي مهندس على حالة جت له وخاف تكون مشكلة كبيرة بسبب شغله على الكومبيوتر.

تساءلت في لهفة:

- يعني هو بيشوف حاجات غريبة؟

بدا على أشرف سمت الحكيم وهو يستجمع أفكاره ثم اتسعت ابتسامته وأجاب:

- هاهاها .. مش لدرجة حاجات غريبة يعني دي مجرد أطياف غامقة بيشوفها معدّية قدّام عينه أو لمّا يركّز في السما لكن مش بيكون لها شكل معيّن ولا غريب ولا حاجة.. مجرّد حاجة صغيّرة غامقة بتعدّي في لحظة وتختفي زي الذبابة الملعونة كده، سمعتها؟

تجاهلت هالة مزحته المراهقة وبدت كمن يستجمع شتات نفسه:

- أمممم.. طيب هو مش ممكن تكون الذبابة دي لها أشكال تانية العِلم لسه ما اكتشفهاش أو تكون نادرة مش مسجّلة في المراجع مثلًا أو.. إسمح لي يعني حضرتك ما عدّتش عليك قبل كده؟

مبتلعًا تجاهُل مزحته أجابها أشرف:

- واضح يا هالة انّ الموضوع شاغلك أوي، ما تقوليلي بصراحة إيه الحكاية يمكن أقدر أساعدك.

بعد لحظات صمت خرجت كلمات هالة بطيئة:

- ... والله يا دكتور أشرف الحكاية مش عارفة يعني ممكن تكون بالبساطة دي ولا إيه.. أنا أصلي مش حاسّة انّ أي حاجة بتحصل لي ممكن تكون بتحصل للناس التانية.

بابتسامة جديدة أجاب:

- طيب قوليلي يمكن أكون مش زي الناس التانية، أنا أصلًا مش ناس، أنا دكتور!

لفّهما الصمت للحظات قبل أن تردف هالة في شجاعة وليدة ترتجف:

- طيب بص أنا هقول لك بس احلف مش هتقول لحد ولا هتضحك عليا.

بابتسامة أشد اتساعًا جاءت كلماته:

- عيب يا هالة أنا دكتور يعني مؤتمن على أي سر، ده انا حالف قسم أبوقراط وأم قراط و خالته والعيلة كلها ها ها ها ها...

لم يبدُ على هالة الفهم مما أثار حنق أشرف وحرجه، فقط شردت بعينيها العسليتين كمن انفصل عن الواقع المحيط واقتحم عالم المرايا يطارد "أليس" بين حدائق بلاد العجائب..

فجأة خرجت الكلمات صادمة:

- أنا باشوف أشباح.

لم يبدُ الفهم هذه المرة على ملامح أشرف الذي تلقى كلماتها بشيء من التبلد أو ربما استحضار الصورة التي رسمتها أمهات العائلة عن هالة (الغلبانة) غريبة الأطوار أو ال freak كما كُنّ سيطلقن عليها لو كنّ من هواة الأفلام الأمريكية. كان كمن أصيب بخيبة أمل بعد أن تصور أنّه جذب اهتمام تلك الجميلة الشاردة التي لا تحدث أحدًا حتى هوت به كلماتها الأخيرة إلى وادي عبقر حيث يصير عقلك نهبًا لصنوف الجنّ المتعددة.

حاول أشرف ألا يتهور في رده على هالة، تلك التي داعبت خياله للحظاتٍ بما ظنّه محاولةً منها لمشاغلته بحجّة سؤالٍ طبي ثم إذا بها تسكب على كرامته كشابٍ ساخرٍ دلوي ماء مثلجين وفي النهاية تخبره في بساطة أنّها ترى أشباحًا:

- مش فاهم أشباح ازاي يعني؟ وإيه اللي أكد لك انهم أشباح ما انتي لسه سامعة مني حكاية الذبابة الطايرة، إيه المختلف في اللي بتشوفيه؟

ممتقعة الوجه بشكل مفاجىء أجابت هالة:

- لأ. أنا باشوف أشكال بشر محددة بتمر جنب عيني الشمال، دايمًا الشمال، ولما ابص ناحيتها تختفي تمامًا، أنا لما سمعتك حسّيت انّ يمكن فيه أمل اللي بيحصل لي يكون طبيعي بس يظهر زي ما انا عارفة دي حاجة بتحصل لي لوحدي.. معلش أزعجتك وياريت زي ماطلبت منك ماتقولش حاجة لحد، عن إذنك..

لسببٍ ما أمسك أشرف بذراعها صائحًا:

- لا.. خليكي إحنا ماكملناش كلامنا، أنا مش باكذّبك ولا حاجة زي ما شكلك افتكرتي، بس حطّي نفسك مكاني، دكتور كل حاجة عنده ليها تفسير علمي بسمع حد بيقول انّه بيطلع له أشباح، مش هاستغرب ثواني حتى؟؟

نظرت بعينيها الخضراوين لذراعها في خواء مستسلمةً ليده الرقيقة الأشبه بيد فنّانٍ تشكيلي ولم تنطق، ثم ببطءٍ رفعت وجهها لتواجه عيناها عينيه في نظرةٍ تحمل رسائل مشوّشة.

لم ينبس أشرف أيضًا ببنت شفة وامتُقع وجهه بينما عيناه مثبّتتين على حدقتها اللتين كانتا منذ ثوانٍ بلون العسل الأسود الرائق ثم هو الآن يرمقهما كحقلين ممتدّين من العشب الأخضر!

* * *

(٥)

فريدةُ كانت في كل أحوالها، لا تتناول الكثير من الطعام سوى ما يقيم صُلبها وترفض المزيد رغم توسلات الأم الحثيثة .وعلى الرغم من ذلك تملك قوامًا بديعًا غير ناحل ونشاطًا متّقدًا يحرمها النوم سوى ساعاتٍ قليلة تؤمّن لها القدرة على مواصلة كفاحها اليومي سعيًا وراء اللا شيء.

كانت تقضي النهار أمام الشاشة، أي شاشة متاحة: بدءًا من التلفزيون في طفولتها فالكومبيوتر المنزلي في مراهقتها حتى انتقلت لخانة مالكي اللاب توب مكافأةً لها على نجاحها الاستثنائي في الثانوية العامة والذي كاد والدها يحرمها فرحته بعد أن حارب إصرارها على الالتحاق بكلية الفنون الجميلة رغم تربعها على عرش مملكة التنسيق للشعبة العلمية واقترابها من تحقيق هدفه (هو) الخاص بنيلها (هي) شهادة الصيدلة ومشاركتها إياه في إدارة الصيدلية. كانت دومًا كمن يهرب من الواقع والموجودات إلى العالم الافتراضي بممالكه المختلفة.. "أليس" من طرازٍ خاص تستوعب عالم المرآة دون حاجة لاقتحامه.

كانت تضع الفنون الجميلة هدفًا لا تبغي سواه كسبيلٍ لإتقان الرسم بموهبتها المحدودة، لم يكن يشغلها المستقبل كثيرًا ولم تحلم بما هو آتٍ قبل أن تحسم فهم ما يجري.. قررت دراسة الرسم حتى تصقل تلك الموهبة المتواضعة بكل ما هو متاحٌ من أدواتٍ وتتمكّن من رسم رفاقها من الأطياف بدقّة!

كان هذا بالفعل ما تسعى إليه هالة، وكأنها رسّام في إدارة المباحث الجنائيّة يحوّل أوصاف الجناة إلى ما يشبه الصور الفوتوغرافيّة لتضييق دائرة البحث.. لم تكن تدري ماذا تعني لها تلك الأطياف، أهي خيالاتٌ محضة صاغها وجدانها المثقل بالأوهام والأسئلة منعدمة الإجابات؟ أهي أرواح موتى تحمل لها رسائل من العالم الآخر؟ أهي مداعبات ثقيلة الظل من عالم الجنّ والمخلوقات الطيفية؟ أهي رسلٌ تمهد لها لقاء ملك الموت؟ كانت كلية الفنون الجميلة بالنسبة لها وسيلة قد تقربها من اعتقال أطيافها على الورق في عالم الواقع وكأنما التحقت بكلية الفنون البوليسية!

كانت الأطياف تتّخذ أشكالًا عدة تتفق جميعًا في أنها لملامح بشرية، ربما كانت ملامح غير مألوفة لها ولا تنتمي حتى لما يحيط بها من ملامح مصريّة تقليديّة ولكن ما كان يؤرّقها هو أنّ تلك الملامح بعد أن تختفي فورَ أن تدير وجهها لتراها كاملةً تتلاشى أيضًا من مخيّلتها بعد لحظاتٍ معدودةٍ وكأنّ أحدًا يعابثها بقسوة عن طريق ريموت كونترول يتحكم في ذاكرتها! كان السبيل الوحيد لتثبيت تلك الملامح ثم البحث عنها بشتى الوسائل ولو حتى عن طريق خاصّيّة البحث عن الصور في محرّك البحث (جوجل) هو أن تتقن الرسم السريع بشكلٍ غير مسبوق، فربّما تتمكن يومًا من اقتناص تلك اللحيظات و(القبض) على أحد الأطياف متلبّسًا في صورة.

جميلةٌ هي كالحُسْنِ إذا تجسّد، لم يختلف الكثيرون على توصيفها بالفاتنة وإن كان ثمة غرابة في نظراتها الشاردة حتى وهي تصوّبُ عينيها إلى وجهك مباشرةً، لم تكن تلك بالسِمة المريحة لأغلب مَن اقتربوا منها حتى

إنّ دائرة صديقاتها كثيرًا ما كانت تتقلّص. فالكثيرات كنّ يتقرّبن منها طمعًا في أن يلفتن أنظار من يجذبهم جمال هالة المغناطيسي، ولكن ما إن يشعرن بعد فترة بغرابة تلك النظرات الساهمة ويقتلهن الملل من طبعها الصامت حتى يبدأن في التضحية بميزة مغناطيس الانجذاب ويبتعدن عنها رويدًا رويدًا.. الناس أعداء ما لايفهمون حتى وإن لم يمسّهم بذرّةٍ من أذى وكل ما أحاط بهالة كان عصيًّا على الفهم.

في أوائل أيام التحاقها بكلية الفنون الجميلة -رغمًا عن أبيها الذي قاومت رفضه بالصمت حتى ملّ- كانت هالة ترغب في التهام كل ما تقع عليه عيناها من تفاصيل وكأنّما كانت في مهمة سرية محدودة المهلة لاستيعاب كل تفاصيل السنوات الخمس من الدراسة في أسرع وقتٍ ممكن. لفت إنصاتها الكامل وكأنها منحوتة فائقة الجمال تزين قاعات الدرس انتباه الجميع، من تكون إفروديت الصامتة التي لا تكلم أحدًا وتلتهم المحاضرين واللوحات المتناثرة على الجدران بعينيها الزرقاوين؟

عندما بلغت هالة الثانية عشرة من عمرها أصرت أمها في تلك السنة بالتحديد على إقامة عيد ميلاد (مفتخَر على حد تعبيرها) لابنتها الصامتة التي اقتربت من سن الرقاد على (شيزلونج) خراط البنات.. كانت الأم ترتعد فَرَقًا لتخيُّل ما قد تتعرض له فتاتها الوحيدة عندما تواجه الذئاب في الطرقات وهي على ما هي عليه من حالة التوحّد الاختياري والانكفاء على الذات.. بالقطع ستغدو فريسةً في المتناول لأي ذئب تقطر أنيابه كلامًا معسولًا.

رأت نهلة أنّ عليها كأم أن تحيط ابنتها بسياجٍ من الصديقات الحارسات يدافعن عنها باجتماعهن حولها ويقينها هجمات الذئاب الطامعة. ولم يكن هناك أكثر ضمانًا من طريقة (إطعم الفَمَ تستعي العين) المجرّبة لاصطياد الصديقات وإحكام السيطرة عليهن. فأبدعت الأم الحصيفة في توفير ما لذّ وطاب ومدّت سماط عيد ميلاد قطر الندى العامر أمام أعين البنات وأمّهاتهنّ بينما قطر الندى ذاتها تلعن كل هذا في سرّها مفتقدةً وحدتها المؤنسة وحجرتها الحبيبة وشاشة صندوق الدنيا (الواحد وعشرين بوصة)!

وقف الجميع يُنشدون (سنة حلوة يا جميل) وهالة تتوسّط الجمع في حالة من الامتعاض، هي لم تكن ترغب في أن تكون محطّ اهتمام كل هؤلاء البشر وبالأخصّ صديقات المدرسة السمجات اللاتي كنّ يتجنبنَها كفتاة مختلّة عقليًّا في أغلب الأحوال ثم إذا تلاقت الأمهات يتصنّعن المودّة ويبصقن القبلات على خدّيها مع ابتسامةٍ يبرعن في جعلها شيطانية.

انطفأت الشمعة في وسط التورتة العملاقة بنظرة من عينيّ هالة قبل أن ينتهي الجمع من (يا جميل) الأخيرة وهو ما لحظته ميادة الصغيرة التي كانت عيناها متهمكتين في حرق هالة طيلة الحفل حسدًا على فستانها الورديّ المهر ومنزل أسرتها الأنيق وملذّات الحياة المجتمعة على السماط الممدود خصيصًا من أجلها!

فقط هذا هو ما أتاح لها رؤية عيني هالة الناقمتين على الاحتفال بذكرى ميلادها تبرقان بريقًا لا يكاد يُلحظ انطفأت على إثره الشمعة دون أن تهتزّ ذبالتها.. لم يهتم أحد وصفّق الجميع ثم أعاد أحدهم إضاءة غرفة

الاستقبال لتُفزع شهقة ميادة الآذان وعندما أشارت الطفلة لهالة في رعبٍ لم يفهم أحد لِمَ يثير مرأى فتاة جميلة رقيقة مقطّبة الجبين قليلًا فزعَ أحدهم خاصةً أنّه لا يوجد من يعاني من (فوبيا التكشيرة) في حدود ما كانوا يعلمون.

سحبت أم ميادة ابنتها في خجل وعنّفتها بتمتمات غير مفهومة وهي على أتمّ قناعة بأنّ ما فعلته ابنتها مجرد رد فعل هستيري وتنويعة على حقدها الطفولي البريء الذي راقبته الأم طوال الحفل أثناء ممارستها حقدها الخاص على صاحبة المنزل. لم تجرؤ الفتاة على النظر إلى هالة مرةً أخرى ولم يكترث أحد بتفسير شهقة طفلة مزعجة، غير أنّ أم هالة كانت قد لاحظت ما اعترى طفلتها.. فلم يكن من المألوف لأمّ مصرية تنفس ابنتها الوحيدة مع الهواء ألا تلحظ تحول لون عيني فتاتها من الأزرق إلى الأسود!

* * *

(٦)

- انتي اسمك هالة؟

طرق السؤال أذني هالة فأزعجها قليلًا.. من تكون تلك اللزجة التي تقحم نفسها عليها بسؤالٍ كهذا؟ إن كانت تعرف أنّ اسمها هالة فلِمَ السؤال وإن لم تكن تعلم فمن أين جاءت به؟؟

رَفَعت ناظريها ببطء لتجد أمامها فتاة قصيرة القامة مكتنزة البدن تتدلّى خصلة ذهبية من أسفل طرحتها بشكلٍ شديد التعمُّد، لدرجة أنّها اشتمّت رائحة الإحراج من الخُصلة ذاتها!

- أنا هالة.

ردّت في بساطة جافة لم تُثِر خجل ريم الفضولية التي انطلقت كالسيل الجارف وهي تمد يدها -المكتنزة بالطبع- للمصافحة:

- ماانا عارفة، أومال جاية أكلمك وانا مش عارفة إسمك؟ أنا ريم جمال الدين معاكي في إعدادي ولقيتك مابتكلميش حد فصعبتي عليا وحبيت اتعرف عليكي، انتي شفتيني قبل كده ولا ماخدتيش بالك مني؟

باقتضاب ردت هالة والدهشة تتملكها مَن تلك التي تسعى للتعرف إليها بدافع الشفقة عليها!

- لا ما أخدتش بالي.

كالقطار التوربيني استأنفت ريم رحلتها:

- غريبة رغم اني كذا مرة شفتك بتبصي لي ومركّزة عليا، ما علينا، المهمّ انتي مالكيش اصحاب ولا انتي اللي ما بتحبيش تصاحبي حد ولا مامتك حذرتك من العيال الوحشين اللي اسمهم ريم ولابسين حجاب؟ نياهاهاهاها أصلي شايفاكي مش محجبة يعني، وبعدين انتي حلوة أوي يعني المفروض اللي زيك تتنقّب مش تتحجب. الولاد هنا ما بيعتقوش ولا الدكاترة وحياتك. كله هنا شعاره: إنّ الله جميلٌ يحب الجمال أمال احنا داخلين فنون جميلة ليه؟، وطبعًا بقى كلهم من الناحية دي متدينين زي ما الكتاب بيقول، ده حتى لو واحد طلع اسمه جمال مش بيعتقوه نياهاهاهاها..

لدهشة ريم لم تستلقِ هالة على قفاها ضحكًا رغم أنّها ترى نفسها قد أبدعت في النكتة ولكن إفروديت الصامتة ردت بهدوء:

- ما شفتكيش قبل كده!

في أحوالٍ كهذهِ كانت ريم حريّة بأن تتحول إلى أنثى نمر تنقض على من تمتهن كرامتها إلى هذا الحد، ولكنّ أنيابها لسببٍ ما ظلت في مغامدها ربما لفرط غرابة الفتاة التي تجلس أمامها على مقعد وربما لعلمها التام أنّ تأثير جمال هالة الفريد سوف يجعل الجميع حال ارتفاع الأصوات يصبون لعناتهم على ريم تزلّفًا لفرجينيا الجميلة..

- هو انتي ليه كده؟ انتي بتكرهي الناس؟؟

كان هذا أقصى ما استطاعت ريم توجهه من ردٍّ على إمعان هالة في معاملتها كجارية في بلاطها، ولكن لدهشتها المتجدّدة جاء رد فرجينيا مَلَكيًا بالفعل ولاسيّما أنّها التفتت برقّة تجاه ريم:

- لا بالعكس، أنا عمري ما كرهت حد.. على فكرة انتي أمّورة أوي!!

لا داعي للحديث عن طيور النورس التي حلّقت في سماء كلية الفنون الجميلة وبالذات في البقعة التي تعلو رأس ريم ولا عن موسيقى (زوربا) اليونانية الجذلة التي صدحت في جنبات الكلية! فرجينيا التي لا تحدث أحدًا بذاتها تخلع لقب (أمّورة) على ريم.. ودت لوانحنت لتقبّل طرف ثوبها الملكي وتتمتم في خجل: فليحفظ الرب مولاتي!

كانت تلك هي عقدة ريم الأزلية. ترى نفسها في المرأة نسخة أنثوية من المرحوم عبد الفتاح القصري رغم ملاحةٍ تقطر من ملامحها ولكن أسراب المراهقين لامعي الشعر ذوي السراويل الساقطة الذين كانوا يشاغلون زميلاتها في المرحلتين الإعدادية والثانويّة ويتجاهلونها كالشبح اللامرئي قد رسّخوا لديها دائمًا انطباع القصري هذا، ربما أيضًا التحقت بالفنون الجميلة (تبرّكًا) واستئناسًا بوصف الجميلة هذا، وعندما يأتي وصفها هي بالجمال من إفروديت/فرجينيا التي لا يبدو عليها سمت الكذب فلابد إذن من الاحتفال.

من نافلة القول أن نذكر كيف صارت ريم ظِلا بشريًا لهالة تتبعها حيثما حلّت وارتحلت! كانت تلك اللحظة السحرية التي نعتتها فيها إفروديت /فرجينيا بالأمورة من أهم عطايا الحياة لها، كما أنّها على الطرف الآخر صارت أيضًا من لحظات سعد هالة ذاتها، فهي لم تكن لتتحمّل الاضطرار للتعايش مع كل هؤلاء البشر من الجنسين في مكان واحد لولا استنادها إلى مؤسسة العلاقات العامة المكتنزة ريم.. طاقة لا تنفد ومعين علاقات لا ينضُب ريم هذه! هي قد صارت بالإضافة لهذا بودي جارد وربما سول جارد (soul guard) للملكة، لا أحد يقترب من هالة قبل أن

يمر أولًا على ريم التي تجري المقابلة الشخصية بمعرفتها ثم إما أن تؤشر على إمكانية التعارف بابتسامة ذات مغزًى لهالة أو تضع ختم (مرفوض) بتقطيبة حاجبين تعرفها الملكة جيدًا!

هكذا قدر الجميلات في نوادي الغيلان المعروفة بالسنة الأولى للدراسة الجامعيّة حيث يكون الفتيان على الأرجح مشاريع (عبد الحليم حافظ) يحرصون على استمالتهن بالنظرات اللهفى مع رفع الحاجبين قليلًا وتعمّد الحركة بخطوات ونيدة أمامهن على نغمات (وائق الخطوة يمشي ملكًا) التي تصدح في عقولهم فقط، والتي تتحوّل بالتأكيد على أرض الواقع إلى (هاتي بوسة يا بنت) عندما ينجلي الغموض وتحين فرصة لأحدهم كي يتحدث أمام أيٍّ من الجميلات: تلك اللحظات التي يغزو فيها حرف العين المفخّمة أغلب الكلمات ويقرر كل منهم أنّه -والعياذ بالله من كلمة أنا- "ماباحضرش محاضرات" في إشارة لشخصيته المتفرّدة الجامحة التي لا تبالي بالآخرين وبالأخصّ (الدكاترة)! لم تفهم هالة أبدًا كيف تسلل هؤلاء إلى كلية الفنون الجميلة بالتحديد!

ولكنّ «باهي» لم يكن كذلك، نعم هو كالآخرين كان يطيل النظر إلى هالة ولم يكن معدنه عصيًّا على مغناطيس حسنها، إلا أنّه كان مشروع (فريد الأطرش) أكثر منه (عبد الحليم حافظ). كان حزينًا مترقّعًا يصفف شعره بعناية ويرتدي الملابس الكلاسيكية تكاد التهيدة تطفر من فمه وهي تشدو: بانادي عليك! لا أحد يتمثّل (فريد الأطرش) في سمته ومظهره إلا ذوي الأحاسيس النبيلة والرؤية المتفردة الذين يحلقون خارج الأسراب جميعًا؛ كان ذلك المتنهدُ دومًا يثير شجنًا ما في نفس هالة، بل ربما تعدّى الأمر كذلك إلى شلّةٍ متزايد يتملكها أنّها رأته قبلًا.. لم تكن هناك فُرجة في

روحها تكفي لولوج حبٍّ مراهق فالمهمة التي أتت من أجلها لهذا المكان لا تحتمل إسرافًا في إنفاق الوقت ولا المشاعر على الآخرين حتى لو كان (فريد الأطرش) ذاته بتنهيداته وشعره المصفف ذي اللمعة الفازلينية المُبهرة!

ظل باهي على الرغم من ذلك هو الأقرب إلى قلبها من بين الناس، كان شريك الروح الذي يحادثها دون حروفٍ من وراء حجاب حزنه البادي وتنهيداته الافتراضية، بادلته حديثًا بحديث وتنهيدًا بتنهيد دون أن يتبادلا حرفًا واحدًا، كانت تستلقي على أرض روحه العشبية كلما أعياها التركيز بينما يتلقّى هو أوجاعها بمزيدٍ من التنهيدات الصامتة المريحة لأذني قلبها كمساج روحاني!

باهي.. ريم.. أنا الملكة أشكركما، فلولا وجودكما ما كُنتُ لأحيا كملكة.

* * *

التطواني

(٧)

كان «علال التطواني» أبو فارس من القلائل الذين يعكفون على دراسة السحر المغربي وتاريخه كمادةٍ علمية، لا كممارسٍ أو كباحثٍ عن مأربٍ فحسب، وعلى مرّ الأيام وكلما أوغل في دراسة تاريخ أسلافه كان ثمة اعتقادٌ يزداد رسوخًا لديه أنّ ما يربط تاريخ أسلافه بحكم مصر لابد وأنّه يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالسحر.

كان سحر الأمازيغ بالتحديد يستهويه، تاريخٌ حافلٌ من القوة والنفوذ حفظت أرضهم وأمّنت لهم الحماية أحيانًا من الغزاة، الكثير من طقوسهم السحرية بقي كتراثٍ فلكلوري يمارسونه حتى بعد دخولهم الإسلام.. غاص في التاريخ واهتم بشكلٍ خاصّ بحقبة حكم الأمازيغ لمصر.. مصر هي أرض الفراعنة والفراعنة هم تقريبًا أهم وأبرع من مارس السحر على مرّ التاريخ.

قراءاته السطحيّة للقرآن الكريم عززت هي الأخرى من قناعته تلك بالذِّكر المستفيض لسحرة فرعون. لذا قرر الرجل ذات يومٍ أن يتجه لأرض مصر ذاتها ليبحث بنفسه عن خيوطٍ تقوده لما قد يربط سحر الفراعنة بسحر بلاده الذي لابد وأن جذوره التاريخية تمتدّ للتقاطع في نقاطٍ ما مع سحر الفراعنة، ألم يحكم أسلافه أرض مصر يومًا كما يعرف الأمازيغ ويتفاخرون بشيشنق الذي أسّس الأسرة الفرعونية الثانية

والعشرين وتلتها الأسرة الثالثة والعشرون في حُكم مصر لفترةٍ امتدّت قرابة قرنين من الزمان -قدّرها بعض مؤرّخين أيضًا بمائة وعشرين سنة فحسب- بدءًا من عام ٩٥٠ قبل الميلاد؟

يؤكد الأمازيغ في بلاده - كما أخبرته أبحاثه - أنّ شيشنق ينتمي إلى قبائل المشواش الأمازيغيّة التي هاجر منها الكثيرون إلى مصر أثناء حكم الأسرتين العشرين والحادية والعشرين هربًا من التصحّر الذي أصاب أراضيهم ثم تغلغل وجودهم في الكيان المصري عملًا وتزاوجًا وجنديّةً وانصهارًا في البوتقة حتى تمكّن والد شيشنق من أن يصل لرئاسة الكهنة في طيبة، بل وتمكّن من تزويج ابنه شيشنق العسكري العتيد بابنة الملك بسوسنس الثاني آخر ملوك الأسرة الواحدة والعشرين، ثم ما لبث شيشنق أن تولّى الحكم بعد وفاة حميه الفرعون.

ما دفع علال التطواني للجزم بأنّ ما يربط السحر الفرعوني بالسحر المغربي كثير هو امتداد بقاء الأمازيغ في مصر والتحامهم بنسيج شعبها لقرونٍ من الزمان، فهل يُعقل ألا يكون هناك ربط بين قوّتين سحريتين من الأنجع والأقوى على مرّ التاريخ؟ وهل يُعقل أن يتحكم الأمازيغ في بلدٍ تعُجّ بالسحرة كمصر الفرعونية دون أن يستعينوا بسحرهم الخاص أو – على فرضية علال- يطوروا من ذلك السحر باستخدام سحر الفراعنة ذاته؟

آثارًا لاحظها وبعض مخطوطاتٍ حصل عليها أثناء ترحاله وتجواله بالجبال والمناطق التي تفوح بعبق التاريخ الأمازيغي عززت لديه تلك الرؤية، فنزح شيشنق الجديد إلى مصر في أواخر أربعينيات القرن العشرين، حيث سعى للالتحاق بأيٍّ من البعثات الأثرية العاملة في البلاد

كطرف خيطٍ قد يقوده لكشفٍ مستقبلي يخلّد اسمه في سجلات علماء التاريخ، هو يصبو لأن تصير حياته مادة علمية جديدة يتدارسها الناس من بعده وهو ما قد يتحقق إذا نجح في إثبات فرضيّته.

لم يكن الطريق ممهدًا أمام علال لتحقيق ما غوتهُ أحلامُه به. البلدُ قابعٌ تحت وطأة الاحتلال الانجليزي المتغطرس وحكومةٍ مصريةٍ عاجزة، ومَن يكونُ باحثٌ مغربيٌّ مغمور ليلقى العون من سلطات احتلالٍ تتعامل مع التراث المصري وعلوم الآثار المصرية كملكية خاصة وتأبى إشراك المصريين أنفسهم في دراسة تاريخهم إلا بالكاد؟ أوصدت الأبواب في وجهه ولم يكن من اللائق بمقامه العلمي ولا ببنيانه الجسدي الضعيف -رغم طوله الفارع- أن يحاول الالتحاق بإحدى البعثات الكشفية كحمالٍ أو كعامل حفائر.

عائقٌ آخر لم يحسب له حسابًا وهو عدم إجادته حرفًا واحدًا من اللغة الإنجليزيّة، ولم تكن الفرنسية التي يجيدها عامل جذبٍ ليتعامل معه الإنجليز الشوفينيون شديدو العصبية للغتهم، فلم يعُد أمامه سوى السعي للقاء المصري الوحيد الذي ذاع صيتُه كواحدٍ من أوائل الباحثين المصريين الذين تمكنوا بإصرارهم ودأبهم من النفاذ إلى ذلك العالم المطلسم بتعاويذ إنجليزية عصيةٍ على الحل.

كان سليم حسن هو الرجل، وكان ما عرفه علال عن كفاحه للنفاذ إلى مصلحة الآثار التي كانت مرتعًا للأجانب تحت حكم الاحتلال بمثابة نقطة نور أضاءت الطريق لعلّال بعد أن كاد اليأس أن يملك روحه وكاد الرجل أن يفارق حلمه قافلًا إلى بلاده.

سليم حسن الذي ظل على إصراره في الالتحاق بمصلحة الآثار لسنوات متحديًا رفض الإنجليز حتى تمكن من تحقيق مأربه بعونٍ من أحمد شفيق باشا وزير أشغال مصر ما بعد ثورة ١٩١٩ ، والتحق أخيرًا بالعمل في المتحف المصري كأمينٍ مساعد عام ١٩٢١ ثم صار مدرّسًا للآثار بجامعة القاهرة بعد سنواتٍ سبع، وأصبح بعدها أول مكتشفٍ مصري لآثار مصر حتى رفعته كشوفه الأثرية وعلمه الفياض لدرجة وكيل مصلحة الآثار المصرية في العام ١٩٣٦.

لم تستمر الحياة كثيرًا في عطاياها المفرحة للدكتور سليم حسن إذ سرعان ما تبدلت الأحوال ودخل في صدامٍ مباشرٍ مع الملك فاروق الذي أمره بإعادة مجموعةٍ أثريةٍ، كان والده الراحل الملك فؤاد قد أهداها للمتحف المصري بعد استلام سليم حسن لمنصبه وكيلًا للمصلحة، وبروح الأثري الأبيّة امتنع الرجل عن إعادة آثار بلاده لحوزة الملك الخاصة وتمسك بكون المجموعة مِلكًا لمصر لا لحاكمها فواجَه جبروت الملك حتى تم فصله من منصبه في العام ١٩٣٩ واعتكف بعدها في بيته المطل على أهرامات الجيزة كفرعون انتصر لضميره يكتب موسوعته الجليلة التي صارت فيما بعد المرجع الأكبر والخالد لآثار مصر.

تلك الحكايا الملهمة أثارت الأمل من جديد في نفس علال التطواني فقدّم لنفسه لدى الدكتور سليم حسن طالبًا لقاءه لعلّ في جعبة الرجل ما يشفي صدر المغربي الحالم.

* * *

(٨)

- إتفضل يا أخ علال مرحبًا بيك في بلدك.

كان العالم الجليل في استقبال علال بنفسه في الموعد المحدد مرتديًا (روب دي شامبر) أنيقًا وقد بدا الشيب على جانبي رأسه وعلى بضع شعيرات من شاربه الكثّ مانحًا إيّاه سمت الشيخ الوقور.

ارتبك علال قليلًا وأفعمت الحماسة روحه وهو على بُعد خطوة من مالك مفاتح حلمه الذي مدّ إليه يده بالسلام، فامتدّت يداه المرتجفتان تمسكان بها في حرارة وانطلق فيضٌ من الكلمات المغربيّة المتداخلة في وجه الدكتور سليم:

- سيدي، ما كاين شي حد فهاد الدنيا نقدار نتيق فيه باش نسقصيه إلا نتا..

قاطع الدكتور سليم انطلاقة علال مغربية اللهجة بإشارة من كلتي يديه بعد أن سحب يمناه من يدي المغربي المتحمس مقهقهًا:

- حيلك حيلك يا أخ علال، يا واش يا واش، كده عمري ما هافهم منك شيء.

احمرت أذنا علال خجلًا وخبت ابتسامته قليلًا غير أنّ تربيتة حانية على كتفه من العالم الجليل أعادت إليه الثقة فتمتم معتذرًا:

- سيدي أستميحك عذرًا، كنت أنوي الحديث إليك بالعربية الفصحى التي أجيدها بشكلٍ (هائل) حتى لا أُزعجك بلهجتي المحلية ولكنّي ما تمالكت نفسي لما رأيتُك أمامي.

ازدادت ابتسامة الدكتور سليم حنوًا عندما سمع عربية علال التي يجتهد لإخراجها في أبهى صورة ممكنة احتفاءً بشخصه، الحقّ أنّ دكتور "سليم" لم يفهم حينها لِمَ يحمل له علال كل هذا التقدير المُغالى فيه.. هو ليس زعيمًا سياسيًا ملهمًا تلتهب المشاعر لرؤيته كي يفقد زائره اتزانه ويرتبك هكذا. على كل الأحوال كان الرجل يملك من سعة الصدر والوقت -بعد أن أُبعِد عن منصبه الرسمي وتفرغ لإتمام موسوعته- ما يكفي للقاء ذلك المغربي الغامض مجهول الدوافع، ناهيك عن الفضول الذي اكتنفه لكشف ما في جعبة زائره.

في غرفة مكتبه الفسيحة جلس الدكتور سليم بسمتِهِ الوقور مرتكنًا برأسه إلى راحة يمناه التي ارتكز مرفقها على راحة يسراه في وضعٍ يشي بالاهتمام والترقّب، وبفصحى سليمة -احترامًا لمبادرة ضيفه بتحييد اختلاف اللهجات- بادر بكسر الجليد:

- أتَيْتَ من بلادٍ حبيبةٍ إلى قلب كل مصري أخي علال، هل طابت لك الإقامةُ بقاهرتنا المكتظّةِ بالسكان؟

تنحنح علال تأدُّبًا ثم أجاب:

- هي نِعمَ البلادُ سيدي ولي فيها جذورٌ ما أنساها.

قطّب الدكتور حاجبيه في تساؤل:

- أستنتجُ من هذا أنّ جدودك ينحدرون من أصلٍ مصري؟

بابتسامةٍ مفعمةٍ بالفخار وبرأسٍ مرفوعٍ، هتف علال وكأنّه يوسف بك وهبي يؤدي دور الملك لير:

- لي الفخر أن أكون أمازيغيًّا حفيدًا للملك الأعظم شيشنق حاكم مصر القديمة.

انحلت تقطيبة حاجبي الدكتور سليم واستحالت دهشةً رَفَعَت الحاجبين حتى كادا يبلغانِ منابت شعره، لم يكن (ما) قاله علال سببًا لتلك الدهشة الفائقة ولكن (كيف) قال ما قال! "يبدو أنّ القدر قد ألقى في بيتي بمهووسٍ يبحث عن كنوز جدّه الأكبر ويحسبُني سأقبلُ أن أصاحبه في رحلته إلى الصحراء لينقّب عنها".. حدَّث الدكتور سليم نفسه في انزعاجٍ ثم قرر أنّ عمرَ تلك المقابلة لن يطول:

- حسنًا يا بني، هل لي أن أتساءل عن سر سعيك للقاني أنا بالتحديد؟

اعتدل علال في جلسته وخلع عباءة الملك لير الفخور وأخذ يفتش في عقله عن حكمةٍ عربيةٍ شائعة كان قد أعدها لهذا السؤال بالذات ولكنّها تفلّتت وتاهت في ثنايا عقله.. ما هكذا يورَدُ الماء؟ لا لم تكن تلك هي الحكمة، إذا حضر الماء بطل التيمّم؟ ليست هي أيضًا..

- أنتم كالماء للمتيمّم حين يورَدُ الماءُ سيدي!

تطورت دهشة الدكتور سليم ليبدأ شك في القدرات العقلية لعلال ينمو في صدره:

- آه، نعم، مفهوم، وما المطلوب مني؟

شعر علال بالتغير والتحفظ الذي طرأ على طريقة معاملة الدكتور سليم فأُسقِط في يده، كان يعوّل كثيرًا على الود الذي بدأت به المقابلة ليأخذ وقتًا كافيًا في التقديم لما يبتغي وهو مالم يكن يعلمه هو ذاته على وجه التحديد!

كان يخطط لأن يدفع الدكتور سليم نفسه للاستطراد في الحديث عن تلك الحقبة من تاريخ مصر القديمة ويثير حماسته لسبر مزيدٍ من أغوار ما لم يُكتشف بعد من أسرارها، فتجري الأمور بما يشتهي ويعرض عليه الدكتور بنفسه المشاركة في حفائر تتعلق بمآربه.. ولكن طيور الود قد حلّقت بعيدًا الآن وتلبدت سماء غرفة المكتب بغيومٍ باردة من التحفظ والتشكك:

- لكن سيدي الأمر محتاج شرح (بزّاف).. إحم .. أقصد كثير، وبدا لي أنكم على عجلةٍ من أمركم، هل تجد أنّ وقتًا آخر قد يكونُ أفضلَ للّقاء؟

شرد الدكتور سليم قليلًا وكأنّما يزن الأمر بعقله ثم تغلب الفضول على الحذر فأجاب:

- والله يا أخ علال أفضّل أن ننهي الأمر الآن فوقتي قد لا يتسع للمزيد من المقابلات لانهماكي في عملٍ كبيرٍ يستغرق جُلّ أوقاتي، تفضّل بالحديث.

بدأت ساقا علال في الاهتزاز اللاإرادي كالمقبل على مقابلة عمل شخصية وشرع يرتب الأفكار في ذهنه ليبدو حديثه مُقنِعًا، ثم دعا الله أن يحلُلَ عقدةً من لسانِهِ ليفقهَ الدكتور قولَه:

- سيدي (نتا) تعلم أنّ الأمازيغ قومي عاشوا في مصر قديمًا حتى وصلوا إلى حكم البلاد تحت قيادة الملك الأعظم شيشنق واستمر حكمهم ما

يزيد على مائتي عام.. لمّا بحثتُ في التاريخ لم أجد ما يرضيني عن تلك الفترة من حكم أجدادي لهذا جئتُ لبلادكم العامرة (تا) تيمّم الناقص من البحث لعلّي أجد ما يفيد في كشف الأستار عن إنجازات أجدادي.

بدأت الأمور تتضّح نوعًا ما للدكتور سليم عندما لمح إصرار علال على إلصاق لقب (الأعظم) باسم الملك شيشنق مما يشي بشوفينيّة ونعرة قومية تسيطر على أفكار مجالسه فأضمر أمرًا:

- فهمتُ ما ترمي إليه يا علال، ولكنّي أودُّ أن أوضِّحَ لك أمرًا؛ انا الآن لا أحمل أي صفة رسمية كي أساعدك على إتمام أبحاثك فقد اعتزلتُ العمل الرسمي منذ سنوات كما تعلم بالتأكيد ولم تجرِ الأمور معي بصفة ودية آنذاك ولا أريدك أن تعتمد على ما تظنّني قادرٌ على فعله بينما أنا بالفعل لا أملك معاونتك.

امتُقع وجهُ علال وهو يواجه مالم يكن يرجوه من صدٍّ يعيده إلى خانة اليأس فسارع بالاعتراض:

- لكن سيدي أنت تملك بالتأكيد علاقات هنا وهناك ونفوذًا علميًّا لدى من كانوا يعملون معك فأرجوك ألا تردَّني خائبًا.

بشيءٍ من التحرّج قطّب الدكتور سليم حاجبيه مجددًا واستطرد:

- أرجو أن تقدّر الأوضاع جيدًا يا علال، البلاد ما زالت ترزح تحت نير الاستعمار وأنا شخصيًا صرتُ من أعداء الملكِ نفسهِ فلا أظن أحدًا من أصحاب القرار يحبذ حاليًا التعامل مع من يأتي بتزكية منّي، ولكنّي لا أحبُّ أيضًا أن أردك خائبًا.. سأدلُّك على رجل سوف يفيدك كثيرًا في أبحاثك لأنّه مهتمٌّ بالحفائر في سيوة والواحات، أرجوك أن تتوجه للزميل

أحمد فخري فقد يملك من أمره ما لا أملكه أنا الآن وإن أردت الاطلاع على المتوافر لدي من معلومات سوف أُضمنها كتابي الكبير عن مصر القديمة فعلى الرحب والسعة.

بدا رد الدكتور سليم مقنعًا لعلال الذي استراحت ملامحُه قليلًا فأومأ برأسه ممتنًّا لمضيفه الكريم وقبل أن ينطق بكلمة عاجله الدكتور:

- قهوتك إيه يا علال؟

* * *

(٩)

لم يستطع علال أن يتوصل إلى د. أحمد فخري الذي كان في رحلة حفائر طويلة بالواحات فوجدها فرصةً سانحةً لمزيدٍ من الاستفاضة في أبحاثه التمهيدية ومحاولاته المكثفة لتعلم اللغة الإنجليزية التي اكتشف أنّها العائق الكبير في طريق تلك الأبحاث. فأغلب ما كان يجدهُ متوافرًا من مراجع لم يكُن مترجمًا إلى العربية أو الفرنسية اللّتين يجيدهما بحكم النشأة في المغرب.

وفي دربٍ مشترك بين الإنجليزية وأبحاثه الأثرية التقى «لوتس»..

لوتس كان اسمُها وكذلك أحسها علال.. وكأنّما فراشاتُ الأرض ترنّمت حوله حين رآها بينما تصدح أوتار الهارب العذبة.. " في البدء كان السديمُ يعمُّ الأرض، والفوضى عارمة، والظلامُ يلامسُ وجه الماء، عندها انبثقت زنبقة ماء من اللجّ، وببطءٍ تفتحت توبجاتها ليظهر الإله الطفل جالسًا في قلبها، نفذت رائحتها العطرة لتعشش على الماء، وشعّ نورٌ من جسد الطفل ليبدد الظلام الدامس.." هي سيدة العطور وأقدس الأزهار ومانحة الحياة المقبلة. ستكون لوتس هي ابنة الملك بسوسنس العصرية التي ستمنح الأمازيغيّ الجديد جذورًا مصرية مقدسة ودماءً ملكية تمتد لأسلافه.

أنشودة المجد تلاها قديمًا أجداده العظماء وعهدت إليه (جينائهم) الّتي تكمُن في خلاياه بإتمامها، ليس شرطًا أن يتمّ الأنشودة بذات الترانيم والألحان، هو ليس مخبولًا كي يسعى لحكم مصر بلسانٍ وقلبٍ أمازيغيّ، ولكنّ المجد قد يكون كشفًا علميًا يدير الرؤوس أو حتى كشفًا أثريًا يعيد

الحق لأجداده الذين حكموا تلك البلاد العظيمة، ثم أسقطهم المغرضون عمدًا من علياء المجد إلى هوة سخافات المؤرخين.

كان يشعرُ في سويداءَ قلبه بذلك الدم الملكي ينبثق من خليةٍ سحيقةٍ القِدَم انتقلت إليه عبر الأجيال حاملةً بطولة أجداده شيشنق وأسلافه، وفي ذات الوقت تكافئه الأقدار بلقاء لوتس مؤذنةً بميلادٍ جديد وعالمٍ بأسره ينتظره في تلك البلاد التي احتضنت عرش جده ذات يوم.. فأساطير نشأة الكون بهليوبوليس القديمة تحدثت عن أنّ أول ما ظهر من ماء الأزل هو زهرة اللوتس الزرقاء التي جلبت معها الرائحة الذكية، تلك الرائحة التي كانوا يحرقون البخور ليطلقونها توطئةً للاتصال بالكائنات المقدسة، أليس هذا بإشارةٍ كافية عندما لا ينجذب قلبه سوى لقلب زهرة لوتس زرقاء نادرة الوجود من بين ما يزيد على خمسة عشر مليون قلبٍ يسكنون تلك الأرض؟ ما أطيب ريح اسمها الذي سيصل المنقطع بأجداده المقدسين وسيربط قلبه إلى قلب مصر.

لم تكن لوتس تختلف مظهرًا ولا مخبرًا عن المتعلمات من بنات جيلها غير أنّ أباها كان باحث الآثار عبد الحميد الناغي، وبالطبع كان ذلك الاسم الفريد الذي حملته من بنات أفكار عبد الحميد ولم تعترض أمُّها الإنجليزية أبيجيل على الإطلاق، فهي تعلم تمام العلم معنى الاسم الساحر خاصةً وأنّ المولودة حملت بشرة أبيها القمحية، فلم يعد هناك ثمة مبرر لتصير إليزابيث أو ريتشيل، صادف الاسم أباها وهو يطالع نصوص كتاب الموتى الفرعوني في بدايات اهتمامه بالتاريخ المصري القديم حين استوقفته عبارة من تعاويذ نصوص الأهرام تقول: "أنا زهرة اللوتس التي تنمو في الضياء المتألق لتصبح البهجة الفريدة لرع".. تحولّت العبارة بالطبع تلقائيًا في خيال الرجل إلى "أنا زهرة اللوتس التي

تنمو في الضياء المتألق لتصبح البهجة الفريدة لعبد الحميد" فاستخلص الاسم الأخّاذ لنفسه ليكون هو المختار إذا ما قدَّر الله يومًا وُلدت له فتاةٌ.. وقد كان.

لم يكُن من اللائق بالطبع أن يتقدم علال لخطبة لوتس وهو الغريبُ المتعطل عن العمل، ولم يكُن الطريقُ ممهدًا كما أسلفنا لأنْ يعمل المغربي المغامر الذي لا ينتمي لكومنولث التاج البريطاني في مصلحة الآثار ولا المتحف المصري، فتوسطت له لوتس المُجبة للالتحاق بالعمل معلمًا للغة الفرنسية في إحدى المدارس التابعة للكنيسة الكاثوليكية التي كانت والدتها تؤمها للصلاة والعمل الخيري.

كانت تلك الأيام أشبه بالحُلم لعلال الذي بدأ رويدًا رويدًا ينصهرُ كأسلافه في البوتقة المصرية حتى إنّ انشغاله بعبير زهرة اللوتس الزرقاء وإثبات ذاته –كمعلم لم يكن في حساباته أن يصير معلمًا- بدأ يطغى على حلمه الكبير ويرسل خلاياه الأمازيغية الصارخة إلى ركنٍ منسيّ من ذاته!

وكغريبٍ حديث الالتحاق بالوجدان الشعبي المصري تسلل إلى وجدانه الخاصّ شيئًا فشيئًا المثل المحبب إلى قلوب المصريين: "الحي أبقى من الميت"، ومن يكون أبقى لدى علال من زهرة لوتس زرقاء نضرة؟

بل من يكون علال نفسه ليقاوم الجاذبية الجارفة للبوتقة المصرية التي استوعبت أجداده الأشداء ولفظت على مَرّ عشرات القرون كل من حاول أن يحيا فيها متمايزًا عنها؟ منذ ألف عامٍ حضر إلى مصر أسلافٌ مغاربيون أُخَر فظهروا على حكامها وحكموا وسَعَوْا ما سَعَوْا لفرض مذهبهم الشيعي على المصريين، فلفظتهم البوتقةُ وارتدوا خائبين.

لم يعد يربط علال بحلمه القديم سوى صفحات في مذكراته التي لم يتوقف يومًا عن تدوينها مُذ وطأت قدماه أرض المحروسة، والتي تحولت شيئًا فشيئًا من يوميات حالمٍ سبتهُ أوهام الماضي وتسلطت عليه أرواح الأجداد إلى ثبتٍ تاريخي لأحداثٍ جسامٍ مرت بها مصر، وكأنما تحوّل علال التطواني إلى مانيتون جديد يكتب أيام مصر ليتدارسها أبناؤها بعد رحيله بمئات الأعوام، كان يدوّن كل كبيرةٍ وصغيرةٍ بدقة متناهية بالتواريخ والأرقام ويذيل الأحداث بتحليله الخاص لما يجري كخبيرٍ استراتيجيّ محنك أعادته آلة الزمن من عالمنا الذي يعج بالخبراء لزمنٍ سعيدٍ لم يعرف واحدًا!

لم يكن علال عصيًّا على الذوبان، أَسَرتهُ زهرةُ لوتس زرقاء وجرفته الأحداث المتلاحقة التي مرت بها مصر في تلك السنوات فاحتفل مع المصريين بثورة الجيش فرحيل الملك ثم جلاء الإنجليز.. صار معلمًا بارعًا يُشار له بالبنان، وأصبح يكتب المقالات بالفرنسية لجريدة البروجريه إيجيبسيان (Le Progrès Egyptien) مبشرًا بعروبية ناصر – وهو الأمازيغي- ومناديًا بالوحدة العربية!

في تلك الأثناء نال الدكتور سليم حسن ما استحقه من ردٍّ لكرامته وأعيد تعيينه مستشارًا بالمتحف المصري، ولكنّ علال لم يسع للقائه بعدها كما لم يلقَ الدكتور أحمد فخري قَطّ.

* * *

هالة وأشرف

(١٠)

- آلو، هالة؟

- أيوة أنا، مين معايا؟

- أنا دكتور أشرف ابن طنط منال يا هالة، كنت باتطمن عليكي بعد آخر مرة اتكلمنا عند جدو تمّام، إزيك دلوقتي؟

- آه، أهلًا دكتور أشرف ما كنتش اعرف ان معاك نمرتي.

- إحم.. لا ما أنا أخدتها من ماما وهي كانت واخداها من طنط منيرة علشان بنتها مصاحبة توتا بنت طنط عبير اللي خدت نمرتك مرّة من مامتك علشان تسألك عن الكلية بتاعتك اللي توتا كانت بتفكر تدخلها!

- .....!

- معلش أنا كلمتك في وقت مش مناسب تكوني بتذاكري ولا حاجة؟

- لأ أنا ما باذاكرش غير بالليل متأخر لما يناموا.

- أممم، دانتي صاحبة مزاج في المذاكرة بقى.

- مش فاهمة!

- لا قصدي بس إنّك بتتكلمي زي ما تكوني بتعملي حاجة خاصة ما بتحبيش حد يشوفك وانتي بتعمليها فعلشان كده بتستني اما يناموا وبعدين تذاكري، انتي عارفة يعني زي اللي بيعمل حاجة غلط كده من ورا أهله وبيستمتع بيها وهمه مش شايفينه ها ها ها

- .....!

- إحم.. هو انا لبخت ولا حاجة؟ آه، شكلي لبخت.

- فيه حاجة اقدر اعملهالك يا دكتور أشرف؟

- حاجة؟ لا، أنا بس آخر مرة قابلتك عند جدو سبتك فجأة من غير ما اسلم عليكي وخفت تفتكريني قليل الذوق ولا حاجة.

- .....!

- أممم.. كمان كنت عايز أتطمن عليكي لسه بتشوفي الحاجات اللي حكيتيلي عليها ولا خلاص راحت.

- .....!

- طيب هو شكلي اتصلت بيكي في وقت غلط لو تحبي أكلمك وقت تاني ممكن عادي مافيش مشكلة.

- انت خُفت مني؟

- .....!

- دكتور أشرف أنا باسألك، انت خفت مني؟

- مممم مش فاهم بس السؤال يا هالة، هاخاف منّك ازاي يعني؟

- يعني واحد يلاقي بنت قريبته بتقول له باشوف حاجات غريبة وتقريبًا عفاريت وبعدين فجأة وهو بيتكلم معاها يلاقي لون عينها اتغير وهو دكتور عيون يعني مش ممكن يفتكر مثلًا زي أي حد عادي مش فاهم انّ يكون عندها مشكلة في عينها.. أفسر موقفك بإيه غير الخوف لما بعد اللي قلتهولك ده تسيبني وتمشي فجأة من الفيلا كلها مش من الأوضة بس زي اللي بهرب من عفريت؟

- يااااه يا هالة انتي رحتي لبعيد جدًا، ما تنسيش انّك قبل ما امشي كنتي انتي اللي سايباني وانا اللي حاولت اكمل كلام معاكي، ما انكرش إنّي استغربت لما لقيت لون عينيكي اتغير فجأة، بس زي ما قلت لك أنا دكتور يعني كل شيء عندي بيخضع لقانون الطبيعة ولازم يكون ليه سبب ممكن يكون العلم لسه ما توصّلش ليه، بس يعني، وبعدين انا باكلمك اهو كمان عشان اعتذر لك اني مشيت وسبتك.

- يعني تفتكر طب العيون ممكن في يوم يفيد واحدة بتشوف خيالات بني آدمين وعينها بتقلب بين الألوان؟

- كل شيء جايز يا هالة. فيه ناس بتبقى عندهم كل عين لها لون مختلف وطبعًا قبل ما الطب يتقدم كان فيه اللي بيعتبرهم ممسوسين وفيه اللي بيعتبرهم مبروكين لحد ما اكتشف العلم إنّهم لا ممسوسين ولا مبروكين وإنّ العيب في الميلانين!

- يعني إيه؟

- يعني فيه ناس في حالات نادرة بيكون عندهم خلل في توزيع صبغة الميلانين اسمه (هيتيروكروميا) فالصبغة توصل لعين وماتوصلش بنفس

النسبة للعين التانية فتبقى للشخص نفسه عين بُنّي وعين زرقا مثلًا. العلم هو اللي فسر ظاهرة زي دي والعلم هو اللي أكيد عنده تفسير لحالتك، يعني يكون مثلًا فيه خلل من نوع جديد في توزيع الميلانين لكن التفسير ده ممكن يكون لسّه ما اكتُشِفش أو ما وصلش لنطاق علمي أنا، ممكن حد تاني في مجال تاني زي الطب النفسي أو علوم الطاقة حتى يكون عنده تفسيرات لكل اللي بيجرالك ده.

- كلام مقنع بس بتقوله لأنّك بتتكلم عن حد غير نفسك!

- طيب عايز اشوفك لأنّي فعلًا مهتم باللي بيحصل لك ده.

- فوت عليا في الكلية الوقت اللي يعجبك، أنا أجازة جمعة وسبت ومضغوطة بقية الأسبوع ماعدا الاثنين والخميس أيام خفيفة بس كلمني قبلها بيوم.

- طيب كويس بكرة الخميس، هتلاقيني عندك الساعة ١٢ الظهر إن شاء الله، مناسب كده؟

- حاستناك..تك!

لم يزعج أشرف إغلاق هالة للخط دون أي عبارات تحية، فهذه فتاة استثنائية وكل ما يحيط بها استثنائي حتى إنّه لن يتعجب كثيرًا إذا ما وجدها في الغد تشرب عصيرًا فوسفوريًّا أو تسلي وقتها في انتظاره بخلع أصابعها وتبديلها بين اليدين!

* * *

(١١)

رشفت هالة دون صوتٍ جرعة (نسكافيه) من كوبٍ زجاجي بينما كان الفضول يرشف جرعات متتالية من ريم الجالسة بجوارها تقضم مواضع أظفارها التي تآكلت قبلًا. كانت ريم تعلم علم اليقين أنّ هالة لا تملك اهتمامًا من نوعٍ خاص بابن العم الطبيب الذي يبدو – من واقع حكايات هالة- شابًا عُزبًا وسيمًا غير ذي تجارب نسائية، ومن غير المستبعد أن ينجذب لها كخيارٍ ثانٍ -وهي الفتاة التي وصفتها إفروديت (بالأمورة)- عندما يتيقن من أنّ الفاتنة الأسطورية لا تسعى للارتباط ببشريٍّ مثله!

لم تكن ريم كملاكٍ حارس تعلمُ سوى شذراتٍ متناثرة من الحبكة المعقدة التي تنغص حياة مليكتها، فليست هالة بالفتاة الثرثارة التي تخشى الاتهام بالصمتِ فتبوحُ بأسرارها تزجيةً للوقت حتى تحتفظ باهتمام الآخرين، كانت تجيدُ الاحتفاظ بما لا تُحب أن يعرفه عنها الناس وتُفرجُ عن النذر اليسير من تلك الأسرار وقت الحاجة.. مع ريم كانت بحاجة لما يعزز من ثقة الفتاة بها، فالعلاقة تفتقر إلى التوازن المطلوب للاستدامة.. ريم دائمًا هي من يُعطي ويحمي ويخطط وينفذ بينما تجلسُ هي خاملة كملكة! هكذا نشأت حاجة ماسة لأن تمنح هالة بعض أسرارها لريم حتى تشعر تلك الأخيرة بأهميتها لديها ولا تمل، ولكنّها لم ترَ سوى أنّ خيالاتٍ ما تطاردها أينما حلّت وارتحلت ولم تزِد شيئًا.

- انتي مش عارفة هو جاي ليه الكلية؟ إيه وجه الاستعجال يعني؟

ألقت ريم بالسؤال وهي تضيّق عينيها كالعجوز الأربة.

- إيه المشكلة؟ هو فاضي دلوقتي وانا كمان، إيه بقى وجه التأجيل؟

في بساطة ملكة ردت هالة فالتقطت ريم سلاحًا آخر من جعبتها (لتفحم) منطق هالة:

- لا بس حسيت انّه مهتم بيكي شخصيًّا مش بمشكلتك، مافيش حد علاقته سطحية كده بحد ويهتم بمشكلة عنده لدرجة انّه يروح له مكانه تاني يوم أول مكالمة تليفون ما بينهم، ولا انتي شايفة إيه؟

احتدت هالة قليلًا في سابقة لا تتكرر إلا كأمطار أغسطس:

- مش شايفة حاجة، مش شايفة غير حاجات بتضايقني وهو بيحاول يساعدني انّي ما اشوفهاش أو على الأقل أفهم إيه اللي بيحصل لي.

بصوتٍ خالجته نبرة انتصار وبعض مشاغبة استرسلت ريم وهي تداعب أطراف أصابعها بإبهام ذات اليد:

- يعني يا هالة.. أنا مش شايفة اللي بيحصل لك حاجة جامدة أوي يعني، ممكن أعصابك تكون تعبانة شوية، بس كده كده أنا مبسوطة انّك تبدأي تحسني علاقاتك مع قرايبك.. ساعات باحس انّك مقطوعة من شجرة، مابتجيبيش سيرة أهلك خالص ولا حتى باباكي ومامتك، ده انا لولا زرت بيتكم كنت افتكرتك عايشة لوحدك في بيت طالبات ولا بنسيون.

شردت هالة بعيدًا عن ثرثرة ريم واستغرقها التفكير فيما هي مقدمةٌ عليه.. لم تعتد قبلًا أن يقترب منها أحد إلى تلك المسافة الصفرية.

فكشف كل أوراقها الخفية لأشرف كان يمثل خطوة عملاقة تتردد كثيرًا قبل اتخاذها، شعرت وكأنها تتخذ قرارًا بنزع ملابسها أمام شخصٍ غريب!

كانت تجلس على (بنش) حجري مستظلّة من الشمس بالبرجولا الخشبية الواقعة بعد بوابة الدخول مباشرةً لتترقّب وصول أشرف وتسهل له الدخول – بمعونة ريم طبعًا- بينما تقف ريم أمامها مولية نظرها شطر البوابة في انتظار الفارس المجهول.

- غالبًا وصل يا هالة.

توتّر جسد ريم وأشارت بسبّابتها تجاه البوابة حيث وقف شابٌ أنيق في حيرة يتفحص محتويات حافظته فنهضت هالة في هدوء واتجهت بصحبة وصيفتها إلى رجليّ الأمن الموكلين بتنظيم الدخول، ثم بادرت ريم بسحب أحدهما من ذراعه في رفقٍ راسمةً ابتسامةً عريضة على وجهها المستدير وتمتمت في أذنه ببضع كلماتٍ أثارت ضحكاته المقهقهة، فرمق هالة -التي احمرَّ وجهها خجلًا مما أدركته من توصيف ريم للموقف- بنظرة جانبيّة خبيثة وأومأ برأسه علامة الموافقة.

- اتفضل يا دكتور أشرف.

طرق نداء ريم أذني أشرف المحمرتين ارتباكًا فرفع رأسه بشكلٍ مفاجيء وسقطت حافظته على الأرض.

بعد عبارات تعارفٍ ومجاملة بين الثلاثة انطلق الركبُ الصغير في طريقه إلى ذات (البنش) الحجري واستأذنت ريم لجلب ثلاثة أكواب من (النسكافيه) من مطبخ صغير ملحق بأحد (الأتيليهات) وغمزت لهالة التي كانت تحمل كوب (نسكافيه) لم ينفد بعد بخبث أن (خُدوا راحتكم).

استغرق الصمت ابنيّ العم لوهلة حتى كسره أشرف بصوتٍ خفيض وهو يجول ببصره في أرجاء الكلية بين التماثيل المواجهة للبرجولا وقصرٍ بديعٍ يبدو مهملًا:

- حلوة الكلية

-.....

- هالة انتي مُحرجة إنّي جيتلك في الكلية أو خايفة حد يفهم غلط؟

رمقته هالة في خواء ثم نطقت أخيرًا:

- لا مافيش حاجة بس مستغربة شوية من اهتمامك بمشكلتي، ما اتعودتش حد يهتم بيا بالشكل ده.

وكأنما فتحت بابًا كان أشرف يتحرّق شوقًا لأن تفتحّه، انهمرت كلماته بطلاقة في محاولة لامتلاك زمام الأمور :

- يا هالة أنا قلت لك قبل كده أنا مش حد، غير انّ احنا ولاد عم تقريبًا، أنا دكتور يعني شغلي وحياتي كلها مساعدة ناس أول مرة اشوفهم وبالتأكيد مش هاشوفهم تاني غير مرات معدودة.. إزاي بقى هلاقي قريبتي في أزمة ممكن خبراتي تساهم في حلها وأقف ساكت؟ يعني.. أنا من ساعة ما حكيتيلي عن اللي بيحصل معاكي وانا بافكر ازاي نفهم وازاي نتحرك، واضح كمان انّك مش بتتكلمي مع حد في المشكلة دي وكونك اخترتيني أنا علشان تصارحيني فده بيلقي مسؤولية أكبر عليا وبيحسسني انّ مساعدتك واجب ما ينفعش أقصّر فيه.

صكّت أذنيها النون في كلماته.. (نفهم)، (نتحرك).. شعرت بدفءٍ مفاجيءٍ لوجود من يتوحد معها إلى هذا الحد، ولكنّ تحفظها المعتاد تغلب على ذلك الدفء فقالت بصراحة صادمة:

- على فكرة اللي حصل كان صدفة يا دكتور أشرف وانا مش عارفة حتى ازّاي اتكلمت معاك يومها بالصراحة دي، مش عايزة اتعبك معايا في حاجة خاصة أوي زي دي ومش عايزاك تحس بمسؤولية ولا حاجة..

متجاهلًا دم الخجل الذي اندفع إلى أذنيه قاطعها أشرف بحسم:

- هالة.. مافيش داعي للكلام ده خلاص، الموضوع بسيط جدًّا، اعتبريني أخوكي وانتي مالكيش أخ تعتمدي عليه، هي دي حاجة تضايقك؟

في تخاذل بدا مصطنعًا تمتمت هالة:

- لا أبدًا بس ما اتعودتش اعتمد على حد، و..

كلاعب تنس ماهر يجهز على خصمه بكرة قاتلة قاطعها أشرف:

- خلاص اتعودي من دلوقتي، كل حاجة لها أول مرة وانا يا ستي يشرفني تكوني أول حد تعتمدي عليه في حاجة، وبعدين انا مش باقول لك تفضفضي لخالتك اللتانة، للمرة المش عارف كام باقول لك انا دكتووور دكتور، انتي فاكراني باضحك عليكي وشغال تمرجي ولا إيه؟

للمرة الأولى غزت الابتسامة وجه هالة المشرق فزادته إشراقًا وزادت أشرف إصرارًا على استكشاف عالم تلك الجميلة الغامضة:

- خلاص يا دكتور أشرف هاعتبرك أخويا.

وللمرّة الثانية في سماء كلية الفنون الجميلة رفرفت طيور النورس وغمز أحدها لأشرف على سبيل (ماشي يا عم)، كان لهالة سحرٌ غريبٌ على أشرف منذ رآها في منزل الجد تمّام وكأنّه كان يراها للمرة الأولى في ذلك اليوم، كانت حياتُه جافّة كأجلى ما تكون حياةُ طبيبٍ شابّ يكرس حياته لمد جذوره النامية في حديقة مترامية الأطراف تعج بالأشجار الوارفة الظليلة، لم يكن يملك وقتًا لترف العلاقات الشخصية منذ كان طالبًا مجدًّا، كان يحلم فقط بالكيان المرموق كطبيبٍ يسعى له الناس من كل فجٍّ عميقٍ لينهلوا من علمه ويستظلّوا بكفاءته، فانكبّ على شجرته الخاصة ينمّيها ويتعهدها بالدرس والتدريب ونسي أنّه شاب ذو قلبٍ ينبض!

(زي اخوها) كانت خُطوةٌ هامة في طريقٍ لم يعرف إلامَ يُفضي ولكّنه رغب بكل جوارحه في أن يسلكَه:

- خلاص مادام زي اخوكي بقى مافيش أخت بتقول لاخوها يا دكتور، ماشي؟

بابتسامة ترنمت لها النباتات على جوانب (البرجولا) وذاب لها قلب أشرف، غردت:

- ماشي.

طفق أشرف يطرح الأسئلة على هالة في شغف من يستكشف أرضًا جديدة وهي تجيبه في صراحةٍ واستسلام، كطفلةٍ بين يدي ناظر مدرستها.. علِم منها الكثير مما لم يكن يعلم عن أسرتها المتحفظة وأبيها الصامت دومًا كأبي هول يسعى بين البشر..

كانت حياة أسعد تمثل لباقي أفراد عائلته الكبيرة سرًا مقبورًا. صيدلي متحفظ لا يمد أواصر الصداقة مع أقاربه ولا يرحب بزياراتهم فلا يرَونه إلا صامتًا في بعض الاجتماعات العائلية الدورية في الأعياد. أو وهو يسعى صامتًا في الجنازات أو يقبع صامتًا على مائدةٍ يقتصرُ جانبٌ معزولٌ منها على أسرته في الأفراح!

لم يكن أشرف فضوليًا ولكن متعة الانفراد باكتشاف الأسرار لها دومًا سحرٌ لا يفوقه سواه؛ رَوَت هالة لأخيها الافتراضي كيف أنّ أباها لا يملك من الأصدقاء سوى صاحب محل عطارةٍ كهلٍ يدعى فارس يقضي معه أوقاتًا جمة في غرفة مكتبه التي لا يدخلها من أهل البيت سواه ولا يقوم بتنظيفها أيضًا سواه.

كانت هالة تتحدث بلا توقّف كطفلة تعلمت النطق حديثًا فلا تصمت إلا لالتقاط أنفاسها المتسارعة حماسًا: قصت على أشرف كذلك أحزان أمها نهلة التي تعيش منزوية في غرفتها كالأرملة الوحيدة لا يجمعها بزوجها سوى عباراتٍ معدودة حين يطلب منها إعداد العشاء ليتناوله وحيدًا في غرفة المكتب أو بصحبة رفيقه الدائم فارس بينما تختلي هالة في غرفتها بجهاز (اللابتوب) أو بكتابٍ تغرق بين دفتيه. متعاطفةٌ هي مع أمها ولكن مسافةً ما ظلت تفصلهما منذ كانت طفلة. ولم تنكمش أبدًا إلى تلك الحالة الصفرية التي وجدت هالة نفسها تنجذب إليها مع أشرف.

روت من أسرار حياتها ما كانت تعدّه كأسرار الكُهّان حتى انكباب أمها على تدخين السجائر في غرفتها بإفراط ونوبات الصراخ التي تنتابها دون مقدمات والتي اعتادتها هالة فلم تعد تهرع إلى غرفة أمها هلِعة عندما تخترق الصرخات عزلتها.

تلك المسافة الصفرية كانت تُفيض سعادةً على (البنش) الحجري الذي جمع هالة بأشرف بينما كانت ريم مستندة إلى جدار الأتيلييه ترمقهما بمللٍ وغيرة لا مبرر لها تخمش قلبها. وعلى مسافةٍ منها كانت غيرةٌ أقسى تنهشُ قلب باهي الذي وقف يراقب المشهد منذ البداية وأنغام (لحن الخلود) الحزينة تنسابُ في جنباتِ روحه!

"ياموج البحر أنغامك.. شكت للشط عن حالي

وكان حبي في أحضانك.. وقلبي من الهوى خالي!"

* * *

(١٢)

قرّرت ريم فجأة أنّ الوقت الذي منحته لهالة وأشرف أكثر من كافٍ، فطلبت إلى (الدادة) إعداد أكواب (النسكافيه) سريعًا وأخذت تركل الجدار ركلاتٍ خفيفة ثم ترسم على الأرض الترابية دوائر غير مكتملةٍ بحذائها تعبيرًا عن الملل.

- أنسة ريم.

جفلت ريم والتفتت إلى مصدر الصوت لتجد (فريد الأطرش) شابًا يرمقها في نظراتٍ متهافتةٍ كسول؛ ما أثار عجبها هو أنّ سابق معرفةٍ لم يجمعهما قبلًا كما أنّ (باهي/فريد) معروفٌ بين الرفاق بعزلته الاختيارية، ورغم ما تلحظه من نظراتٍ متبادلة بينه وبين هالة إلا أنّه للحق لم يحاول أبدًا استغلال ذلك للتطفل على الفتاتين رغم سنوحِ العديد من الفرص لذلك.

تحت تأثير مزاجها المتعكر دون مبرر، وعلى الرغم من تهذيب الفتى البادي جاءت ردة فعلها حادة:

- أؤمر.

حارت عينا باهي في اختيار الوجهة التي تفرّان إليها هربًا من تأثير دلو الماء المثلج الذي انسكب على شعره اللامع ونفذ إلى كرامته، إنّه يتجنب الحديث إلى الجميع لفرط رهافة مشاعره وخوفه الدائم من التعرض لما يخدش صورته أمام الآخرين أو ما يضعه في موقفٍ يحتم عليه استخدام

عدوانيةٍ ما امتلكها يومًا للرد على أي بادرة عدوانية من قِبل الآخرين. فهل تكون المرة الأولى التي يستجمع فيها شجاعته للحديث إلى إحداهن بهذا السوء؟ "لماذا يا أخت ريم؟" تردد في جنبات عقله!

- أنا آسف، لكن...

خجلةً من نفسها أسِفةً سارعت ريم لمقاطعته:

- لا أنا والله اللي آسفة كنت ناشفة شوية وانت أصلًا (كيوت) جدًا وما تستاهلش المعاملة دي!

تحوّل حرج باهي إلى اندهاشٍ بالغٍ من جرأة ريم واحمرَّ وجهه لا يدري أمن فرط الخجل أم احتقانًا لما وجده نوعًا من الاستخفاف في خطاب الفتاة وكأنّها تتحدث إلى تلميذ في المرحلة الابتدائية وهي تقرص وجنته بين إصبعها! ولكن ريم الفطِنة استدركت ما قالت:

- يعني شكلك مهذب واين ناس فمعلش بقى استحملني، أنا منفلتة شوية بقى تبع حالة الانفلات الأمني بعد الثورة وكده!

رغمًا عنه ندت عن شفتي باهي ابتسامة بترها بسرعة وتمتم بصوتٍ خفيض بعد أن بدا سؤاله عن هالة هدفًا بعيدًا:

- أنا، يعني، باشوفك كتير من أول السنة وانا مش عندي أصحاب هنا في الكليّة و... و انتي، يعني، شكلك إنسانة طيبة، و...

اجتاح قلب ريم شعورٌ جارفٌ بالارتباك واللا فهم، داعب خيالها احتمال لم يخطر به قبلًا، أتكون هي قبلة نظرات باهي الملتاعة لا هالة؟

لِمَ لَمْ تشكَ في ذلك يومًا؟ ربّما تتبادل هالة النظرات مع باهي لاعتقادها المنطقي أنّه يرمُقُها كسائر الطلبة بينما كانت الحقيقة أنّه يتغنّي وجه ريم الصبوح الممتلىء!

- لا لا انا (باتكِثِف) على فكرة.. طبعًا أنا من أطيب تلاتة ممكن تعرفهم في حياتك وما تسألنيش عن الاتنين التانيين علشان مش موجودين أصلًا.

لم يقاوم باهي الابتسام هذه المرة فأطلق لشفتيه ووجنتيه العنان كي يتسعا في ارتياح من انزاح عنه حملٌ ثقيل:

- بجدّ انا شايفك طيبة جدًّا علشان كده انا كان نفسي اعرفك من قريب، الولاد هنا أكترهم بيحبوا الشِلّل وانا مش باحب اكون دايمًا واحد من مجموعة.. باحس الخصوصية اللي في علاقات الناس بتضيع بسبب الشِلّل، علشان كده عجبني جدًّا وجودك دايمًا مع هالة صاحبتك وإنّكم مش بتقفوا مع ناس كتير.. حسيت انكم قريبين من طبيعتي.

صدمت (إنّكم) الأخيرة أذني ريم لتعيدها إلى مربع الواقع، هو إذًا متزلّف جديد يتسلق كتفها ببعض المديح الكاذب لشخصها (الممتلىء) حتى يصل إلى هالة.. قررت أن تختصر الطريق فأشارت للأميرة المنسجمة مع طبيبها الفارس وبادرت باهي:

- تعال معايا نروح لهالة هي قاعدة هناك اهي مع واحد قريبها.

بُهِت الفتى المتردد لمفاجأة ريم فلم يكن تخطيطه هكذا، هو يبغي فقط (جس النبض) لا دخول غرفة العمليات! كيف يفسر لهالة حضوره المفاجىء في وجود غريبٍ برفقتها وهل يأتي تعارفهما الأول بتلك الطريقة

المُحرجة؟ بالطبع لم تمنحه ريم الفرصة للتملص بل مدت يديها بكوبي (نسكافيه) لباهي كي يحملهما.

- شيل دول، مافيش حاجة اشيل علمها ومالِيش تلات إيدين طبعًا.

ارتياح عجيب سَرَى في قلب ريم عندما صحبت باهي كمن يحمل كرسيًّا سيلقيه على (كلوب) الحفل الزاهر الذي تحييه ضحكات "روميو" الذي تجاهلها وإفروديت الخائنة! لا يمكنها تفسير الغيرة التي غزت قلبها، أهي من أجل هالة التي تناست وجودها للمرة الأولى منذ تعارفهما، أم من أجل ذلك الطبيب المنهر الذي لم يكلف نفسه عناء أن يومىء برأسه مجاملةً لها حين انسحبت لتفسح له مجال الحديث إلى إفروديت وكأنّ ريم لفحة هواء ساخنة مزعجة مرت كريمةً فأراحت؟ كانت تلك العلاقة المعقدة بين الفتاتين مما سيسعد سيجموند فرويد كثيرًا إذا ما أتيحت له الفرصة لدراستها عن قُرب!

- (النسكافيه) وصل.

قاطعت ريم وصلة ضحكٍ مجلجلة بين الجليسين فاعتدل أشرف في مكانه مُحرجًا ورفعت هالة بصرها ضاحكة لتهبها نظرة باهي العاتبة إلى عينيها!

مسافة أخرى تبغي الانكماش ولكن في غير الوقت المناسب.. لا تنكر هالة أنّ هذا الفتى الحالم حنون النظرات يشكِّل ركنًا أثيرًا في عالمها الصامت طالما تلجأ إليه في لحظات الحيرة والإحباط لتشحن روحها من طاقة نظراته، ولكن أتحتمل روحها المنعزلة كل هذه الاختراقات في يومٍ واحد؟

"تبًا لكِ يا ريم، ألا تجدين سوى اليوم لتمرري (طلب التعارف) الهام هذا بينما مازلت أتلمس طريقي مع أشرف وأبوح بما لم أبُح به لسواه؟ باهي يستحق أفضل من هذا وكذلك أنا!" جال بخاطر هالة.

- مساء الخير.

بصوتٍ خفيضٍ مرتبك تمتم باهي والأكواب ترتعش بين يديه.

- مساء الخير؟ ده انت ماشي على قواعد التوقيت بالظبط يا باهي، أي نعم احنا بعد الساعة ١٢ الظهر بس الشمس دي مش ماشية خالص مع (مساء الخير يا نينة) اللي قلتها!

أوغلت ريم في إثقال مهمة باهي المتصبب عرقًا فمرت بقلبه لحظة بغضٍ لأسلوبها الساخر ورمقها في غلٍّ هربًا من هالة!

- مساء النور.

في تزامنٍ رد الجليسان فانبعثت في قلبيهما ابتسامةٌ مشتركةٌ لم تقفز على الشفاه.

ساد المكان شعورٌ ثقيل لم يُثِر الارتياح سوى في قلب ريم فصمتت للحظات تراقب أعين الثلاثة ثم أخيرًا فضت الصمت وانطلقت يداها في أوركسترا إشارات:

- آه أنا ما عرّفتكوش ببعض، باهي.. هالة.. د. أشرف.

همهمات لا تحمل كلماتٍ ذات معنى تبودلت بين الثلاثة وتم التعارف غير المبرر كأثقل ما يكون على قلوبهم وبالأخص أشرف الذي تصلبت عيناه

على باهي لتستشفان ما تخفي عيناه الحالمتان اللتان كانتا تحملان عتابًا ما لهالة!

هناك أحمقٌ ما في زمنٍ ما كان يدعي أنّ النظرات لا تخترق الأجساد، فليأت ليفسر الآن ما يشعر به الثلاثي من وخزاتٍ بينما تخترق نظراتهم المؤلمة بدورهم ريم (المريبة) التي تكادُ أن تقول "خذوني"!

ثمة مسلَّمة أخرى بشأن النظرات سقطت الآن في عيون باهي وريم اللذين تسمرا في مكانهما يرقبان عيني هالة الخضراوين تتحولان إلى لونٍ بنيٍّ داكن!

* * *

علّال ولوتس

(١٣)

إذا ما أتيحت لك الفرصة يومًا لتراقب زهرة لوتس تذبُل فستفهم ما جرى للوتس بعد مرور بضعة أعوام من زواجها بعلال. سيدة العطور ومانحة الحياة المقبلة لم يبدُ أنّها ستمنح أي حياة.. عبق هواء بيتها دائمًا بأطيب أنواع البخور الذي كان علال يطلقه تبرُّكًا بما كان يفعل قدماء المصريّين، علَّ زهرة اللوتس الكامنة بالدار تصله بالكائنات المقدسة.. كان هذا في السنوات الأولى من زواجهما عندما كانت أحلام المجد لم تزل تراود علال بين الفينة والأخرى، لم يشأ أن يقطع الصلة بتلك الأحلام والجذور انتظارًا لما قد تسفر عنه الأيام.

مع مرور الأيام بدأت لوتس تتصرف كزهرة لوتس زرقاء حقيقية تزهر أوراقها صباحًا وتنغلق على نفسها ليلًا لتغوص في نهرٍ من الانعزال والاكتئاب غير المبرر، ولم تفلح محاولات الزوج العاشق قطّ في (فك) استحواذ طبيعة اللوتس على زوجته سيما وأنّ تأخر حملها كان يرزح على قلبها كالطَّود العظيم.

هي ككل الفتيات تحلم بالأمومة وإن كانت تفوقُ أكثرهن ثقافةً وتفتُّحًا. ربّما لهذا بالذات كانت روحها تأبى أن تُحرم مما تتمتعن به.. انهمك علال في محاولاتٍ لا نهائية لإرضاء زهرته وتفنن في تلوين حياتها بغير الأزرق من الألوان فترددا سويًّا على المسارح ودور السينما بل والكازينوهات ولكنّ أساريرها لم تكن تنفرج قليلًا إلا في إجازات نهاية الأسبوع عندما ينطلقان

بسيارتهما السيتروين السوداء إلى الإسكندرية ليمضيا ليلتين في شقة ببيتٍ صغير يملكه أبو لوتس هناك.

حتى في هذا لم تخرج لوتس كثيرًا عن أطوار سميّتها التي تجدد دورة حياتها كل خمسة أيام!

من العجيب أنّ علال التطواني لم يعد يكترث كثيرًا بما درس عن السحر، بل لم يسعَ لجعبته الملينة بالعزائم والتقاليد السحرية ليستجلب الحمل لزوجته.. كان يشعر كمن انسلخ عن حياةٍ مظلمةٍ يغلب غامضها على معلومها إلى رحابِ حياةٍ تحفل بالنور وتعبق بالعطور، فقد صار Monsieur Allel المرموق مهيب الجانب ولم يعُد ذلك الباحث المرتبك الساعي وراء سراب، فليذهب الأجداد إلى حيث يستحقون وليبقَ تاريخهم مطمورًا بجوارهم كالأواني الكانوبية فمن يعبأ؟

ولم يكد عُمر الزواج يتعدى خمس سنوات حتى جاءت البشارة وأخذت كأس اللوتس في التشكل داخل رحم الحبيبة. فكادت ساعات الغوص في الماء أن تختفي وبقت أوراق الزهرة متفتحة أكثر الأوقات.. فاجأ هذا علال الذي كان ينظر لزهرته كسيدة أقمار أسطورية غامضة الطوايا فإذا به يجدها فتاة غراء تختزل حياتها في الانضمام إلى طابور الأمهات الممتد! إلا أنّ هذا قد زاد من حنوه عليها كما ألقى على عاتقه مزيدًا من المسؤوليّة عن تلك الهشة التي كان يستمد منها القوة والحياة فاكتشف فجأة أنّها كانت طيلة الوقت بحاجة لمن يُمدها بالقوةِ والحياة!

دأب علال على زهرته يتعهدها بالرعاية ويمنحها قدر استطاعته النور الذي تُزهِرُ أوراقها في كنفه، ومرت الشهور سريعة يسيرة حتى جاء (الطلق) زوجته وسرعان ما كان يجوب طرقات المستشفى في قلقٍ بانتظار

صياح الوليد.. وجاءت الصيحات الضعيفة بردًا وسلامًا على قلبه فأسرع إلى باب غرفة العمليات ينتظر في شغفٍ أن يُمعن النظر في وجه ابنه أو ابنته.. مرت دقائق حتى خرجت إحدى الممرضات مسرعةً فاستوقفها علال ولكنّها لم تعره انتباهًا مما أثار رعبه.

جال بخاطره حينها المشهد الشهير الذي رآه يتكرر بلا كلل في عديدٍ من الأفلام التي كان يشاهدها برفقة لوتس، وذات الممثل الأصلع الوقور في دور الطبيب يفجع الأب في رزانة بأنّه اضطر للتضحية بأحد الثمينَين (الأم/الجنين) من أجل إنقاذ حياة الآخر.

بعد دقائق أخرى انفتح باب غرفة العمليات وانخلع معه قلب علال.

كان القادم تلك المرة طبيبٌ قليل أشار له في رفقٍ فهُرع إلى الداخل ليستوقفه الطبيب مشيرًا لممرّضة تقف خلفه وتحمل الرضيع.. ما هال علال كان الضمور البالغ للمولود.. كان أشبه بالأطفال الذين نشاهدهم اليوم في نشرات الأخبار من ضحايا المجاعات. فالهزال الشديد كان باديًا على أطرافه وسائر جسده حتى أنّ الطبيب لم يحاول طمأنة الأب كثيرًا على حالته.. في تلك الفترة لم تكن حضّانات المبتسرين بالطبع قد دخلت إلى مصر وكانت نسبة وفيات المواليد ما زالت كبيرة. فلم يكن من المزعج للأطباء مواجهة ذوي الأطفال باحتمالات وفاتهم ولاسيما عند مرأى حالة كحالة ذلك الرضيع الهزيل. بطبيعة الحال لم يتحمل علال تصور أن تفقد لوتس طفلها الذي تاقت روحها لامتلاكه والذي لم تصفُ لها الحياة إلا بعد حلوله في رحمها. ولكن ماذا عساه فاعلًا؟ كانت لوتس لم تزل في حالٍ يرثى لها لم تستفق بعد من آثار الولادة المتعسّرة.. يبدو أنّ بنيانها الرقيق لم يكن مناسبًا لأن تكون كالأخريات. فهل سمع أحدكم يومًا عن زهرة لوتس تلد؟

طمأن الطبيب علال ممتقع الوجه على حالة زوجته وإن كانت تحتاج بعض الوقت لتفيق من آثار الولادة التي لم تكن باليسيرة. أخبره كذلك أن صِغر حجم الجنين قد ساعد كثيرًا على نجاة أمه من مصيرٍ لم يكن يعلَمه إلا الله..

انسحب الطبيب والممرضة إلى الداخل وأغلقا الباب فأخذ علال يجرجر قدميه مجوّلًا في طرقات المستشفى شارد الذهن حائر العقل خائر القوى لا يجد جوابًا للسؤال: ماذا أفعل؟ طالما خشي من أن يخوض بنفسه المشهد السينمائي المبتذل. والآن وقد نجا من صورته المباشرة فوُلِد الجنين وطمأنه الأطباء على زوجته إذا بصورةٍ مبتكرةٍ من المشهد لم يتخيلها من قبل تجثم عليه وتهدده بالحرمان من ذاك الوليد وبما لن يُحمد عقباه من ردة فعل زوجته الهشة!

تجاذبت الخواطر السوداء علال ورأى الرضيع مكفّنًا بين يديه ولوتس تُهيل على رأسها التراب وقد برقت عيناها فاقدةً عقلها.. "ماذا أفعل يا ربي؟ لن أتحمل أن أفقدها".. وفجأة انتفض جسد علال .. فمن ركنٍ قصيٍ في عقله انبعثت خلاياه الأمازيغية الكامنة كعنقاء تنفض رماد الحضارة والزمن وقفز إلى ذهنه السحر الذي أفنى سنواتٍ وسنواتٍ من عمره يدرسه ويتلقى الأسرار من أربابه..

تبدل السؤال المهيمن على علال في تجواله الحائر إلى تساؤلٍ مصيري: أيمكن حقًّا أن يحفظ له السحرُ الآن وحيده الذي يترصده الموت؟

* * *

(١٤)

تناثرت حول علال أكوام من الكتب والمخطوطات والأكياس القماشية الصغيرة وبدا كالمخبول وهو ينزع ورقةً من هنا ويخطّ شيئًا في ورقةٍ هناك، كان يستحضر كل ما خاض فيه طيلة سنوات مبتغيًا إيجاد سحرٍ نافعٍ في غضون ساعاتٍ قبل أن تستفيق لوتس لتُفجَع بفقدِ أكيدٍ لوليدها الهزيل، لابد أن ينقذه، بل ينقذ نفسه: هل يمكنه أن يحيا ولوتس تذوي أمامه من جديد؟ سيّدة العطور مانحة الحياة لا يجب أن تلد الموت.

الوقت لا يتسع للبحث عمن يمارس السحر الذي طالما درسه نظريًا وتلقّن فنونه ممن يجيدونه، فَهُم هناك في وطنه الذي خلّفه وراء ظهره.. لن ينتظر الرضيع حيًا حتى يقفل إلى بلاده ويجوب الصحراء وصولًا إلى من يطمئنُ إلى قُدراتهم السحرية الفائقة.. لابد أن يجرّب بنفسه.. كان أشبه بمدربٍ تغيّب مصارعه عن النزال فتوجّب عليه أن يصرع المنافس بنفسه.

(تسويت تحضورت) هو ما توصّل إليه علال! تلك هي الحالة التي لابد وأنها حاقت بطفله، لا وقت للتجويد ولا لحساب الاحتمالات.

- سعيدة

- سعيدة مبارك، أهلًا مسيو علال.

- وحياتك يا سيد افندي اعطيني دوا لابني المولود.

- دوا؟ ازاي يعني؟

- أي حاجة.. أي حاجة، نبغي دوا للولد.

- مبارك للمولود بس هو يعني عنده إيه؟

- هو محتاج دوا، أي شيء في البيت عندك تجود بيه، سكر، حليب، رز، أي حاجة!

- رز؟ فيه مولود ياكل رز يا مسيو علال؟ انت وغوشتني عليك!

- يا سيدي ما عندي وقت، خد الكيس وحط فيه اللي تلاقيه، بسرعة وحياة والدك!

- ..... لا حول ولا قوة إلا بالله، هات طيب.

- قوام قوام ماعندي وقت!

تكرر الحوار السابق بصور مختلفة ست مراتٍ على أبواب ستة من بيوت الجيران فأتم علال مهمته فيما لا يزيد عن نصف الساعة، ثم عاد إلى شقته ودلف إلى (غرفة عمليات) السحر ليعد مزيجًا ما مما حصل عليه من مواد غذائية أمدها به الجيران المشدوهون الذين تجمع بعضهم في ردهة أحد الأدوار يتبادلون مصمصة الشفاه والتفسيرات حول حالة الجار المسكين الذي يبدو أنّ عقله لم يتحمل فرحة ميلاد طفله الأول بعد لأيٍ وعذاب فطار شعاعًا!

أخذ علال كل ما جلب من مواد وخلطها جيدًا باستعمال (هون) نحاسي بعد أن أضاف إليها بعض الزيوت العطرية وبعضًا من مادة "الخزامة" التي جلبها معه من بلاده، وتسلح بورقةٍ دون عليها أقوى ما يتصل بعلاج

حالة (التسويت تحفورت) مما وجد في مخطوطاته من تعاويذ مكتوبة بحروف التيفناغ الأمازيغية ثم هدأ قليلًا وأخذ ينظم تنفسه ليتمالك روعه. سكن بدن علال تمامًا ثم بدأ يُغرق في حالة من التأمل الصامت في سبيل أن يتوحد مع ما يحمل من طاقة سحرية ويمنحها النجاعة اللازمة. هو يدرك أكثر من سواه أنّ السحر دون يقينٍ من مستخدمه قد لا يفيد.. يحتاج لأن يستعيد كل ما يربطه بتاريخ قومه خلال تلك الساعة.

هو يسري الآن كالطيف صاعدًا جبل تافوغالت بين أشجار العرعر التي تكسو السفح، رائحة التاريخ البكر تغزو أنفه وشخوص الأسلاف تصطف على جانبي طريقه تحمل ملامح حادة طالما رسمها بخياله الجامح.

تشير له الملكة تهيبا قاهرة الغزاة التي لا يشق لها غبار والساحرة التي لا تُعجِزُها غاية بإشاراتٍ مشجعة وتقذف له بحفنة نباتات وهي تهتف: "وانا يجنجم وايرني ڢر أيتوف ف ميدن" (من أنجاه نبات إيرني من المجاعة لا يتأقف على الضعفاء).. يلقي له الملك جوبا الثاني بسيفٍ بتار فيلتقطه بيمناه في يسرٍ وكأنّه يلتقط زهرة بربة. بينما القديس أوجستين يرسم علامة الصليب ويبتسم له مانحًا إياه البركة.. العظيم شيشنق يصيحُ صيحاتِ حربٍ هادرة ويضرب على صدره في قوةٍ وبأس.. يسري علال بإيقاعٍ متسارعٍ وتقترب المغارة المنشودة رويدًا رويدًا من ناظريه.. أخيرًا يصل إلى مدخل المغارة المهيبة فيجد عجوزًا متهالكة ضئيلة الجسد في انتظاره حاملةً في إحدى يديها مشعلًا وبالأخرى تقبض على عصًا تتوكأ عليها.. يشد على ذراعها في استعطافٍ فترمقه بعينٍ واحدةٍ كالصقر

الأعور. وتتمتم بكلماتٍ لا تكاد تفارق شفتيها، ثم تشير بذات العين إلى الطريق بما يستشعره مباركةً منها لخطواته، وتسري كلماتها في كيانه دون أن يسمعها قائلةً: "سيحيا ولسوف تعود". فيقفل عائدًا وقد أفعمت الثقة روحه.. يفيق علال تدريجيًا كالوسيط الروحاني من سكرة حالة (الترانس) التي استغرقته ولا تفارق الثقة روحَه.

يصعد علال الدرج مسرعًا وقلبه يخفق في عنف، أينتظره الرضيع أم يجد أنّ قضاء الله قد نفذ فيه؟ لا يشعر بأنّه يرتكبُ معصيةً ما، هو فقط يستميت ليُبقي على النعمة التي منحه الله إياها. بكاءٌ خافت من داخل حجرة صغيرة جعله يتنفس الصعداء وأبقى على الأمل الخافت في قلبه.

- من فضلك يا (سيستر) تتركيني مع الولد شوية وما تخليش حد يدخل علينا أبدًا لحين ما أخرج.

- إتفضّل يا افندي، قلبي عندك.

انسحبت الممرضة مطأطئة الرأس إجلالًا للموقف وامتنانًا للجنيه الكامل الذي أطبقت يدها عليه، وفي طريقها لخارج الحجرة ألقت نظرة روتينية على أطفالٍ أُخَر يرقدون في سلامٍ على فُرُشهم النظيفة.

تأتي اللحظات الحاسمة وينفرد علال بالرضيع المستسلم، ينزع عنه اللباس الرقيق في رفقٍ فيرتعش الجسد الهش.. يفتح حقيبته في هدوء ويتناول منها طبقًا نحاسيًا مغطًى بورقٍ سميكٍ، فينزع الغطاء ويضع الطبق على الفراش بجوار الرضيع، ثم يشرع في فضّ ورقةٍ أخرجها من

جيب سترته، ويبدأ في تلاوة تعاويذ معقّدة بالأمازيغيّة وهو مغمض العينين في خشوع.

يفتح عينيه في بطء ثم يغمس يده في الخليط اللزج، ويستمرّ في تلاوة التعاويذ بينما يغطّي جسد الرضيع بخليطه السحريّ فلا يترك سوى عينين دقيقتين ترمقان السقف بحركات بؤبؤ عشوائيّة.

في تقاليد السحر الأمازيغي عندما يولد الطفل (تسويت تحفورت) – أي يبقى كما هو لا ينمو وكأنّما شربته حفرة نار الكانون- يلجأ الأهل لتلك الطريقة السحريّة فكأنّما يولد الطفل من جديد.. لم يعد هناك مجال للتشاؤم ولا التشكيك، فلا يوجد أمام علال سوى الإيمان بنجاعة سحر بلاده وليكن ما يكون.

بعد أن كرّر علال ما فعل عدة مرات هدأت حركة الوليد ونعست عيناه ثم انغلقتا تمامًا فسادت لحظات من التوتر.. "ماذا بك يا بني؟ ربما تسللت الروائح الذكية للزبوت العطرية إلى صدرك فهدّأت من روعك ودفعتك للنعاس؟ ربما أنت الآن بين يدي الأسلاف يبثون فيك من قوتهم التليدة ما يُصلحُ من ضعفِك؟ اهدأ وانعم بالنعاس فلسوف تفيق على خير حال، أعلم هذا يقينًا ولن يخذلني جدودي..".

طرقات خافتة على الباب انتشلته من شروده.. انفتح الباب برفق فحدج علال الممرضة بحدة مستنكرًا.. ولكنّها لم تدلف إلى الغرفة بل قالت بصوتٍ مسموعٍ بالكاد: الست فاقت وعايزة تشوف الولد.

تمالك أعصابه وأخذ عقله يحسب الاحتمالات المختلفة، ماذا سيدبج من أكاذيب للوتس عندما تتساءل عما يلطخ جسد وليدها؟ يحمد الله

على وجود أبيها وأمها بالإسكندرية اليوم، لم يكن بحالٍ تسمح له بإعطاء تفسيرات ولا خوض جدالٍ مع المستنكرين لما يفعل، حسْبُه لوتس نصف الواعية والتي سيمكنه حتمًا أن يقنعها بأنّ الخلطة التي تغطي جسد الوليد مجرد خلطة شعبية تعلمها قديمًا ستمنح بشرة الوليد نضارةً وتقيه التهابات الصيف لوقتٍ طويل.

أشار علال للممرضة بالدخول فاقتربت في صمت. كان جسده يحجب عنها الرؤية ولما بلغت فراش الوليد انسحب خطوة للخلف فشهقت الممرضة ذعرًا لما رأته من جسدٍ دقيقٍ عارٍ تكسوه طبقةٌ داكنةٌ ولا يحرك ساكنًا، وظنت أنّه قد فارق الحياة فوضع علال يده بتلقائية على فمها وأسرع بإيضاح الأمر:

- ما تخافي ماتخافي، أنا وضعت له وصفة شعبية تقوّي جسمه وهو نايم، لقّيه بأي شيء وتعالي نروح لأمه.

خوفًا من المسؤولية تناولت الممرضة منشفة كبيرة ولفت بها جسد الرضيع ورأسه بعناية وحملته بين ذراعها متّجهةً إلى خارج الغرفة وخلفها علال الذي كان قلبه يدق في عنف كسارقٍ يحمل غنيمته جهارًا في وضح النهار.

لحظات تفصل لوتس عن حمل وليدها الثمين بين يديها المتهالكتين وضمّه إلى قلبها المتعطّش لاحتوائه ولثمه بشفتيها الجافّتين..

تخطو الممرضة في بطء إلى داخل الحجرة التي ترقد فيها لوتس النفساء فتتسارع أنفاسها المتقطعة ويتهلل وجهها الشاحب وتمد يديها بضعف لتتلقاه بشغف. تتراجع الممرضة في تردد ثم تحسم أمرها فتخفض

ذراعها بالوليد راسمةً ابتسامة مصطنعة على شفتيها المزمومتين، وتُجلّه برفق بين ذراعي الأم المتلهفة وبجوارها علال يترقّب في هلع ردة فعل زهرته الهشة على مرأى الوليد الهزيل وما يجلّل جسده من غشاء داكن.

- إيه ده؟ إيه ده؟ فين ابني؟ مين ده؟ هاتولي ابني انتوا جايبين لي إيه؟

انطلقت الدموع غامرة من عيني لوتس وأخذ جسدها ينتفض في عنف فانكبّ علال مسرعًا على يدها مقبّلًا وأخذ يهدىء من روعها:

- حبيبتي ما تخافي، ده إبننا وهيكون في أحسن حال.. بصّي عليه وما تخافي.. جميل ولمّه ضعيف لكن هيكون أحلى ولد..

من بين دموعها رمقته لوتس بحدة:

- علال.. ده صغيّر أوي وما بيتحركش.. ما تضحكوش عليا هو ميت؟

وضع علال يده على فمها في قوة:

- ما تقوليش الكلمة دي.. هو عال.. أنا دهنت جسمه كله بخلطة عطارة متجربة في بلادي هتديله قوة وصحة ما تتخيلها.. هو نايم وهادي.. حطي ودنك على قلبه هتلاقيه بيدق وكلها دقايق وهتلاقيه بيصرخ ويبكي ويملا الدنيا عليكي دوشة وسعادة.. طول ما انا جنبك وجنبه ما تخافي. بصي بصي، عينيه بتفتح اهو.

لم يكن وصف علال دقيقًا، فأمام أعين الثلاثة كانت عينا الوليد تختلجان في سرعة كمن يمر بأطوار كابوسية في نومه، ارتبكت الممرضة وصاحت: أنا هاجيب الدكتور، وتصلبت عينا علال على وجه الصغير،

بينما تحجرت دموع لوتس وانخلع قلبها هلعًا فبدأت تنتحب بصوتٍ خافت:

- ده بيموت يا علال ده بيموت! عملت في ابننا إيه؟

انتزع علال وليده من بين يديها وأخذ يمرر يده على الرأس الصغير مرددًا مالم يصل لأسماع لوتس من تعاويذ حفظها عن ظهر قلب.

اقتحم الطبيب الشاب الحجرة مهرولا تجاه الفراش وصاح:

- وريني الولد، إيه ده؟ انتو عملتوا فيه إيه؟

ردّ علال بسرعة:

- دي أعشاب مقوية أنا اللي دهنته بيها ماتخاف يا دكتور كلها أعشاب طبيعية أنا أبوه وعارف باعمل ايه.

حدج الدكتور الممرّضة بنظرة ناريّة ثم صاح:

- أعشاب إيه يا حضرت؟ الطفل في عهدتنا وما ينفعش اللي بتعمله ده.

أحنى الطبيب رأسه تجاه الرضيع الملتحف بذراعي والده ليسمع دقات قلبه فهبت بوتيرتها الصاروخية فنظر للمرضة في سخطٍ وصاح:

- هاتي الولد بسرعة وتعالي ورايا ننضفُه.

تحفز جسد علال وصاح معترضًا:

- ما حدش يقرب له، ده ابني وانا عارف الأنفع له!

لدهشة لوتس والممرضة لم يعترض الطبيب هذه المرة وبدا كمن يعيد تقييم الموقف، الوليد شديد الهزال ومؤشراته الحيوية غير مشجعة منذ

البداية فما الدافع للدخول في جدال وشجار مع الأب الذي يبدو كمن فقد صوابه؟

نظرةٌ أخرى مطوّلة إلى الجسد الصغير عزّزت من تخاذل الطبيب، إذ بدأت حركة عينيه في التباطؤ ثم سكنت تمامًا وبدأت عيناه في الانفراج، وفجأة تصاعد بكاء الوليد كمن ولد لتوّه فتلقّته الممرضة من يدي علال الذي تركه في بساطة وعيناه معلقةٌ عليه في ترقّب:

- سيبيه على الفرش مع أمه إذا سمحتي.

استجابت الممرضة لرجاء علال فوضعت الصغير إلى جوار أمه الملتاعة، وانسحب الطبيب دون كلمة ثم لحقته الممرضة مهرولة.

جلس علال على طرف الفراش يربّت بيدٍ على رأس لوتس وبالأخرى على جسد الرضيع:

- ما تخافي أنا قلت لك، هيكون بخير وهينوّر بيتنا وحياتنا.

في وجلٍ أخذت لوتس تتأمل وليدها ومررت يدًا حذرة على رأسه المجلّلة بالخليط الداكن وفي عقلها كانت المصائر السوداء التي تنتظرها تتصارع أيّها سوف يتحقق.

* * *

(١٥)

- حلو فارس مش كده يا بابا؟

تساءلت لوتس في حبور. فنظر عبد الحميد الناغي في حنوٍ إلى حفيده الراقد إلى جوار أمه على فراشٍ وثيرٍ يصارع اللا شيء بيديه الدقيقتين ويرمق سقف الغرفة محدقًا في (لا شيء) آخر.

- مافيش أجمل من كده يا حبيبتي، ربنا يبارك فيه.

في رضًا جلس علال متكئًا على جانبي (برجير) أنيق بجوار فراش زوجته، وشعورٌ بالامتنان لأسلافه يغمره، يبدو أنّ قناعاته لم تخذله، فالصغير يبدو سليم البدن ويمارس بواكير حياته بشكلٍ طبيعي.. هناك الكثير لتفعله في تلك الحياة عندما يعجز الأطباء ويقفون أمامك متبلدين نافضين أيديهم من وليدك.. هو لم يقترف جريمة عندما فعل ما فعل. "لهنأ بحياتك يا بني ولتتذكر يومًا أنّ لك جذورًا طيّبة ربّما هي من أنقذتك من براثن الموت".

مرت الأيام في صفوٍ وقد اعتاد الوالدان حجم فلذة كبدهما الدقيق وعاد علال ليهتم بالبحث والدرس العميق في كل ما أهمله لسنواتٍ من علوم أجداده ساعيًا لمعاونة الأيام في مهمتها الشاقّة لإنماء بذرته الضعيفة، فخالف نصائح الأقربين وشرع يُعِدُّ الأمزجة والوصفات ويخلطها بالماء والحليب ليُسقي الرضيع ما ظن أنّ أمعاءه الدقيقة

تتحمله، فبدأ ينمو حثيثًا حتى صار في غضون شهورٍ معدودة رضيعًا طبيعيًّا جمّ النشاط.

كانت لوتس مستسلمةً لزوجها عندما يأخذ فارس ليختلي به في غرفة مكتبه دون أن تدري لذلك سببًا ثم يعود الرضيع وقد فاح فمه بروائح عطرية تجهل كنهها، ولكنّها اعتقدت يقينًا أنّ ما فعله زوجها يوم الولادة هو ما أنقذ حياة فارس من مصيرٍ كانت وجوه الأطباء والممرضات المتجهمة تشي به. تلثم لوتس في حبّ أصابع الرضيع الطويلة التي تنبىء ببنيانٍ فارع الطول يشابه أباه وما ظلم.. تعشق فكرة أن ترى من كانت تحمله بداخلها يخرج إلى الحياة حاملًا ملامح وبنيان حبيبها وينمو أمامها وكأنّ الزمن قد عاد بها فصارت أمًّا لمن تحب.

تهدهد لوتس صغيرها فيقرقر كالهرّة المطمئنة ثم تختلج عيناه اختلاجاتٍ لم تغذ تثير قلقها، كانت قد تذكرت عندما عاد إلها روعها أنّ اختلاجاتٍ كهذه تنتاب علال ليلًا عندما يُغرق في الأحلام حتى إنّ عباراتٍ مختلطة تندّ عن شفتيه حينها بلهجته الأصلية تكاد لا تفهم منها شيئًا ولا عجب أن تنتاب أحلامٌ كهذه طفله، "كم هي قويةٌ (جيناتك) يا حبيبي وكم يشبهك فارس وكم أذوب فيكما عشقًا "..تنكبّ على رضيعها لثمًا والدموع تغرق وجهها الذي بدأ يستعيد نضارته.

حالةٌ من الصفاء الروحي والسلام النفسي أرخت سدولها على علال بعد أن اعتزل الحياة العامة لفترة وتفرغ تمامًا للعناية بلوتس وفارس، والإغراق في استعادة ذاكرة ما انقضى من حياته السالفة. كان كعالِم رياضياتٍ يعيد صياغة معادلاتٍ معقّدةٍ وقد انحلّت عقدتها، فغمرته الحماسة وأفعمه الرضا بعد أن عدل مسار مسألته للطريق الصحيح،

كيف غفل كل هذا الوقت عن جذوره وكيف تناسى عمرًا طويلًا قضاه في رحاب تاريخ أسلافه؟ غوته نداهة الحياة الرغدة وأسره عطر اللوتس الأخاذ ولكنّ ماضيه الحبيب لم يخذله في كربته.

ما استجدّ أيضًا في علاقة علال بماضيه حلمٌ راح يقضّ لياليه ويوقظه مرارًا لم يجد له معنًى سوى أنّه لابد وأن يرتحل إلى بلاده، يبدو أنّ ما منحه الأسلاف إياه لم يكُن بلا ثمن، تذكر كلمات العجوز.. "سيحيا ولسوف تعود".. يبدو أنّه الآن مُطالبٌ بأن يسدد فاتورة نجدة وليده. لم ينزعج علال لذلك الخاطر كثيرًا، فشوقٌ إلى ما استغرق سنين وسنين من عمره قد بدأ يعتلج في صدره، فليكن الرحيل.

بعد أن اطمأن علال إلى صحة طفله واعتدال مسيرها قرر أن يقفل إلى بلاده التي كاد رباط قلبه ينفصم عنها وقد ارتكن واطمأن إلى حياته الجديدة، فأبت إلا أن تجذبه برفقٍ من جديدٍ وتمنحه إكسير الحياة لطفله الوحيد.

كم أنتِ عزيزةٌ أيتها الأوطان، تمنحيننا ونحن العاقّون وترأفين بنا مهما قسونا عليكِ.. عزم علال على البقاء فترةً في كنف وطنه يعيد فيها صقل روحه ويؤدي ما رآه حق الشكر لأسلافه فاعتذر للصحيفة عن استكمال كتابة مقالاته لفترة إضافية، وأبلغ مدير المدرسة بغيابه حتى بدء العام الدراسي الجديد ثم استودع حبيبيه بيت حميه.. لثم جبين لوتس وراحة يد فارس الصغيرة ورحل.

* * *

باهي وريم

(١٦)

شيءٌ ما في تبدل لون عيني هالة أعاد إليه حاجزًا كان يقف بينه وبينها فيمنعه من خطب ودها.. "دي عينها بتقلب ألوان! دي فعلًا مسحورة،مش هينفع، مش هينفع".. جال بخاطر باهي وحسنًا فعل لسانه عندما لم يتطوع بنطق ذلك الخاطر أمامها في ذات لحظة تبدل لون عينيها، فما أبلغ الصمت من خطيبٍ عندما يتعلق الأمر بباهي.. آخر ما يحتاجه هو أن ينكشف ارتباكه وخواؤه الداخلي أمام الآخرين ولا سيما في حضرة هالة، هو يلتحف بإزار الصمت الساتر ليحتفظ بصورة الغامض المهيب في العيون، ويتذرّع بالانطوائيّة وحبّ العزلة متجنّبًا المتطفّلين الذين يعلم جيّدًا أنّه لن يجاريهم في عنفوانهم وطلاقتهم.

فقط مرأى هالة وأشرف هو ما دفعه لاتخاذ خطوته المتهورة بالاقتحام المفاجيء وربما أيضًا بعضٌ من يقين تملّكه أنّه لن يفعلها أبدًا مالم يدفعه دافعٌ قهري لفعلها.. وهل من دافعٍ يمكن أن (يقهره) كضحكات هالة غير المتحفظة مع غريبٍ يبدو وسيمًا؟

كانت تلك الواقعة حدًّا فاصلًا قرر عنده أن يضع نقاطًا فوق حروف مشاعره تجاه هالة، كانت تلك المشاعر حزمةً غير متجانسةٍ لم يستطع يومًا أن يفضّها ليتبيّن حقيقتها.. كان يراها بعيني عاشقٍ، ويخشى عليها بقلب أبٍ مشفقٍ، ويخشاها بذعر طفلٍ في حضرة ساحرة، ويحلم

بالابتعادِ عنها بشغف محبوبٍ يفرّ من حبٍّ لا يبغيه! نفض عن قلبه غبار الغيرة الذي ران عليه لدى مرأى هالة كالمسحورة في حضرة أشرف، استحضر مرارًا لحظة تبدل لون عينيها، ثمّ أضمر في نفسه أمرًا.

لم تكن ردة فعل ريم على تلك الواقعة حادة كباهي، كانت قد لاحظت يومًا تغيُّر لون حدقتي هالة فأخبرتها الأخيرة أنّها تضع عدساتٍ ملونة أحيانًا عندما تشعر بالملل.. ولكن أن يتبدل لون عينيها تلقائيًا في لحظة؟ لم تسمع ريم من قبل عن عدساتٍ لاصقة تبدّل ألوانها بشكلٍ تلقائي! على أي حال هي لا تشغل نفسها ولا تأبه بما لا تفهم وتجد الحياة أثمن كثيرًا من أن تضيعها في محاولات إيجاد تفسيرات لا طائل من ورائها لأمور غير ذات جدوى. لا تبحث ريم سوى عمّا يشبع جوعها الأبدي لتقدير الآخرين، فتبتذل نفسها كثيرًا بإلقاء دعابات لا تصدر عن فتاة لتجذب الانتباه، وتلتصق بفاتنةٍ كهالة لتفيد من تحلّق ذكور الفراش حول تلك (الهالة) من النور، وتجتهد في دراستها كذلك لتصير قبلةً لشباب (الدفعة) ممّن لا يملكون وقتًا كافيًا للدراسة وقد تستهويهم فتاة تصنع (الكبسولات الدراسية) للمواد النظرية، و.. ولا تتحرّج من أن تترصّد من لا يروقون الفاتنة من ذكور الفراش كذلك!

كان من الجليّ الآن في عينيّ ريم أنّ باهي لا يمكن بأي حال أن يكون منتهى آمال هالة، فعلى الأقل هناك طبيبٌ شابٌ وسيم الطلعة راجح العقل قد قام (بالتزويغ) من العمل على ما يبدو ليجالسها بحجةٍ غير كافيةٍ للإقناع، كان كذلك الارتباك البالغ الذي اعترى باهي ثم إجفاله وانسحابه الصامت الوجِل عندما انقلب لون عيني الفاتنة (الممسوسة) بمثابة إعلان وفاة لعلاقتهما الصامتة.. لن تستلقي هالة مجددًا على

أرض روحه العشبية ولن يطلق هو مزيدًا من التنهيدات الصامتة ليسكّن أوجاع روحها فطبيبٌ شابٌ يبدو أنّه يهواها سيمنحها بالتأكيد مسكّنًا أقوى أثرًا.

- انت إيه اللي خلاك تمشي امبارح من غير ما تسلّم علينا حتى؟

انتفض باهي واقفًا عندما طرقت مسامعه عبارة ريم التي لم يصدر حذاؤها الرياضي (طرقعات) أنثوية تشي باقترابها من مجلسه:

- ريم؟ صباح الخير.. أنا آسف والله إوعي تكوني زعلتي، أنا بسّ حسيت فجأة انّي عايز اروح الحمّام ف..

- حمّام؟ انت هتشتغلي يا باهي؟ يا حبيبي دانا باشتغل الكلية كلها بطلبتها بنجومها بدبابيرها، انت عارف وانا عارفة انت سحبت من قدام هالة ليه فبلاش كلام الأطفال ده، ده انت لو في (كيه جي وان) هتستأذن علشان تروح الحمّام!

لم يكن باهي ممن يستسيغون أن تتبسط الفتاة في مخاطبة شاب إلى درجة (يا حبيبي).. عقد حاجبيه مغضبًا ولم يُجر جوابًا فاستطردت ريم:

- مش باقول لك (كيه جي وان)؟ باقول لك إيه؟ لو عايزنا نبقى اصحاب بدل ما انت مقطوع من شجرة كده صحصح معايا شوية، أنا بافرض نفسي عليك أه بقى، ماهو الظاهر انا جاية الكلية دي علشان افك عقد الناس اللي زيك وزي الحلوة اللي عينها بتقلب ألوان دي، بس انت سيبلي نفسك كده ومش كل ما تشوفني تلبس وش القاتل الصامت ده!

رغمًا عنه غزت الابتسامة وجهه ومسّت سخرية ريم اللاذعة عصبًا مكشوفًا في روحه.

- أيوه كده، شفت لما شلت الوش بقى شكلك (كيوت) ومنور تاني ازاي؟ يا خلاسي!

اتّسعت ابتسامة باهي دهشةً وحبورًا بتدليل ريم، وللمرة الأولى منذ رآها بدأت عيناه تتفحص وجهها القسيم وابتسامتها الفطرية التي تسخر من الكون جميعه.. شعر برغبةٍ شاذةٍ في أن (يقرص) خديها الممتلئين ويربت على (طرحتها) التقليدية.. دفءٌ إنسانيٌ لم يخبره قبلًا أخذ في التسلل إلى جنبات روحه كغاز الضحك ليملأها بسعادةٍ طفوليةٍ افتقدها منذ كانت مس هناء تقرص خده في أيام (كيه جي وان) قائلةً (يا خلاسي).. كيف تجسّدتِ يا ريم في صورتها وهل كنتِ تربننا من حيث لا نرالكِ؟

- ماشي يا ريم أنا فعلًا مبسوط أوي اني عرفتك لكن يعني مش متعود آخد على حد بسرعة كده، بس انتي صح.

- ماشي يا صديق، عذرك معاك، تعالى طيب نتمشى شوية.

وانطلقا.

* * *

(١٧)

- انتي كنتي فين يا ريم؟ مستنياكي من الصبح حتى فوّتت محاضرة التشريح وموبايلك مقفول لدرجة شكيت تكون راحت عليكي نومة، بس ما حبيتش اصحي مامتك بالتليفون.

بفتور غير معهود ردت ريم على هالة وهي تتفقد هاتفها المحمول:

- آه فعلًا راحت عليا نومة وكنت مرهقة شوية، وأول ما صحيت نزلت نطيت في تاكسي وجيت، الموبايل فعلًا كان مقفول هافتحه اهو، يعني.. كنت زهقانة كده ومافكرتش اكلم حد فما خدتش بالي.

اشتمّت هالة رائحة الفتور من كلمات ريم فصمتت وطفق عقلها يربط أحداثًا وشكوكًا ساورتها منذ الأمس، لِمَ جاءت صديقتها الأثيرة بباهي في تلك اللحظات بالتحديد؟ كانت تعلم علم اليقين أنّ مساحةً ما من الغيرة تحتل علاقتهما منذ اللحظة الأولى وإن لم تكن تلك المساحة من الاتساع بحيث تعكر صفوهما، ولكنّها تعلم أيضًا أنّ ريم تدرك احتلال باهي قدرًا ما من الاهتمام لديها فلِم تتعمد أن تضعها فيما بدا كإحراجٍ متعمد أمامه وأمام أشرف؟

آه من كيد الفتيات، ومنكِ أنتِ بالذات يا ريم؟

- إيه رأيك في أشرف؟

باغتت هالة صديقتها بهجمة مباشرة.

- من ناحية إيه يعني؟ هو انا اتكلمت معاه كلمتين حتى؟

صدّت ريم الهجمة.

- يا ريم دانتي بتحللي شخصية سواق الميني باص مسافة ما نركب.

عاودت هالة الهجوم.

- ماشي بس ده دكتور مش سواق، وبعدين ده داخل علينا يرسم مش بطبيعته زي السواق الكفران ساعة ضهرية، عارفة يا هالة؟ أصعب حاجة على البنت انها تفهم واحد بيقابلها لأول مرة وهو بيرسم عليها دور الشاب ابن الناس المهتم، عمرك شفتي واحد بيرسم على واحدة ويقول لها مثلًا انها تخينة شوية من تحت ولا يقول لها انّ المزة اللي معدية جنبهم دي شبه هياتم على رفيَّع؟ هيقول لها مثلًا على قعدته مع اصحابه وهما بيحششوا أو هيشتم براحته قدامها؟ يا حبيبتي علشان تحكمي على واحد ليه غرض منك لازم تستفزيه يطلع اللي جواه أو تراقبيه وهو قاعد مع اصحابه وانتي متنكرة!

أحرزت ريم هدفًا مفاجئًا في شباك هالة المشدوهة إثر حديث صديقتها الصادم.

- هو فيه إيه يا ريم؟ مين قال لك انّ أشرف بيرسم عليا؟ ده واحد قريبي وعايز يساعدني في مشكلة بامر بها، وبعدين ده جاي يقابلني في الكلية يعني لا حاول يقابلني في كافيه ولا قال لي تعالي نروح جنينة الأورمان. هو انتي أي واحد عندك ما بيفكرش غير في إنه يرسم على البنات؟ ولد دكتور محترم وحاسس بمسؤولية أدبية عن قريبة ليه في مقام أخته

وضميره أنّبه لما حس انها لجأت له وهو اتخلى عنها. ليه تحكمي عليه بالشكل المراهق ده؟

تلقّت ريم هجمة هالة الضعيفة بمزيد من الثقة:

- والنبي يا هالة بلاش انا. أخته إيه بس؟ الولد كانت ركبه بتخبط ع الجيران وودانه حمرا لما شافك. آه أنا لسه تلميذة بس في الحاجات دي أستاذة ورئيسة قسم. ماشفتيش شكله لما باهي جه؟ ده انا حسيت انه كان خلاص هيقوم يضربه! الولد بيغير عليكي يا هالة. وبعدين بصي حواليكي كده وهاتيلي واحد حاول يتكلم معاكي علشان يتعرف بزميلة فاضلة ويناقشها في العلم! ما لاحظتيش كل واحد بيحاول يتعرف عليكي يقوم يتسهوك ويلبس وش أحمد عز وهو كان من خمس دقايق واقف وقفة أوكا وأورتيجا مع اصحابه يغنوا مهرجانات على اللي رايحة واللي جاية؟ انتي يا حبيبتي واحدة منعزلة عن عيلتك وبتتكلمي بالقطارة وقافلة على نفسك. إيه هيكون غرض واحد قريبك من إنه يجيلك مخصوص في يوم شغل غير إنه يرسم؟ هو فيه دكتور صغير فاضي يضيع وقته مع واحدة بتقول له انا باحلم بحاجات؟ هو كان متخرج من كلية طب قسم دجل وتفسير أحلام؟

هدف ثانٍ تستقبله شباك هالة بلا حارس مرمى.

- مش ممكن يا ريم، هو انتي مش بتفكري غير في الحاجات دي؟ هي الدنيا مافيهاش غير بنات عايزة تعرف ولاد وولاد بترسم على بنات؟ إنتي غريبة فعلًا.

تمريرات عرضية غير موفقة من هالة تستكشف بها مرمى ريم المحصن.

- ما غريب إلا الشيطان يا هالة والشيطان مش بيهزر. خلي بالك انتي من نفسك بس علشان انتي خام ومش جمل دكتور الغرام ده. مش بتقوليلي رأيك إيه فيه؟ طيب انا مش متطمناه.

في ظروفٍ أخرى كانت هالة لِتقتنع بنظرة ريم الثاقبة في البشر. ولكنّ شرخًا ما اسمه (الإغراض) أخذ في الاتساع ليعمق شكوك هالة في صديقتها الصدوق. لم تشتمّ رائحة الحماية والصدق التي ربطتها بريم منذ التقتا. كانت كلمات ريم تفوح برائحةٍ هي مزيجٌ من خشية فقدان امتلاكها لمفاتح هالة ومن غيرتها الفطرية من تحلّق الفتيان حولها. وبالأخص عندما تعلّق الأمر بطبيبٍ وسيمٍ يبدو كفارسٍ جادٍّ.. لا كما هي العادة حين يخطب ود هالة طالب غير ناضج لن يطمح سوى لأحلامٍ مراهقة غير ذات أرضٍ صلبة، لن تقنع بها هالة وستمنح ريم في ذات الوقت متعة التلاعب وممارسة السيطرة!

لم تنكر هالة بينها وبين نفسها أنّ حديث ريم على الرغم من ذلك حمل كثيرًا من الحقيقة، هي ذاتها لم تبتلع اهتمام أشرف المفاجيء ولم تقنعها مبررات زيارته السريعة، خاصةً عندما امتدَّ الحديث بينهما ليروي لها عن طموحه الأسر وعن انشغاله الدائم بمطاردة فراشات الأحلام ليقتنص مكانًا تحت الشمس وسط طوفان الأطباء الناجحين.. لِمَ يقتطع وقتًا ثمينًا من أجلها بالتحديد وهي التي لم تبادله سوى دقائق مبتورةٍ من الحديث لم تُلقِ سوى ظلالًا كئيبة على شخصيتها؟

تسلّلت ابتسامة متحمسة إلى قسمات وجه هالة.. "أربيةٌ أنتِ يا ريم رغم كل شيء".

* * *

(١٨)

"في البدء كنتِ ترافقين الظلّ في حضرتها
في البدء كان الوهجُ يُبهر ناظريّ فأرتمي
(مجنونَ هالة) ظامئًا للريّ من رفقتها
في الظلّ كنتِ تلطّفين القيظ من قسوتها
فأروح محتملًا حرارة شمس صيفٍ
وأزاحم النسمات توّاقًا إلى حظوتها
مسّت يداي هجيرها فجزعتُ..
هل يحرقُ النورُ الفراشة حين تدنو؟
أم هل تكونُ الشمس قاتلةً إذا ضمّتها؟
عجبًا لقلبٍ لم يَثِق إلا لقاتلةٍ
بَينا الحبيبة تُنجدُ المسحورَ من قِتلَتها
بُعدًا لحُبٍّ يلتمس نارًا تلظّى
ويتيهُ عن ظلّ يقيه الموت من حمأتها"

حكّت ريم رأسها من أسفل (الطرحة) تعبيرًا عن الدهشة من تلك الأبيات الفصيحة التي لاقت صعوبةً كبيرة في فكّ معانيها. نظرت مجددًا إلى تلك الورقة التي وجدتها منذ دقائق في حقيبة يدها والتي يبدو أنّ هناك من دسّها هناك منذ الأمس. فالحقيبة لم تفارق يدها منذ غادرت المنزل هذا الصباح.

- صباح الخير يا ريم.

حمل صوت باهي الجواب لتساؤلها الحائر. فضيقت ريم عينها وحدجته بنظرة صقر عجوز:

- انت اللي كاتب الكلام ده؟

احمرت أذنا باهي وأجاب في خجل:

- عجبك؟

عاودت ريم حك رأسها مجددًا، لم يبدُ على باهي أمارات النبوغ في أيٍّ من مناحي الحياة، هي فقط كانت قد بدأت تهتم به لأنّه المتاح! هذه الأبيات تبدو مُحكمة -وإن كانت لا تفقه شيئًا عن الشعر- غير أنّ تلك العبارات الفخيمة لا تصدر عن غير ذي موهبةٍ ونبوغ. هي متفوقة دراسيًّا وتدرك جيدًا أنّ تلك الأبيات خالية من الزلّات اللغوية والهنات اللفظية بل تتمتع بأسلوب جيدٍ كذلك:

- انت مين اللي كاتب لك الكلام ده يا ابني انت؟

بحمرة الغضب تلك المرة تقلّصت أذناه وصاح:

- أنا مش كداب يا ريم لو مش عاجبك الكلام قولي وخلاص.

كعادتها سيطرت ريم سريعًا على الموقف بابتسامة ملطّفة:

- خلاص خلاص ما تزعلش، ده انت كميل خالص وتكتب أبوه كمان، أنا بس مش مصدقة انّك جامد كده، ده انا افتكرت نفسي باقرأ للجبرتي.

في استنكار طفولي لوح باهي بيده:

- هو "الجبرتي" كان شاعر؟ "الجبرتي" مؤرخ يا ريم!

ولأنّها كما يقول العامة (ماتِغلَبِش) ردت:

- طب ما انا عارفة، وهو ده شعر؟

بلغ السيل الزبى فأدار باهي ظهره بعصبية مزمعًا الانصراف لولا أنّها استوقفته بحسم:

- باهي، الكلام ده أحلى كلام قريته ف حياتي.

للمرة الأولى ربما تحلّق طيور النورس في كلية الفنون الجميلة بعيدًا عن هالة، وللمرة الأولى في حياتها قاطبةً تلعب ريم دور صانعة السعادة لأحدهم، هل كانت تلك هي أيضًا المرة الأولى التي يخفق فيها قلب باهي بهذا العنف؟ لم يكن بحاجة لمزيدٍ من عرض مشاعره ولا لشرحها كما بثّها في أبياته، فذكاء ريم المتوقّد كفيلٌ بقبول حبه المفاجىء المبثوث شعرًا دون أسئلة:

- من إمتى؟

- مش عارف يمكن من الأول بس ما كنتش قادر اشوفه.

- طيب قد إيه؟

- برضه مش عارف بس كل ما ابص حواليا الاقيه، أكلم نفسي يرد عليا من جوايا، أنام أحلم بيه، أصحى يقول لي صباح الخير، أشوفك اتأكد انه بقى مالي كل لحظة ف حياتي.

- يا لهوي، انت مين يا ابني؟ انت مش ممكن تكون باهي.

- حتى لسانك الفلتان ده بقيت باعشق كل كلمة بتجري عليه واحسدها على انها بتلمس شفايفك.

- .....

- بحبك يا ريم.

- طيب والشمس؟

- غابت خلاص وهاعيش للضلّ، الناس بتحتاج للضلّ لما بتقسى عليها الشمس، وساعتها بيكون أغلى من كنوز الدنيا ويمكن يجيلنا ضربة شمس ونموت كمان من غيره، لكن الشمس لو غابت بتوحشنا صحيح بس بنقدر نعيش من غيرها والحياة تبقى حلوة وتستمر.

- يااااه يا ابن الفصيحة! إيه الكلام الحلو ده؟ أنا كده هادوخ منك والبَسك تهمة!

- ما انا لبست التهمة خلاص، والحكم صدر وبقيت مُدان بحُبّك.

- .....

- ريم أنا خلاص حاسس انّي مكتفي بحُبّك ومش محتاج الناس في حاجة، هو يجرى حاجة لو فضلنا مع بعض على طول ما نكلمش حد ولا نشوف غير بعض؟

- إسكت يا ابني شوية بقى خليني اعيش اللحظة. هو انت يا تبقى ابو الهول يا تفضل تدلدق كلام زي الأطفال؟ أنا باستوعب لسه اللي بيحصل لي ده.

- أنا فعلًا حاسس انّي طفل لقى نفسه في عالم مسحور، نفسي امسك كل الفراشات في لحظة واحدة والعب بكل الحاجات اللي..

- تلعب؟ تلعب إيه يا حبيبي اهدا شوية كده علشان ما تلخبطش في الكلام!

- .....

- إيه؟ انت اتكسفت تاني؟ لا والنبي خلاص انا آسفة. إلعب يا حبيبي العب!

- ريم انا عايزك ما تقوليش كلمة حبيبي إلا لما تكوني قاصداها بجدّ، أنا نفسي اما اسمعها منك احسها حقيقي مش احس انّك بتقولها زي ما تكوني بتكلمي طفل صغيّر.

- هنبدأ الجنان بقى؟ ما انت لسه بتقول انا حاسس اني طفل، غلطت انا ف إيه بقى؟

- .....

- خلاص خلاص ما تتقمصش، مش قصدي حاجة أنا بس كنت باهزر معاك علشان الموقف غريب عليا لسه مش مستوعبة. انت عارف فيه فرق في السرعات سيدي الرئيس!

- بصي في عينيا يا ريم.

- بصيت اهو.

- شايفة نفسك؟

- طيب ما هو عادي اشوف نفسي، ده انعكاس طبيعي، يعني لو بصيت لعينين ام محمود الداده هاشوف نفسي برضه!

- حرام عليكي بقى، مش كل حاجة تقلبها تهريج.

- يعني يا باهي عايزني اعمل ايه لما اشرب مفاجأة كده ع الريق؟ أنا قلت لك باستوعب، سيبني براحتي بقى.

- حاضر يا.. يا حبيبتي.

غلب على ريم في تلك اللحظة شعورٌ مختلطٌ لم تتمكن من فهمه على وجه التحديد، هل أتى تجاوبها الفوري مع باهي كردة فعل تلقائية لفتاة تفتقر دومًا إلى تقدير الجنس الآخر ، أم أنّ إعجابًا ما به قد قادها من الأساس لتفعل ما فعلت وتضع ذلك الحاجز بينه وبين هالة؟ "لماذا أوغلت يا باهي في هذا الطريق قبل أن تتلمّسه أقدامنا جيدًا؟".. على أي حال هي لن تدع فرصةً كتلك تتفلّت من بين أصابعها، ولاسيما بعد أن رأت لمحةً من الحسرة تلتمع في عيني هالة التي أجبرتها هي في لحظةٍ واحدة على أن تدفع ثمن قلب باهي كاملًا أو أن تتنازل عنه على الفور!

"آه، ما أجمله من شعورٍ أن أمتلك ما سعت جميلة الجميلات لامتلاكه.." جال بخاطر ريم وهي تمارس رقصة (فالس) أخيرة مع قلبها قبل أن تمد يدها لباهي طلبًا لاحتواء يده.

* * *

الغرفة

(١٩)

دائمًا ما كانت (تيمة) الغرفة المحظور دخولها من (التيمات) المحبّبة للحكّائين على مَرّ التاريخ. ولطالما استمتع بها الأطفال ذوو الخيال الخصب والكبار من عشّاق الحكايات الغامضة. ولكن أن تكون أنت ذاتك ممن يُحظر دخولهم إحدى غرف المنزل فهذ شأنٌ آخر.

كانت تلك الغرفة التي يمنع أسعد أهل بيته من دخولها تشغل حيّزًا ذا شأن في حوار هالة مع أشرف، ربما لما تثيره لديها من غصّة وشعور بالرهبة. كان فارس التطواني ذاته مهيبًا عميق النظرات بما يكفي لإثارة تلك الغصّة لديها. فما بالك بشعورها عندما ينغلق عليه باب تلك الغرفة المحظورة مع أبيها؟ ما عساه يدور في تلك الغرفة التي يحيطها سياج من غموض يثير الرجفة في جسدها ولِمَ لا يسمح أبوها لسواه والتطواني بدخولها؟

تذكر هالة أنّها كانت تحاول دومًا التنصّت على ما يدور داخل الغرفة فلا تسمع شيئًا وكأن عُمّارها أسعد وفارس يغطان في نوم عميق ما إن ينغلق الباب. فزاد هذا من حيرتها! لِمَ يقضيا الساعات الطوال بالداخل وهما لا يتحدثان إذن؟

نهرتها أمها في غير مرة عندما وجدتها تسترق السمع بجوار الغرفة. فنهلة تدرك جيدًا كم يحرص أسعد على عدم انتهاك خصوصياته. وهي لم تكن بحاجة لمن يفتعل أزمة منزلية لا داعي لها إذا ما انفتح الباب فجأة على مرأى طفلة متلصّصة. سيعتقد أسعد دون شك أنّها من كلفت الصغيرة باستراق السمع لترضي فضولها الشخصي بشأن مالا يسمح هو بمناقشته على الإطلاق.. هي قد فقدت بالفعل أي رغبة في معرفة ما قد تحتويه تلك الغرفة ولا ما يدور بين الصديقين الغامضين المُمِلّين داخلها. فالعلاقة بينها وبين زوجها قد انحصرت منذ زمن في تبادل بضع كلماتٍ مقتضبة لا تخرج عن شؤون المنزل من طعام ومصروفات لازمة وأشياء من هذا القبيل. وهي لم تعد تهتمّ كثيرًا بما يفعل عدا ذلك حتى إن اتّضح أنّ الكهلين مجرّد مراهقَين يشاهدان أفلامًا إباحيّة! كانت تتعجب كذلك من زوجها. فالآباء دائمًا ما يميلون بفطرتهم لبناتهم خاصةً إذا ما كنّ وحيداتهم ويدللونهن جميعًا (بحبيبة باباها) ولكنّها لم تشعر يومًا أنّ هالة (حبيبة باباها)! "لا لا.. لن أستخدم هالة أبدًا لإشباع فضولي الشخصي، ولن أتركها لتفعل ما يغضب أباها فتتسع الهوّة بينهما." أسرّت نهلة في نفسها.

على أنّ الفضول لم يفارق هالة ذاتها يومًا. فماذا لو كان الرجلان يقومان بأعمالٍ شيطانية استحضرت تلك الأطياف التي تحيط بها من كل جانب؟ وعندما استفاضت في الحديث إلى أشرف في مكالمة تليفونية لاحقة على مقابلتهما صارحته بمخاوفها تلك، ولدهشتها البالغة لم يسخر من تلك الفرضيّة، بل شاركها الشكّ وكاد يجزم بأنّ ما تعانيه لن ينفصل أبدًا عمّا يفعله أبوها ورفيقه في تلك الغرفة.

طفقت هالة ورفيقها يناقشان الوسائل التي يمكن أن تتبعها هالة لدخول الغرفة دون أن تثير شكوك أبيها، ولكن بعد دقائق من الثرثرة غير المجدية وجد الاثنان أنّه لا توجد بالفعل وسيلة لدخول الغرفة سوى المفتاح! هل تملك هالة الجرأة لتسرق المفتاح من أبيها أثناء نومه؟ اتخذ الحوار بينهما عند تلك النقطة منحًى مضحكًا فبديا كطفلين فضوليين يسعيان لاقتناص علبة (الشوكولاتة) التي تخبئها والدتهما في خزانة مغلقة:

- هو نومه تقيل يا هالة؟

- تصدق انا بنته وما اعرفش لحد النهارده إذا كان نومه تقيل ولا حتى بيشخّر وهو نايم ولا لأ؟

- ليه انتي عمرك ما دخلتي أوضتهم؟

- لأ، عمري ما دخلتها وهو نايم جوه، هو ما بينامش العصر وبيصحى بدري، هادخل عليه وهو نايم ليه؟

- طيب ما تحاولي تدخلي مرة وهما نايمين وتهزيهم بالراحة كده ولو حد صحي اعملي نفسك عندك مغص وعايزة تسألهم عن دوا!

- ماما بتحطّ الأدوية في صيدلية صغيّرة متعلقة قدام الحمّام، حجة خايبة وهتتكشف وتخليهم يشكوا فيا!

- إيه ده؟ دي مامتك قديمة أوي، هو لمسه فيه ناس بتحطّ أدوية في صيدلية متعلّقة؟

- يعني بابا صيدلي، تفتكر صعب عليه هو وماما يفكروا كده؟ دي تلاقيها كانت أول حاجة جابوها في جهاز البيت.

- إيه ده؟ تصدقي دي أول مرة تقولي فيها حاجة تضحّك كده؟ ده انتي طلعتي مصيبية!

- ليه؟ هو انا دمي تقيل؟

- لا لأ مش قصدي خالص، أنا قصدي بس انّك دايمًا بتتكلمي جد وحتى ساعات باحس انك ما بتفهميش هزاري.

- كمان هتطلعني غبية؟ متشكّرة أوي.

- إيه يا هالة؟ انتي بتعملي بالظبط زي الستات اللي بيحبوا النكد وبصطادوا كل كلمة، ده انتي ناقص تقوليلي عمري ما شفت معاك يوم حلو، ها ها ها.

- طيب هو انا فعلًا شفت معاك يوم حلو قبل كده؟ ده انت أول يوم تتكلم مع بعض خفت منّي وطلعتني مجنونة وسبتني واقفة وطلعت تجري.

- تاني يا هالة؟ ما انا شرحت لك بقى الموضوع ده مش هنرجع له تاني.

- بس تعرف؟ اليوم اللي جيت لي فيه ده فعلًا باعتبره يوم حلو.

- بجدّ؟ يعني مبسوطة انّي جيت؟

- بصراحة آه، يمكن في الأول كنت مستغربة شوية وحاسّة بحرج كده علشان ما نعرفش بعض كويس وكمان كنت لسه شايلة شوية من المرة اللي فاتت، بس اما اتكلمنا حسيت انّك زي ما تكون اخويا واعرفك من زمان؟

- أخوكي؟ آه آه ما انا قلت لك اعتبريني زي اخوكي.. أنا اللي قلت لك كده فعلًا. هو انا آه!

- المهم، دلوقتي حتى لو دخلت الأوضة وما حدش حس بيا، تفتكر عادي هادور ع المفتاح والاقيه بسهولة كده؟ ما هو بابا أكيد بيخبيه أو بيشيله في حتة صعب ماما نفسها تكتشفها، انت نسيت انّ هي كمان ممنوعة من دخول الأوضة؟

- آه فعلًا عندك حق. طيب إيه رأيك فيه فكرة تانية.. ما فكرتيش تتكلمي مع مامتك وتحكيلها اللي بيحصل معاكي؟ دي أم وأكيد لو صارحتيها بشكوكك هتعمل أي حاجة ممكن تساعدك وهي أسهل بكتير جدًّا انّها تقدر تلاقي المفتاح وهو نايم. وحتى لو صحي وهي بتدور مش هيحصل حاجة، دي واحدة بتدور على حاجة جوه أوضتها وممكن تلاقي ميت حاجة تقولهاله.

- انت ما تعرفش ماما يا أشرف، ماما منغلقة على نفسها بمعنى الكلمة، أنا ما باعرفش اتكلم معاها في حاجة خالص، إحنا يا أشرف عايشين في البيت جيران في بنسيون زي قصص أجاثا كريستي. كمان ماما حتى لو حاولت اتكلم معاها مستحيل انّها تفكر في حاجة ممكن تعمل لها مشكلة مع بابا. لا لا لا. دي فكرة مش ممكن تتم.

- انتي عارفة يا هالة انّ كلامك ده عنكم خلاني مهتم بيكم جدًّا؟ احنا طول عمرنا عايشين بعيد عن بعض، ما حدش فينا عارف حاجة عن حياة التاني رغم انّ القرابة اللي بيننا ممكن تحل لنا مشاكل كتير جوّه بيوتنا نفسها، الناس لما بتتكلم بتفتّح لبعضها سكك عمرهم ما هيوصلولها وهما عايشين ما بيتكلموش غير مع نفسهم.. يعني لو ماما مثلًا كانت صاحبة مامتك بحُكم القرابة وبيدخلوا بيوت بعض جايز كان

باباكي اتعود على الناس وبقى منفتح أكتر وماكانش يبقى قافل على نفسه كده، كمان ماما شخصية مرحة جدًّا ومسخرة وبتحب الناس جدا لو تعرفها، دي صاحباتها لما بيجولنا بيدخلوا أوضتي أنا شخصيًّا وهي كده في بيوتهم. يعني لو هي صاحبة مامتك كانت أكيد غيرت من شخصيتها وأكيد كانت هتخليها تفكر وما تسكتش غير لما تدخل الأوضة دي بأي طريقة، دي ماما وانا عارفها!

- من الأخر كده انت بتفكر في إيه؟

- في اللي انتي فكرتي فيه، أنا هاقنع ماما انّها تيجي تزوركم، بس ماتاخديش الموضوع بحساسية.

- حساسية؟ وانا مالي؟

- ماهو ماما ما عندهاش عفريت دلوقتي في حياتها غير انّها عايزة تجوزني وكل أسبوعين ترشح لي عروسة وانا باتهرب منها، وأنا مش هاستنى ماما تختار لي واحدة أقضي معاها بقية عمري، إزاي بقى تفتكري انا هاقدر اقنع ماما انها تصاحب مامتك كده من غير سبب؟ أنا هاقنعها انّها تبتدي تزور مامتك وتصاحبها علشان يعني.. إنّي يعني.. كده وكده يعني، عايز اتجوزك!

- .....

وحلّق بعضٌ من طيور النورس الحذِرة في سماء غرفتها!

* * *

(٢٠)

- آلو، ازّيك يا أشرف

- ازّيك انتي يا بنت عمي.

- أشرف، انا مش موافقة على اللي اتكلمنا فيه امبارح.

- مش موافقة؟ إزاي يعني؟

- إزاي يا أشرف تفتكر انّي ممكن احطّ نفسي في موقف زي ده؟ أنا حسيت نفسي رخيصة أوي لمّا افتكرت الكلام اللي قلناه، يعني إيه تقنع مامتك انّك عايز تتجوزني وانا اشترك في التمثيلية السخيفة دي؟ شكلي هيبقى إيه قدامها وشكلي هيبقى إيه قدام مامتي وشكلي هيبقى إيه قدام نفسي انا؟ ده انا لسه في إعدادي كلية كمان يعني حتى طلبك ده شكله هيبقى مش مقبول.

- هالة انتي بتتكلمي ازاي؟ ما تقوليش على نفسك الكلمة دي تاني، انتي تتصوري انّي ممكن أحطك في موقف يخليكي تباني قدام نفسك رخيصة؟

- الموقف هو اللي بيقول كده يا أشرف، أنا ماما بتعاملني لسه زي طفلة ما اعرفش حاجة عن الدنيا ده غير علاقتنا المقفولة أصلًا، مش متخيلة أصلًا ممكن تبص لي ازاي لو اتفتح موضوع زي ده مع مامتك.

- هو إيه اللي تبص لك ازاي؟ هي ماما هتقول لها ابني الدكتور عايز يصاحب بنتك مثلًا؟ وبعدين مين قال لك انها متفاتحها في حاجة زي دي قبل ما يبقوا اصحاب الروح بالروح؟ ما انا قلت لك دي أمي وانا عارفها.

- إيه التهريج ده يا أشرف؟ هنلعب بمامتك ومامتي وبحاجة كبيرة زي الجواز علشان ندخل أوضة؟ عنّا ما دخلناها!

- أولًا مافيش لعب ولا حاجة، أنا مش هاعرّض ماما لحاجة زي دي من غير ما اكون مقتنع، ثانيًا..

- انت قلت إيه؟ مقتنع؟ مقتنع ازاي يعني وبإيه؟

- .....

- آلو، ما ترد يا أشرف

- هالة أنا فعلًا عايز اتجوزك!

- .....

- هالة، مالك؟ أنا قلت فعلًا اللي انا حاسس بيه، انتي ترفضيني لو اتقدمت لك؟

- أشرف إيه اللي انت بتقوله ده؟

- اللي سمعتيه يا هالة، أنا عايز اتجوزك وعارف انّك لسه ما تعرفينيش كويس بس انا عرفت اللي عايز اعرفه خلاص ومبسوط، وعارف انّك لسه صغيّرة بس طبعًا أنا مش قصدي نتجوز على طول، أنا هاطلب من ماما نقرا فاتحة بس ولو حتى عايزة نتجوز بعد اما تتخرجي ما عنديش مانع.

- أشرف انت بتتكلم بجد؟

- إيه يا هالة؟ أمال باعمل فيكي مقلب؟ يا هالة أنا من ساعة ما شفتك بعيون جديدة يوم ما اتكلمنا وانا مش بابطّل افكر فيكي. أنا طبعًا ما كدبتش عليكي لما قلت لك انّي مش معقول واحدة في مقام بنت عمي تبقى في محنة وانا دكتور وممكن اساعدها وبعدين اتخلى عنها. ده كان شعوري فعلًا لكن ده ما يمنعش انّي كنت مهتم بيكي بشكل خاص والشعور اللي كان جوايا ولسه مش فاهمه اتأكدت منه خلاص اما اتقابلنا واتكلمنا. هالة اليوم ده كان أسعد يوم في حياتي.

- .....

- هالة أنا عارف انّ كلامي يمكن صدمك بس انا مش لاقي سبب أخبي عليكي مشاعري أكتر من كده. أنا مش مراهق شاف بنت حلوة فبيحاول يقرب منها علشان عجبه شعور أول مرة يجربه. أنا ما انكرش انّي جربت الشعور ده قبل كده يمكن أكتر من مرة بس انا اتعودت من صُغري اتحكم في مشاعري واعديها على عقلي قبل ما اعمل حاجة اندم عليها بعد كده. أنا شعوري ناحيتك اتأكدت انه حاجة تانية خالص غير كل اللي حسيته قبل كده وعقلي حسّه بعد قلبي. أنا فعلًا دلوقتي حاسس انّي عايز اكمل حياتي معاكي إنتي وبس.

- أشرف أنا.. مش عارفة.

- وانا مش هاستعجلك في حاجة. أنا عارف انّ انتي مش زي أي بنت تانية وعارف انّك لو حبيتي هتبقي أحسن حاجة حصلت في الدنيا للي حبيتيه.

فمش عايز استعجلك علشان لمّا تحسي بنفس الشعور ناحيتي تبقي بجد أحسن حاجة حصلت لي في حياتي.

- أنا عمري ما سمعت كلام زي ده قبل كده يا أشرف وعمري ما فكرت إني هاسمعه من حد. أشرف أنا بجد متلخبطة.

- وانا مش عايز دلوقتي أكتر من كده. خلّيكي متلخبطة وانا متأكد انّ شعوري ناحيتك حهديكي لمكاني. هالة. أنا عمري ما اتكلمت في حياتي بالجرأة والثقة دي مع واحدة. انتي فعلًا طلعتي من جوايا إنسان طول عمري كنت باحلم أكونه وكأنه مستنيكي تظهري في حياتي علشان يعلن عن نفسه. وانا مش هارجع تاني الإنسان اللي كنته قبل ما اشوفك.

- معقول كل ده يحصل علشان اتكلمنا على الأوضه؟

- انتي عارفة انا كنت باسمع إيه دلوقتي؟

- إيه؟

- فيروز. أغنية (الأوضة المنسيّة).. ابقي اسمعيها حتعجبك.

- أول مرة اسمع عنها.

- وانا أول مرة اسمعها بالشعور ده. هالة أنا حبيت الأوضة المقفولة اللي في بيتكم وحبيت باباكي. أنا فرحان أوي.

- الحمد لله انّ فيه حاجة في حياتي فرّحتك. أنا كل حاجة حواليا تجيب اكتئاب ويمكن خوف كمان. يمكن علشان كده انا متلخبطة. تفتكر يا أشرف انا ممكن ابقى بنت عادية تحب وتتحب ولا الحاجات اللي بتحصل لي دي هتمنعني من إنّي اعيش طبيعية زي بقية البنات؟

- الحاجات اللي بتحصل لك دي يا هالة انا بقيت بحبها! كفاية انّ هي اللي خلتك تكلميني، يمكن لو ما كانش فيه حاجة تقرب بيننا عمرنا ما كنا هنفكر نتكلم ونعرف بعض أكتر، هالة أنا بحب الحاجات اللي بتحصل لك دي أوي!

- أشرف.. انت.. انت ازاي كده؟

- أنا نفسي يا هالة عمري ما كنت فاكر انّي ممكن اكون كده، حلمت آه إنّي أكون دكتور ناجح وشفت في أحلامي مستشفى كبيرة بإسمي وشفتني وانا باحاضر في مؤتمرات دولية والدكاترة بتسمع اكتشافاتي بانبهار، لكن من ساعة ما عرفتك كل ما احلم الاقي عينيكي بس هي اللي في الحلم، كأنّي بقيت دكتور عيون بس علشان اتخصص في عيونك انتي!

هل كانت طيور النورس السعيدة التي تحلّق تحت سقف غرفة هالة الآن هي هي تلك الطيور الحذرة التي حلّقت في سماء الكلية صباح يوم لقائهما؟

* * *

(٢١)

" ليل و أوضة مِنسيِّة و سِلُّم دايِر مندار

عليت فينا العلِّيّة و دارت بالسهرة الدار

و العِلِّيّة مِشتاقة عا حب و هَمٍّ جديد

فيها طاقة و الطاقة مفتوحة للتِنهيد

وضْوِيّة لِبيوت تنُوس.. فانوس يسهِّر فانوس

و انت بقلبي محروس بزهر الحَرْقَة و النار

يا رَيْتِ الدنيي بتزغَر و بتُوقف الأيام

هالأوضة وحدا بتسهر و بيوت الأرض تنام

و تحت قُناديل الياسمين انت و أنا مخبايين

نحكي قصص حلوين و لا مين يدرّى شو صار

يا أوضه زغيرة زغيرة فيها الحب تْلاقَيْت

أوسع من دنيي كبيرة و أغلى من ميِّت بَيْت

تعبانة و بدي حاكيك حاكيني الله يخليك

ونقِّلني عا شْبابيك اللّيل و ع سطوح الدار"

هل عشقت هالة أغنيات فيروز قبلًا؟ كانت هالة الآن ترفرف كواحدٍ من طيور النورس التي تحلّق في سماء الغرفة. ما هذه الروعة يا جارة الوادي؟ أكانت تغني حقًّا أم أنها هبطت من السماء كجنية الأمنيات

لتمنح هالة تلك الدقائق من التحليق بعيدًا بعيدًا عن كل ما يعكّر صفوها؟

بعد أن صدح الصوت الملائكي بالأغنية للمرة العاشرة على التوالي لم تضغط هالة على وصلة التشغيل في صفحة (الساوند كلاود) مرةً أخرى، وفارقت (اللابتوب) متجهة صوب صالة الاستقبال في منزلها لتلقي نظرة على (الأوضة المنسيّة).. هل بالفعل تشعر هالة بما تشعر به الآن؟ هل تشعر بامتنان حقًّا تجاه تلك الغرفة التي شكلت على الدوام ركنًا حصينًا مغلقًا في كهف مخاوفها الخاص؟ ما بالك يا هالة؟ هل أوغل أشرف داخلك إلى هذا الحد حتى تعشقين مخاوفك التي جمعت بينكما؟ الأكثر غرابةً كان ما فعلته بعد لحظاتٍ من التحديق في الغرفة.. بخطواتٍ وئيدةٍ اتجهت هالة كالمسحورة صوب باب الغرفة وطبعت عليه قبلة حارّة!

ماذا عليها أن تفعل بعدُ؟ لم يجُل بخاطرها سوى أن تتجه إلى غرفتها بذات الخطوات ثم تتناول شمعتين من أحد أدراج مكتبها وتثبتهما على "الكومود" المجاور لفراشها، ثم توقدهما وتتناول هاتفها المحمول..

- أشرف..

- هالة؟ إيه اللي مصحيكي لدلوقتي؟

- أنا متلخبطة يا أشرف.

- طيب ما انتي قلتيلي كده فعلًا من شويّة.

- لأ، انا اتلخبطت اكتر، منّك لله يا أشرف!

- منّي أنا لله؟ أومّال انا أقول لك إيه؟

- باقول لك إيه؟ عندك شمع؟

- شمع؟ آه متهيألي فيه عندنا، ليه؟

- روح هات شمعتين وولعهم وخلهم جنبك واطفي النور وتعال نتكلم!

- مش فاهم، مالك يا هالة؟

- إسمع كلامي بس.

شيءٌ ما في نبرة صوتها الحالمة ألهب حماسة أشرف فترك هاتفه على الفراش وتوجه ليفعل ما أمرت به مليكة قلبه..

- خلاص يا هالة الشمع منور جنبي اهو والنور مطفي.. فيه إيه بقى؟

- أصلي حسيت اني نفسي دلوقتي اقابلك في مكان هادي ونقعد نتكلم على ضوء الشموع.

- بجد يا هالة؟ يااه.. انتي اللي نفسك في كده؟ انا دلوقتي مستعد اعمل أي حاجة في الدنيا واشوفك.

- ما تعملش حاجة.. قول لي تاني بس انت حاسس بإيه وهتلاقي نفسك شايفني.

- هالة.. أنا مابقاش في قلبي مكان خلاص غير اللي حاسس بيه ناحيتك.

- وهو إيه اللي انت حاسس بيه؟ انت ما قلتليش غير مشاعري ناحيتك من غير ما تفسّر، خلاص مش قادر تقولها؟.

- طيب عايزاني اقول لك إيه؟

- .....

- هالة، انا يمكن ما كنتش عايز اقول لك كل حاجة مرة واحدة علشان ما الخبطكيش زيادة، بس دلوقتي مش قادر ما اقولهاش أكتر من كده، أنا بحبك يا هالة، بحبك لدرجة انّ نفسي دلوقتي لو كنت دكتور قلب يمكن افهم ازاي الإنسان ممكن قلبه يدق بالسرعة دي زي ما بيحصل لي دلوقتي وبفضل عايش!

- بعد الشر عليك.

- يااه يا هالة تصدقي انّ كلمتك دي حسستني انّي طاير في السما؟ انا بحبك أوي.

- مش لاقية حاجة اقولها دلوقتي.. بس فرحانة، مش خايفة، ناسية كل حاجة مضايقاني، مش عارفة اذا كنت بابالغ ولا إيه بس حاسة دلوقتي انّك أحسن حاجة حصلت لي في حياتي.

- أنا مش مصدق وداني، أنا كده لازم ابقى دكتور أنف وأذن كمان عشان اعرف اللي باسمعه ده بجد ولا وداني بتخرف!

- انت ودانك أحلى مافيك! انت أصلًا جبت الأغنية التحفة دي منين؟ انت طلبت من فيروز تغنها مخصوص علشاننا؟

- تصدقي انّ انا زمان سمعت الأغنية دي مرة وعدت عليا عادي ما ركزتش فيها؟ بس من ساعة ما اتكلمنا على أوضة باباكي افتكرتها ودورت عليها وسمعتها زي ما اكون أول مرة اسمع فيروز.

- مش محتاجة اقول لك بقى انّ ده نفس شعوري.

- مين عارف؟ يمكن نسهر يوم فعلًا في الأوضة دي بالذات. أنا مش هاسكت إلا لمّا ادخلها انا بنفسي بقى!

- بنفسك؟ إزاي يعني؟ هتلبس زي عصابة القناع الأسود وتيجي تقتحمها بالليل واحنا نايمين؟

- تصدقي فكرة؟ واهو لو باباكي صحي اقول له جوزني بنتك وانا ما اقولش إيه اللي جوة الأوضة!

- .....

- انتي برضه لسه ما بتفهميش هزاري؟ انتي عقدتيني يا هالة محسساني انّي زي مونولوجيست فاشل في فرح في الشارع!

- أنا بس لسه مستغربة كلمة جواز دي، عمري أصلًا ما فكرت انّي ممكن اتجوز في يوم.

- ده يمكن بس علشان مش حاسة يعني إيه اتنين بيحبوا بعض يعيشوا مع بعض، مش كل الناس زي باباكي ومامتك، علشان كده أنا مصمم انّي اقتحم بجد حياتكم واثبت لك انّ هما اللي عملوا كده في نفسهم وانّ كان ممكن حياتكم كلكم تبقى أحلى من كده بكتير زي حياتنا مع بعض إن شاء الله.

- طيب.. اقتحم.

- باقول لك إيه؟ أنا هاقوم دلوقتي اصحي ماما واكلمها.

- يا مجنون، هتفوّم مامتك من النوم الساعة تلاتة بالليل تقول لها عايزك تزوري طنط نهلة وتصاحبيها علشان عايز اتجوز هالة؟

- وفيها إيه؟ دي أجنّ منّي مليون مرة، ومش بعيد تتصل بمامتك دلوقتي!

- نعم؟ دي ماما ممكن تصنفها مجنونة رسمي وتقفل في وشها، معلش يعني مش قصدي..

- ها ها هاا.. هو انتي صدقتي انّها تعملها؟ هي مجنونة آه بس أستاذة في الاجتماعيات، هي لما تعرف انّ ده هيفرحها بيا هتتكتك وترسم ولا الـ"سي أي إيه" وخلال أسبوع واحد مامتك هتبقى ما تستغناش عنها، أصبري عليا بس.

- ماشي، أنا ابتديت اتفاءل، حاسة انّ كل اللي بتقوله هيحصل، حتى اللخبطة اللي كنت فيها ابتدت تتفك شوية.

- بجد؟ اتفكت ازاي يعني؟

- أنا باقول لك ابتدت تتفك، استنى عليا شوية لحد ما افهم بس، أنا حاسة انّي باتخطف.

- انتي اتخطفتي فعلًا وانا مش هاقبل على فكرة أي فدية كده وخلاص، انتي لسه ماتعرفينيش.

- مش قلت لك متلخبطة؟ انت بنفسك بتقول اهو.. أنا لسه ما اعرفكش.

- إعرفيني براحتك، أنا خلاص عرفت كل اللي انا عايزه..

- أشرف.

- نعم.

- تصبح على خير.

- ده على أساس انّي هاعرف انام تاني؟

- مش عارفة بقى، أنا هانام.

- طيّب احلمي بيا.

- أحلم؟..... تصبح على خير يا أشرف.

- وانتي زي ما انتي علشان مافيش أحلى من اللي انا شفته فيكي.

-..... باي.

- باي.

استلقت هالة على فراشها وكلمات أشرف تلح عليها.. "طيب احلمي بيا".. وهل يحلمُ الناس بما يحبّون؟ لا تمثّل الأحلام لها سوى ما يروي لها الآخرون مما لم تخبره قبلًا أو ما راودها هي من حلمٍ أحال ليالٍ كثيرة إلى مزيجٍ من الرهبة والحيرة والغضب.. "هل عنيت ما قلتَ يا أشرف أم أنّك ما زلت في حاجة لتعرفني أكثر؟".

مجدّدًا أخذت فيروز تصدح في خيالها:

تعبانِة و بدي حاكيك حاكيني الله يخليك

ونقّلني عا شُبابيك اللّيل و ع سطوح الدار.

* * *

علّال وتهييّا

(٢٢)

لم تكن رحلة علال إلى بلاده هيّنة. فالرحلة تلك المرة ليست لزيارة الأهل ولا لاستنشاق نسائم الطفولة والصبا بعد غياب، كانت الزيارة أكثر عمقًا من مجرد ممارسة (النوستالجيا) بل إنّ ما حدا به لأن يتجه إلى بلاده كان استدعاء غامض جاءه من أعماق التاريخ. ألح عليه الحلم طيلة الشهور الفائتة.. "وانا يجنجم وايرني ڤر أيتوف ف ميدن" .. من أنجاه نبات إيرني من المجاعة لا يتأفّف على الضعفاء.. بدا الأمر وكأنّ أسلافه العظماء كانوا الآن هم الضعفاء، وبدت الملكة تهييا في صورةٍ شاحبةٍ وهي تردد النداء.. كانت شاحبةً كأجمل ما تكون الشاحبات.. أميرة أحلامٍ واهنةٌ تفيض ملامحها رقةً وعذوبة..كانت في أوج روعتها لا كما رآها قبلًا.. كم أنتِ فاتنةٌ يا تهييا، وكيف لا يستجيب قلبي لاستغاثتك بعد أن أنجبتِ ولدي من موتٍ محقّق؟ سأتيكِ ولو حبوًا يا تهييا، حتمًا سأتيك.

كان شعورًا حاسمًا يجتاح نفس علال ويسيطر عليه الآن بأنّ الملكة تهيّيا هي من أنقذت ولده، بل أنّه لم يعُد يذكر على الإطلاق ملامح الآخرين من عظماء الأسلاف المصطفين على جانبي الطريق يرشدونه إلى كهف العجوز التي منحته ما بدا صكّ حياةٍ لوليده فارس. فقط وجّه تهييا

الذي استحال إلى وجه فاتنةٍ تأسر القلوب هو ما كان يحتل روحه وعينيه.

العجيب أنّ علال لم يسعَ لزيارة قريته ولا للقاء الباقين من أهله الأقربين، لم يكن يسيطر على كيانه سوى الارتحال إلى تافوغالت، فهناك على قمة الجبل تكمن الأسرار وتطوّف روح تهييا مع الفراشات. لا قوس صبر لديه ليؤجل ترحاله ذلك حتى يزور الأهل، كان عليه أن يرتحل من أقصى غرب المغرب حيث كازابلانكا الدار البيضاء إلى بركان في أقصى شرق البلاد على مقربةٍ من الحدود مع الجزائر بينما تقبع تطوان فوق رأس مثلث قاعدتاه الدار البيضاء وبركان، ربما فيما بعد إذا وجد الوقت، أما الآن، فتهيّيا الفاتنة في الانتظار.. "ألم يكن ممكنًا أن أقفز من الطائرة فوق بركان حتى أتجنب كل تلك المشقة؟ لابد أن يبتكر الإنسان يومًا ما وسيلةً لتوفير (محطات جوية) تختصر الوقت والمسافات!" جال بخاطر علال.

لفحت نسمات حارة وجهه حين غادر ساحة المطار وعلى ظهره حقيبة خفيفة لم يصطحب سواها، دلف إلى إحدى سيارات الأجرة لتقله إلى حيث يبدأ رحلته القاسية.

بعد سويعات كان جسده يرتج داخل الحافلة المكتظة بالبشر والتي أخذت تزحف على الطريق ببطء سلحفاة متهالكة المحرك وأخذ العرق يجري سيولًا في وديان جسده المنهك، حافلةً تلو الحافلة وأنهارًا من العرق حفلت بها رحلة علال الشاقّة، ولكنّها تستحق.. "تستطيعين أن تعوّلي عليّ يا مليكتي ولن أخذُلَك" ناجى تهييا القابعة في أعماق قلبه.

في بركان لم يهتمّ علال كثيرًا بالبحث عن نُزُلٍ يقيمُ به بل اتجه من فوره إلى حوانيت المدينة ليستصحِ الباعة المخضرمين بشأن من يرافقه كدليلٍ في تلك الرحلة غير التقليدية. كان بحاجةٍ إلى شابٍ قويٍّ خبير بدروبِ ومسالك تافوغالت، كما أنّه كان يتمنى على الله أن يرزقه بدليلٍ أبكم أصم حتى لا يمطره بالأسئلة التي لن يجد منها مناصًا مع رفيق رحلة عزلةٍ كتلك. ولكنّه بطبيعة الحال كان مضطرًّا لقبول أي دليلٍ يرتضي قضاء أيامٍ وليالٍ ربما في رحلة بحثٍ عبثية عن عجوزٍ في كهفٍ بلا معالم لم يرَه سوى في خياله! المال فقط كان سبيله لإغراء أحدهم بقبول المشاركة في ذلك الوهم، فلن يُلقِ أحدهم نفسه في مشقةٍ كهذه من أجل تهييا المستغيثة الفاتنة سواه.

وكان طارق هو الدليل المختار. شابٌّ أسمر فارع الطول تبدو الهيبة على سيمائه رغم العَوَز ويبدو عليه وقارٌ لا يتناسب وسنَّه، حتى إنّ مرآه أوحى لعلال بأنّه يمثّل أمام سيدي أحمد أبركان الولي الذي تسمّت المدينه باسمه تبرّكًا.

ما أسعد علال كثيرًا كانت طبيعة طارق الصموت المتأملة، بدا الأمر وكأنّ الرحلة قد راقت له رغم الضبابية التي تحدث بها علال.. رحلة إلى قمة تافوغالت للبحث عن كهفٍ ما لغرضٍ ما! لم يستغرق الأمر من طارق سوى ثوانٍ معدودة أومأ برأسه بعدها في اقتناع.

اصطحب طارق عميله الغامض إلى داره ليتناولا طعام الغداء بعد إصرارٍ مقتضب على الدعوة لم يقاومه علال على أن يخلدا للراحة لبضع ساعات ثم يبدأن المسير قبل مغيب الشمس كما أصرّ طارق، على غير ما كان يتوقع علال من مسيرٍ مع أول خيوط الشمس فجرًا.

فوق سطح الدار أخذ علال أنفاسًا من (غليون) يلجأ إليه على فترات متباعدة وراح يراقب قرص الشمس الذي كاد أن يذوي في وجل.. فقدر ما كانت الحماسة تغمره للبحث عن خيطٍ يصله بتهييا وما قد تمنحه من أسرارٍ وعدته بها وَحْيًا. كان الخوف من الفشل يراوده أيضًا، بل سيطر عليه هاجسٌ أنّها قد تنقِمُ عليه وتُنفذ انتقامًا ما من فارس الصغير الضعيف إذا لم يهتدِ إليها في رحلته. لم يرتكن علال في كل ما يفعل ويشعر إلى حقيقةٍ مثبتةٍ ولكن ألم يكن ما جرى لفارس أشبه بالسحر الصُّراح؟ لا علاقة للطب ولا الوصفات الشعبية بما أجرى دماء العافية في بدن الوليد، هو يعلمُ ذلك جيدًا وخلاياه جميعًا تصرخ بالاستجابة لنداء تهييا.

قطع صوت طارق الرخيم سيّال خواطره فجأة وأتاه حاسمًا:

- وصل الوقت .. يلاه بينا نبداو المشي قبل ما يطيح علينا الظلام.

استدار علال في بطءٍ وأومأ برأسه علامةً على الإيجاب وانطلقا بينما عقله ينقم على ذلك الدليل الذي يحرص على صعود الجبل في الظلام!

* * *

(٢٣)

كسيرة القلب جلست تهيبا الملكة الداهية– كما لقّبها بعض المؤرخين فيما بعد- وهي تنعي حبها لمن وهبته بنوّتها ثم إذا به يسلم رقبتها ورقاب قومها للأعداء.. لا تدري كيف أخطأ حكمها على البشر بعد أن بلغت ما بلغت من العمر، وبعد أن عاشت حياةً مجيدةً هزمت فيها الغزاة العرب ونافحت عن ملك أجدادها وحكمت قومها كالملوك الأشداء.

هل أخطأت عندما اصطفت خالد بن يزيد ذلك الأسير العربي وسيم الطلعة، قوي البنيان، ذكي العينين الذي مال قلبها إليه وتوسّمت فيه قوةً وحكمة لتضمه إلى ولديها وهو الشاب الفتيّ بطريقة رضاع الشعير الأمازيغية؟ لا تدري كيف ارتجف قلبها بعنفٍ عندما طالعت وجهه الأسر فذهب وقار السنين وقررت أن تضمه إلى ولديها وهو العربي العدو.

تذكر أدبه الجم عندما تورد وجهه خجلًا وهي تعرض عليه أن يشارك ولديها الرضاع ليصيروا أخوةً، وتذكر دهشته عندما استفهم كيف سبيلها من الأساس إلى الإرضاع وقد بلغت من الكبر عتيًا؟ تذكر امتثاله لأمرها في خجلٍ وحياء عندما شرحت له كيف يلجأ قومها للمؤاخاة بلت دقيق الشعير بقليلٍ من الزيت وجعله على ثدي المرأة التي ذهب منها الرضاع ليتناوله أبناؤها ومن تود تبنّيه فيصيروا أخوة.

لا تدري حتى لحظتها تلك لِم أرادت أن يصير خالد ابنًا لها دونًا عن قومها واصطفاءً من الثمانين أسيرًا الذين وقعوا في قبضتها.. كيف أمنته على أسرارها وكيف لم تحسب حسابًا لدمه العربي الذي دفعه اليوم لخيانتها وتسليم رسالة تشجيعٍ لرسول حسان بن النعمان كي يجتاح قومها بعد أن لمس فيهم تفرقًا وضعفًا؟

هي التي ملكت أمر قومها ببراعتها في الكهانة والتنبّؤ بالغيب حتى إن من القادة العظام من لم يكن يشرع في أمرٍ قبل استشارتها، أيخدعها اليوم من اتخذته ابنًا؟

لم تصدق تهيبا اليوم ما تراءى لها من تسليم خالد بن يزيد لرسالته إلى رسول حسان بن النعمان الذي أتاه على هيئة عابر سبيلٍ داخل خبزٍ زوّد به الرجل خدعةً ودهاءً، "لِماذا يا خالد بعد أن اصطفيتك لنفسي وبعد أن أطلقت رفاقك الأسرى وبعد أن رفلت في رغد العيش بقصري؟ أعلم أنّ الأجل قد دنا وأعلم أن قِتلتي ستأتي على يد جيش حسان ولكن أيكون لك سهمٌ في دماني يا ولد قلبي؟" اصطرعت المشاعر بقلب الملكة وصاح شيطانها بقسوة: "اقتليه واجعلي منه عِبرةً للخائنين". فنازعها قلبها: "لا رادّ لسهم القضاء، هو جندي قضاء قام بدوره رغم إرادته، الأمر الإلهي سيَّره ففعل والأمر الإلهي سيسلمك إلى الردى فلا تملكين له ردًا..".

"يا إلهي، رفقًا بقومي ورفقًا بقلبي، ماذا عساي فاعلة وقد خان ابني قومي؟ دلّني على السبيل إلهي فقد نال الوهن مني.." قامت تهيبا متكئةً على عصاها وغادرت حجرتها صارفةً كل من يقترب منها حتى صارت خارج القصر فعمدت إلى الصراخ ناشرةً شعرها وهي تضرب صدرها نائحةً:

" أزوامىّ يماتُون، ثُدًا تكُلديتُ نُون، غ غايْلي شْتَّانْ مِيدّنْ". سرت الصيحة مَهيبةً منذرةً بالخراب بين القوم: "وَيحَكُم، ذهبت مملكتكم فيما يأكله الناس".

لم يدرك القوم ما تعنيه الملكة الكاهنة بنذيرها الغامض، كيف يروح ملكُهم في طعامٍ مما يأكله الناس؟ هل تهرفُ العجوز؟ ما عهدوها تهرفُ من قبل، حتى خالد ذاته أتاها بعد حينٍ بوجهٍ يحمل همًّا بدا كجزعٍ على من باتت في مقام أمه. بينما قرأت عينا الكاهنة جزع الخائن ولوعة الممزّق وعجز الحائر على محيّاه الذي لم يزل حبيبًا رغم الخيانة.

لم تقوَ الأم على فضح ابنها الذي لم تلِده وعادت أدراجها كسيرةً لا تحدث أحدا.. عمدت إلى كل ما تملك من قوةٍ واتّصالٍ بالعوالم الخفية لتمحُ الرسالة فتُرهِب بن النعمان وتنقذ قومها من الاجتياح وتنتشل ابن قلبها من خيانته.. وجاء الرسول حسان بن النعمان فسلمه الخبز فإذا بالكتاب داخله وقد أفسدته النار.. هي الكاهنةُ الداهيةُ إذَن، لا بأس، ليرجع الرسول إلى خالد وبأتٍ بالنبأ المبين.

ويعود الابن لكتابة رسالته وتعود الأم لنحيبها وتدور الدائرة على قومها.. "ويحك يا ابن قلبي، كيف هانت عليك من أكرمتك وأنزلتك منزلة الابن عزيزًا آمنًا وقد كنت الأسير الذي لا يترقّب سوى الموت دانيًا؟ وداعًا أيتها الحياة التي بادلتني القسوة بالقسوة وليغفر لي قومي..".

أيقنت الملكة باندحار قومها أمام جيوش العرب فجمعت ولديها وخالد وأمرتهم أن يذهبوا إلى بن النعمان ليلتمسوا بجواره الأمان..

"- ماذا ترون في السماء يا أبنائي؟

- نرى سحابًا أحمر.

- بل هو وهج خيول العرب، إنني مقتولةٌ لا محالة فامضوا إلى حسان وخذوا لأنفسكم منه أمانًا، فإنني أرى أن أحد ولديّ سيُنصَر به المسلمون."

صدع الأبناء بأمر الملكة الحكيمة نافذة البصيرة وتيقّنوا أنّها تعلم ما لم تبلغه أفهامهم فلحقوا بالملك المنتصر الذي اتخذهم موالي بعد أن عفا عنهم. ولم يلبثوا أن اكتسبوا ثقته حتى قادوا الجيوش تباعًا وتلاهم أمازيغيون أُخَر حتى سار طارق بن زياد من طنجة إلى الأندلس يومًا بجيشٍ أكثر قوامه من البربر الأمازيغ.. أكانت تلك نبوءة تهيّئ الكاهنة الملكة؟

هل انتهى الأمر عند هذا الحد عندما قضت تهيّئ كسيرةً منهزمة؟ هل عجز سحر الملكة النافذ عن الانتقام لقومها، أم أنّ تسليمًا بما حل بها وبهم من قضاء قد دفعها لكتمان ما تعلمه يقينًا من خيانة الابن العربي وميله لقومه ميلًا نقض غزلها أنكاثًا واستنزل أمطار الهزيمة السوداء على قومها؟

" أتُراك ستحزن يا خالد عندما يأتيك نبأ مصرعي؟ أتحمل لي ما أنوء به من حبٍّ لك فاق حبي لأبنائي وقومي؟ ليتني كنت فتاةً نضرةً في بلادك تنتظر عودتك ظافرًا مظفَّرًا من المعركة وقد جلبت إليّ ما عز وغلا من تلك البلاد التي لم أكن لِأعْلَمَ عنها شيئًا. لم يكُن قلبي ليجزع على قومٍ تنازعتهم المنايا بسيفك ورمحك وكنت لتصير بطلًا سماويًّا في عينيّ.. آه يا بنيّ لو لقيتك في صدر حياتي، لربما كنتُ فارقت قومي وهِمنا سويًّا في

البادية نرعى أغنامًا تقوتنا ونحيا في سلامٍ لا نغزو ولا نُغزَى.. سلامًا يا ابن قلبي إلى ملتقًى قد لا يجيء.."

ربّما لم تعشق ملكةٌ تراب مُلكها وتستميت لحمايته كما فعلت تهيبا. ولكن استسلامها لما حلَّ بها وبقومها من جراء خيانة خالد بل وحمايتها الكاملة له وإحجامها عن كشف ستره جاء صادمًا.. لم تستوعب امرأةٌ واحدةٌ فقط ما رأته من ضعف تهيبا ونحيبها يومًا بعد أن فارق أبناؤها.. تعالى نحيب تهيبا يومها حتى أنّ ماسيليا خادمتها الحسناء التي حملت صفات اسمها (الرشيقة الرقيقة) تجرأت على الدنو منها وضمها إلى صدرها دون أن تتنبه تهيبا الذاهلة إلى بريق الغل في عينيها الجميلتين.

"إذن هو أنت أيها العربي الخائن".. أضمرت ماسيليا في نفسها أمرًا.

* * *

(٢٤)

تحت ظل إحدى أشجار العرعر التي يحفل بها مسراهما جلس علال و طارق يزدردان لقيماتٍ في صمتٍ. والخيط الأبيض للفجر يتسلل من حولهما في خجل. كان طارق صموتًا بطبعه وكانت الأفكار تتنازع علال ككرة المضرب. أحقًّا يفعل ما يفعل؟ طفله الوحيد يبعد عنه الآن آلاف الكيلومترات بينما يصعد هو قمة جبلٍ بحثًا عن رؤيةٍ قد لا تكون سوى سرابٍ تلاعب بعقله الظمآن لحماية وليده؟ على أي حالٍ قد غادر السهم جعبته وقمة تافوغالت قد صارت في مرمى البصر فلا مناص من التسليم بما جاء من أجله.

حاول علال أن يكسر الجليد الماثل بينه وبين طارق بأسئلةٍ عن حياته الخاصّة، ولكنّ الأخير لم يكن يجيب سوى بإيماءاتٍ من رأسه أو كلماتٍ شديدة الاقتضاب وكأنّه حامل أختام أسرار مملكةٍ مفقودة. غير أنّ صمته هذا قد أزاح من جانبٍ آخر عن علال عبء شرح ما لا يملك شرحه. بدا وكأنّ طارق نفسه كان بحاجةٍ لتلك الرحلة كي يمنح روحًا مثقلةً بعضًا من الصفاء ويقتنص بعضًا من مالٍ وشت بساطة حال داره بحاجته إليه. حسنًا ليسود اتّفاق (الجنتلمان) على الصمت وليكملا مسيرهما.

كان التناقض الواضح في مسلك طارق لم يزل يلقي بظلال من شك في نفس علال.. كيف يحرص على أن يبدأ مسيرهما قبل أن يحل الظلام ثم يفاجأ علال بأنهما سوف يبدآن صعود الجبل ذاته في الظلام الحالك؟

على الرغم من ذلك لم يكن يشعر بوجلٍ وكأن دافعًا خفيًا قد تمكّن منه يجبره على أن يطمئن إلى ذلك الدليل الصامت.

بعد أن كاد علال يقضي نحبه من فرط الإجهاد بصحبة ذلك الفارع ذي الثلاث رئات بدت قمة تافوغالت قريبة وبدا من الأنسب أن يستريحا لبعض الوقت حتى يرى علال ما هو فاعل. لم يكن الوصول إلى قمة تافوغالت هو المشكلة، ولكن ماذا بعد أن يبلغها؟ ماذا لو لم يجد سوى الخواء ولم يهتدِ إلى تلك العجوز التي تراءت له في خيالاته؟ ليترك جسده المنهك يسترخي قليلًا ثم ليحدث ما يحدث.

أشعل علال غليونه لتفوح الرائحة العطرية وتمتزج برائحة الهواء البكر الذي أزعجه مرأى هؤلاء الغرباء يسحبونه إلى صدورهم دون استئذان! كان طارق يجلس مطمئنًا لا يشغل باله ما يدور بذهن علال المثقل وعيناه مثبتتان على اللاشيء.. وفجأة هزّ طارق كتف علال بعنفٍ منهًا وأشار بيده الأخرى إلى الأفق.. كان جسد ضئيل يتشكل في ضوء الشروق الخافت ويدنو منهم في خطواتٍ وئيدة.. ارتجف جسد علال في عنفٍ وجحظت عيناه رهبةً.. ذات الجسد الضئيل بذات المسوح المهترئة يدنو منهم الآن.. هي هي العجوز التي ألقت بكلماتٍ في روحه يوم أن حضرته أرواح الأسلاف.

دنت العجوز ببطء من مجلس الرجلين المبهوتين لمرآها وعينها الوحيدة تصوّب نظرات الصقر إلى علال فتنفذ إلى أعماقه. قام الرجلان ببطءٍ يلفهما إزارٌ من الصمت والرهبة وكأنما هما في حضرة الملكة تهيبا ذاتها.

بإشارةٍ من يدها المعروقة أذنت العجوز لطارق بالانصراف وكأنّه قد أدى مهمةً أمرته بها قبلًا. فانصرف دون نظرةٍ واحدةٍ إلى علال الذي رمقه ملتاعًا كطفلٍ تركته أمه برفقة معلمةٍ صارمة في أول أيام التحاقه بالمدرسة!

بإشارةٍ ثانيةٍ أمرت العجوز علال أن يتبعها بعد أن استدارت بالفعل لتعود أدراجها بذات الخطوات الوئيدة.. لم يملك علال سوى الانصياع وتبعها ببطءٍ على وقع خطواتها الزاحفة.

لم يدرِ علال كم من الوقت استغرقهما ليصلا إلى مغارةٍ لا تكاد تبين وسط الصخور.. داخل المغارة كان اللهب يتراقص ليلقي ظلالًا على الجدران بثت المزيد من الوجل والرعب في نفسه فاقترب من العجوز حثيثًا وكأنما يلتمس منها الحماية.. تبع العجوز إلى داخل المغارة حيث سارت خطواتٍ معدودةٍ ثم توقفت عند مجلسها الخشن وأناخت بمشقةٍ كنافةٍ مسنة.

كانت عشرات من المخطوطات المهترئة والأكياس الخيشية تحيط بمجلس العجوز كما استقرت على منضدةٍ حجريةٍ أمامها دمى قماشية محشوة وقنانٌ خزفية صغيرة.. جال علال ببصره في أرجاء المغارة الضيقة بحثًا عما تقتات به تلك العجوز فلم يجد موقدًا ولا ما يبدو كخزينٍ من طعام.. لا بأس قد تكون تلك الأكياس الخيشية تحوي بعض الحبوب أو الأطعمة. وجال بخاطره تساؤلٌ آخر: أين ترقد تلك المرأة؟ فلا فراش هناك ولا مرقد.. بل هل تخلدُ امرأةٌ كتلك إلى النوم من الأساس؟

فجأة انتفض جسد علال وغزت روحه كلماتٍ بلا صوت:

- لا تسل عمّا يسوؤك واصدع بما تؤمر!

لم يصدرْ صوتٌ عن العجوز ولم تتحرك شفتاها. كيف تخترق كلماتها كيانه بتلك القوة؟

- لستَ في حلٍّ أيّها الآتي من بلاد الشرق من أن تعرف ما ليس لك بِحق. أنصت فحسب إلى ما يأتيك واعلم أنّك اليوم لستَ من كُنتهُ بالأمس.. طلبتَ عونًا ممّن يملكونه وقد أتاك. فاليومَ ترُدّ الصنيع كما تؤمرُ ولا تملك رفضًا ولا تبديلا."

أومأ علال برأسه مستجيبًا وكيانه يغلي كجدول ماءٍ في باطن الأرض الملتهب.. من تكون تلك المرأة بل ما تكون؟

صفعةٌ بلا يدٍ أجابتهُ وصيحةٌ مؤلمةٌ مزقت أذنيه:

- قد سألتَ ما ليس لك مجددًا والصبرُ على الحمقى ليس مما أملك فاحذرني.

جاهد علال تلك المرة ليقمع ما يملأ عقله من تساؤلاتٍ وأومأ منصاعًا.

- بإرادتنا أتيت وأمامنا تمثُل فلجلالتنا اركع ولِنا نأمرك امتثل.

مبهوتًا شرع علال في الانحناء والجثو على ركبتيه والأسئلة تعصف بعقله رغمًا عنه.. من (يكونون)؟ هل تخاطبه العجوز بضمير (نحن) على سبيل التفخيم لذاتها؟ أم هل يكون من يخاطبه كيانٌ أقوى من هذه المرأة العجفاء المنتهية؟ ارتجف ما إن تخيل كيانًا لا يُرى ويملك كل تلك القوة وما قد يتورط فيه إذا ما كلفه بما لا يطيق. أكان من اللازم أن تُوغِل في السحر إلى هذا الحد يا علال؟

أطبقت قبضةٌ حديديةٌ لا وجود مادي لها على عنقه فانقطعت أنفاسه واحتقن وجهه حتى كادت عيناهُ أن تنفجرا. قبل أن تفيض روحه بلحظات ارتخت القبضة حول عنقه قليلًا وجاء الصوت حاسمًا:

- لِيصمتَ عقلُك ولتُصغِ روحك، سنلقي في روعك ما سينوءُ حِملُهُ بك، فلْتفنِ أيامُك ولْتنفُد أنفاسك ولتحترق روحك ذاتها لتفعل ما أُمِرت، ولا تنسيَنَّ يومًا: الخيانةُ بالولد.

سرت في جسده برودةٌ مفاجئة، فأسوأ مخاوفه يبدأ في التحقق، إذن فالخطر يحيق بابنه، "سأُطيع.. سأُطيع، إلي بما تأمرون".

" واعلم أنك اليوم لستَ من كُنتهُ بالأمس" ترددت الكلمات بعقل علال وهو يهبط الجبل بسرعة ومهارة وكأن رئةً ثالثةً قد نبتت بداخله، يشعر بخفةٍ لم يعهدها قبلًا ويحفظ مسالك ودروب الجبل كأحد أدلّائه البارعين.. هو حقًّا لم يكن كذلك بالأمس.

* * *

لوتس

(٢٥)

- علال؟

جفلت لوتس وبهتتها المفاجأة عندما وجدت زوجها يطرق باب الغرفة ويلقي عليها تحيّة المساء، كان قد ودعها على أن يقضي بضعة شهور في بلاده وإذا به أمامها ولم تمر سوى بضعة أيام منذ فارقهم.

- إيه أحوال فارس وأحوالك؟

- انت رجعت ليه بالسرعة دي؟ فيه مشاكل حصلت؟

- ما قدرتش افارقكم أكتر من كده بصراحة، قضيت كام يوم مع أهلي ورجعت.

- أنا فعلًا كنت مستعجبة هتقضّي شهور بعيد عن فارس ازاي.

حاصرت الصغير نظرات حانية من عيون والديه حتى كادت تخترق بشرته الرقيقة.

تلك النظرات التي نال لوتس منها نصيبٌ ولّدت يقينًا غير مدعوم بحقائق لديها بأنّ علال الذي ذهب ليس هو ذاته الذي عاد، تلك النظرة لم تكن يومًا تلتمي لقاموس نظراته، هي باتت تحفظ عن ظهر قلب كل ما يرتسم في عينيه من نظراتٍ طالما غمرها بها وطالما شكّلت بوضوح رؤيته

للحياة.. نظرات كانت هي أول ما جذبها لعلال يوم لقائهما الأول. لم تكن حينها قد رأت قبلًا من تنطق عيناه بما يفكر وينتوي أن يقول كعلال.. عندما اقترب منها في خجل وخرجت كلماته مترددة متلعثمة بلهجةٍ هي خليطٌ من العربيّة التي اعتادتها ولهجة أهل المغرب السريعة الحافلة بالإدغام كانت تترجم ماتقوله نظراته قبل أن تختلج شفتاه بالحروف. أمّا اليوم فغموضٌ ووجلٌ خفي يكاد يكون فزعًا يخالط نظراته كمن دُفِن حيًّا ثم عاد للحياة. "ماتُراه قد اعتراك أثناء زيارتك السريعة لبلادك يا علال؟ بل ما الذي اقترفته من آثامٍ نطقت بها عيناك عندما سألتك كيف أنقذت ولدنا فلم تُجِر جوابًا سوى سخافاتٍ لا تُغني من جوع؟ ما الذي كنت تفعله بابننا عندما كنت تختلي به في غرفتك؟" انزوت لوتس في فراشها وتكورت على نفسها كرضيعٍ يلتمس الحماية وارتج رأسها بالأفكار السوداء.

مرت الأيام بالأسرة الصغيرة متشابهة: فعلال لم يزل في إجازة من أشغاله لم يقطعها رغم عودته، صموتٌ كما لم يكن من قبل، وكثير التحديق في الطفل الذي ينمو بوتيرةٍ مُرضيّةٍ، ولكن لِمَ صارت لوتس أكثر التصاقًا بفارس وكأنّما تخشى عليه من أبيه؟ راود علال ذلك الشعور بالفعل والعجيب أنّه لم يستنكره، هو ذاته صار يخشى على الرضيع من نفسه وشعورٌ ممضٌّ بدأ يعتصره إثر ذنبٍ لم يرتكبه بعد.

تحوّلت النظرات الحالمة المحبّة بين الزوجين في تلك الآونة إلى ما يشبه صراع القط والفأر الأبدي: لوتس لا تفارق الرضيع حتى إنّها كانت تصطحبه إلى الحمّام أحيانًا.. صار نومها كالثعالب بعينٍ نصف مفتوحة وتضاءلت ساعات نومها إلى الحد الأدنى وجلًا من ترك الرضيع في عهدة

زوجها غير المأمونة، علال كذلك لم يحاول أن ينفرد بالرضيع كما كان يفعل قبل سفره الأخير، كان صراعٌ يعتمل بداخله بين الأب الرؤوم المشفق على وحيده والمكلف العاجز عن رفض المهمّة، لا مناص من التنفيذ، ما مرَّ به في تلك المغارة لا ينبىء بخيرٍ على الإطلاق إذا ما تجاهل ما أُمِر به وبالتأكيد سيطال الانتقام وحيده الذي كلفه الاحتفاظ به ما لا يطيق.. ربما كان الخير كذلك في الانتمار بأمر أسلافه العظام، ألم يأتِ إلى تلك البلاد من الأساس ليزيح ما علق من ترابٍ بأمجادهم وتاريخهم؟ ألم يمنحوه أثمن ما صار يملك بنجدتهم لوليده الذي كان يتأرجح بين الموت والحياة؟ ماذا يضيرُ إذن إن سعى لإتمام ما يبتغون أن يفعل؟ "سأفعل، وسأفعل لأجلك أنت بالذات يا بني، لابد أنّ من يمتلك تلك القوة جديرٌ بأن توّتى أوامره وكفيلٌ بأن يمنحك الكثير." راود علال نفسه.

بدأت مخاوف لوتس تتضاءل مع تتابع الأيام، فإحجام علال عن محاولة الانفراد بالرضيع قد حوّل انتباهها عمّا كانت تظن، قد لا تكون رحلة علال بالضرورة هي المسؤولة عما يعتريه من تغير، بل قد يكون المرور بتجربة الفقدان الوشيك لوليده الأول هو ما رسم تلك الظلال المخيفة بعينيه.. ليس الإشراف على فقدان فلذة الكبد بالتجربة العادية، ما مرَّ به علال لم يكن هيّنًا على الإطلاق على من كان كتلةً من الأعصاب والمشاعر مثله.

هي تحمل رغم كل شيء عرفانًا جارفًا تجاه ما فعله زوجها أيًا كانت ماهيته.. نعم، تلك هي الحقيقة المجردة وكفى، ألم ينجُ الصغير؟ ألا يرمقها الآن بنظراته الطفولية الرقراقة؟ ربما كان البديل لما فعل علال

هو أن يحملا ذلك الصغير مكفّنًا إلى مثواه الأخير قبل أن يحظى بمثوى أول في أحضانهما.. لو لم يملك علال الشجاعة ليتحمل مسؤولية علاج الرضيع بوسائله التي عمّاها عن الجميع لما لامه لائم، هاجمتها ذكريات يوم الولادة بشراسة وتناهبتها وحوش الخيال بذكرياتٍ افتراضية وهي تلتحب جزعًا وحزنًا على رضيعٍ يُحمَل إلى قبره.

شرع فارس في بكاءٍ فوري لا يقدر عليه سوى هؤلاء السحرة حديثي الولادة معترضًا على سقوط دمعة ساخنة من مقلة الأم داخل عينه بالذات، ربّتت لوتس عليه مهدئةً وأخذت تهدهده وتدندن بإحدى أغنيات الأطفال النادرة في ذلك الوقت حتى هدأ روعه وسكنت حركته، ولكن ما ظل يزعجها هو تلك الاختلاجات والارتعاشات التي استمرت تنتاب عينيه أثناء نومه.

كذلك عاد بعضٌ من المياه إلى مجرى الحياة بين علال ولوتس وجمعهما الصغير فارس كما كاد يفرّقهما قبلًا.. أُبرِم اتّفاق غير مُعلن بينهما على الصمت وتوجيه كل الاهتمام والرعاية للصغير، فاعتادت هي نظراته الجديدة وتعمّد هو بثّ الطمأنينة في قلبها بالامتناع التام عن البقاء وحيدًا مع الرضيع، فلم يكن بحاجةٍ في تلك المرحلة لتلقين فارس أيًا مما وُكِّلَ إليه حتى يبلغ سنًّا يسمحُ له بالاستيعاب ربّما بعد بضع سنواتٍ لا أكثر، باختصار لم يكن التوقيت المحدد لتلك المهمّة قد حان بعد.

* * *

(٢٦)

بعد أن أتمّ فارس عامه الخامس بدأ كل شيء.. بدأت ثنايا عقل علال تنوء بما حفظت طيلة سنوات وبدأ الصغير يظهر قدراتٍ فائقةٍ على الاستيعاب فحان الوقت. كان يتبع ما يأتيه حُلمًا وكأنه تكليفات ما ورائية لا يملك لها ردًا.. بدأ التلقين برفق. لا مخطوطات في تلك المرحلة. فقط نظراتٍ ثابتةٍ من عيني علال إلى عيني فارس وكأنّ سيّالًا من المعلومات والحكايا ينساب عن طريق (البلوتوث) بين جهازي (سمارت فون) مما سيراه فارس يومًا في المستقبل. كان علال مسلوب الإرادة عندما بدأ يلقّن ابنه ما استودعه الأسلاف من علومٍ وتكليفات عن طريق المرأة الغابرة، ولكن في أعماق نفسه كان هناك ارتياحٌ لما يفعل أملًا في أن يملك صغيره مفاتح عالم قد يحفلُ بالقوّة والنفوذ. ربّما يقوده لتحقيق ما حلم يومًا أن يفعله بنفسه فعجز وفترت همّته، قد يكون الأسلاف رأوا قوّةً وعنفوانًا في الصغير لا يملكهما أبوه فأحالوا المهمّة المقدّسة إليه عِوَضًا عن الأب المتخاذل.

كان دومًا على يقينٍ أنّ رابطًا ما سيصله بالأسلاف مهما طال الانقطاع، ولم يُقلقهُ كثيرًا ما مرَّ به من ارتباك وافتتان عندما سبت الفاتنة تهيبا روحه لبعض الوقت حتى كاد ينسى كل ما يزخر به تاريخ قومه من فخار، محت تهيبا حينها صور انتصارات شيشنق العظيم وخلفائه، نثرت بركات القديس أوجستين هباءً، وحطمّت سيف الملك جوبا لتبقَ هي اختزالًا بديعًا لكل الماضي. يذكر ماحدث فور أن سحبته العجوز خلفها

كالنعجة معدومة الإرادة حين بدأت صورة تهيبا الفاتنة تتلاشى شيئًا فشيئًا، وبدأت هيبة الموقف تفرض نفسها على علال فصار مستسلمًا لأن يذوب في أي بوتقةٍ سيتخيّرها له الأسلاف. لابد أنّ خيالات تهيبا كانت من صنع عقله الباطن، أو من إيحاءاتٍ أحاطته بها العجوز لتستدرجه إلى الجبل بما يحب.. كان يفتتن بتهيبًا من الأساس وطالما زارته في أحلامه كحوريةٍ من زمنٍ سحيق، ولكن أن تستغيث به! من هو لتستصرخه الملكة الكاهنة التي قهرت الممالك والرجال؟

يذكر حين فرغ الصوت الهادر الذي اجتاح كيانه من تكليفاته وكيف ارتجف جسده وتفصّد عرقًا بينما انفغرت عيناه عن آخرهما تتعلّقان بالعين الوحيدة للوسيطة العجوز، وتستقبلان إرسالًا كاسحًا من الكلمات المختلطة والصور المتداخلة شديدة السرعة كمن يجري أمامه شريط حياته وهو يُسلم الروح. لم يتحمّل جسده كل هذا الطوفان فسقط فاقدًا للوعي.

حين أفاق وجد نفسه ملقى أمام الكهف ولا أثر لحياةٍ هناك.. تحامل على يديه وقام كعنقاء تنثر الرماد واتّجه إلى الكهف.. لا أحد هناك.. لا عجوز ولا أثر نيران ولا دمى ولا قنان.

لم يتعجّب علال كثيرًا فما يمرّ به منذ الأمس لم يدع مجالًا آخر للعجب لديه. فقط غادر الكهف ليفاجأ بكيسٍ خيشيٍّ متوسّط الحجم ينتظره.. تناوله ونظر إلى قرص الشمس الذي بدأ في التسلّل إلى المشهد.. يبدو أنّه قد فقد وعيه ليومٍ كامل.. شرع في هبوط الجبل وهو يحمل الكيس الخيشي وحقيبته على ظهره بخفّة دليلٍ محنّك، يبدو أنّ خريطة ومسالك الجبل قد ارتسمت في عقله وحيًا، ويبدو أنّ قوّةً ما قد دبّت في

جسده، لابد أنّها قوّة المعرفة. لم يفكّر حينها في تفقُّد محتويات الكيس الخيشي.. لابد أنّه يحوي بعضًا من تلك الأشياء التي زخر بها كهف العجوز المختفية، ولابد أنّ ما لقّنته إياه سيهديه لما يجب أن يفعل بتلك الأشياء، ما شغل باله حينها كان تلك الأطياف التي بدأت تمارس معه لعبة الاختفاء، تراوده على جانبي عينيه فإذا التفت لا يجد شيئًا.

"أيامٌ صعبة في الانتظار".. راودت علال نفسُه وهو يحثُّ الخطى.

لم يجد سوى دار طارق ليلجأ إليها حتى يقفل عائدًا إلى مصر. طرق الباب وانتظر فانفتح الباب على طلّة طارق المألوفة لديه.. هشّ علال لمرأى رفيق الرحلة وهمّ باحتضانه إلا أنّ الأخير دفعه برفق وبدا وكأنه لم يره من قبل!

- شكون نتا؟

- شنو؟ مكدعرفنيشي؟

- ماشفتكش من قبل ، نعاونك فشي حاجة؟

- مامتيقكشي !كنا مع بعضنا البارح .. الشارف.. كيفاش نسيتي؟

- سمحليا انا مشغول دابا فشي حاجات.

ثم أغلق الباب!

لم يكن في حسبان علال على الإطلاق أن ينكر الدليل الصموت معرفته.. ألهذا الحد بلغ نفوذ تلك العجوز أو من يستخدمونها؟ لم يجادل علال الشاب كثيرًا فيبدو أنّ ذكريات ما حدث قد تم محوها بطريقةٍ ما من

ذاكرته، لا ضير من التوجه إلى أي نُزُلٍ متواضع ليمكث فيه حتى يقفل عائدًا.

قطع صوت ارتطامٍ سيّال ذكريات علال. فأفاق ليجد فارس الصغير ملقًى على الأرض وزَبَدٌ رقيقٌ يسيل على جانب فمه. انتفض راقدًا ليحمل ابنه بين يديه وأخذ يناديه ملتاعًا ويحاول إفاقته بفرك جهته ووجنتيه وأي وسيلة أخرى لم ينزل بها سلطانٌ طبي. لم يخش علال يومًا زوجته قدر ما خشيها في تلك اللحظات، ماذا عساها فاعلةٌ إذا ما فوجئت به يحمل ابنهما الوحيد فاقدًا للوعي لتثور شكوكها القديمة جميعًا.. لن تغفر له لوتس إذا ما أصاب فارس مكروهٌ من أي نوع.

كهرَةٍ مطمئنة شعر علال بجسد الطفل يقرقر ووجد عينيه تستعيدان ثباتهما بعد اختلاجاتٍ عنيفة عصفت بهما لدقائق معدودة.. تذكّر علال ما مر به شخصيًّا من إغماءةٍ استغرقت ما يقرب من يومٍ بعد أن تلقّى سيّال الأفكار من العجوز، من الأوفق حالًا أن ينقل فارس بهدوء إلى فراشه كأي طفلٍ غلبه النعاس وسوف يفيق بالتأكيد.. "سامحني يا وحيدي.. لا أملك من أمري سوى طاعة من يفوقونني علمًا وقوة، والله يعلم أنّي لا أبتغي لك سوى أن تنهل من فيض علومهم وقوتهم وإلا يمسك منهم أذًى.. نَم واهنأ وسوف يصير كل شيء على ما يرام." طمأن علال نفسه وفي ركنٍ بعيد من عقله كان هناك خوفٌ ينمو ببطء.. هل سيبقى فارس بعد أن يفيق ذات فارس الذي كان.

* * *

(٢٧)

بطبيعة الحال ألحق علال ابنه بالمدرسة الفرنسية التي شهدت بدايات حياته المهنية في مصر. أما هو فقد اعتزل العمل النظامي واعتكف بالمنزل يمارس الترجمة لكتبٍ لم يُطلب إليه ترجمتها. نفدت أمواله تقريبًا واضطر والد زوجته عبد الحميد الناغي أن يمنح لوتس سرًّا مبالغ شهرية تنفق منها على احتياجاتها واحتياجات فارس. لم يعُد علال كثير الاحتياجات بعد أن انغمس في عزلته الاختيارية، ولم يعُد كذلك يُبالي بما ينهال على رأسه من لوم زوجته أو محاولات أبيها التودد إليه فاستمالته للحديث عما دهاه، حتى أنّ الاحترام الفائق الذي طالما حظي به من د. عبد الحميد استحال مع الوقت وإحجام علال عن الاستجابة لحميه إلى استهانةٍ وتقريعٍ دائمين. فالرجل يرى أنّ علال لم يصُن وعده الذي ارتكن إليه عندما منحه زهرته الوحيدة بأن يصير بستانيها مدى الدهر، ولا يليق بلوتس أن ينتهي بها الحال في مستنقعٍ آسنٍ تلتمس السلوى من رضيعٍ لا يكاد ينطق، حتى وإن كان هذا الرضيع هو فارس. لا يستقيم كذلك أن تصبح ابنة قلبه أسيرة إحسانات أحدهم حتى وإن كان هو ذاته، بينما يقبع رجل الدار في حجرةٍ راكدة الهواء كأسدٍ عجوزٍ خبت عيناه وفترت عزيمته.

أما فارس فكان ينمو أمام أعينهم متّقد الذكاء نشيط البدن، ولم يعد أحدهم يذكر هيئته الهشة في أشهر مولده الأولى، وإن استمرت نوبات متباعدة من اختلاج العينين تنتابه أثناء نومه، ولكنّها لم تعُد تثير قلق الأم

كثيرًا بعد أن فحصه طبيب أعصابٍ صديق لأبيها واطمأن على سلامة مخ الطفل عن طريق الأشعة، واستبعد بخبرته الطبية تمامًا فرضية الصرع.

فقط علال كان يعاني الهواجس الدائمة مما ينتظر صغيره بعدما ورطه بيديه وأفعاله فيما يبدو في حوادث جلل ستجري على يديه بوحيٍ من الأسلاف. لم يعلم علم اليقين ما يريدون من الصبي غير أنّ ما التزم به وحيًا من طقوسٍ وتعازيم وجدها في الكيس الخيشي الذي هبط به من نافوغالت داوم عليها سرًّا أثناء نوم فارس كان يثير رعبه الأكيد مما يضمره الأسلاف لولده.

نظرة يهوذا في عيني علال كانت أكثر ما أزعج لوتس لدى مرأى زوجها، نمت تلك النظرة واستقرت في عينيه بعد عودته من بلاده، لم تفسرها في بادىء الأمر ولكنّ قلبها استشعرها شيئًا فشيئًا.. خليط متنافر من المشاعر ملك قلبها تجاه علال؛ الشفقة على ما ينوء به من حملٍ أحاله شخصًا مترويًا مهتزّ السمات.. الحنين لما مضى من أيامٍ كان يغترف لها فيها من الرعاية وموجبات السعادة وكأنّه يجلبها من نبعٍ لا ينضب.. الحنق على كتمانه الأحمق وعزلته السخيفة التي لا توقن سببها.. الخوف مما قد يصير إليه إذا ما استمرت حالته تلك.. الإشفاق على فارس الذي يكبُرُ طفلًا وحيدًا بلا سندٍ من أبٍ يفقد أهليته رويدًا رويدًا.. الحزن على ما يمضي بها من أيامٍ لن تعود زوجةً بلا حياة. لِمَ لا يشركها في أمره ولا يبثها أحزانه كما كان يفعل من قبل؟ أي قوةٍ شريرةٍ تسيطر على عقله وتضع هذا الحاجز السميك بينهما؟ وصل الأمر بعلال أن يترك لها شرح ما استغلق فهمه على الصغير أثناء استذكار دروسه وهي التي لا تفقه من الفرنسية سوى بضع عباراتٍ لقنها حبيبها إياها لطالما أثارت ضحكاتهما

سويًا على طريقة نطقها للفرنسية.. Je serais toujours là pour toi mon amour, touche les étoiles

كان يشير بيده إلى السماء كلما طلَبَت منه أمرًا صعب المنال ويردد تلك الكلمات بابتسامة أثيرة إلى قلبها. " سأبقى دائمًا هنا لأجلك حبيبتي، فلتلمسي النجوم بيديكِ"، كانت ترجمته الفصيحة للعبارة الفرنسية تمس قلبها دومًا وترحل بها فعليًا إلى جانب النجمات المتلألآت.. كانت تتعمد أن تطلب منه أمورًا عبثية لينطق تلك الكلمات، فترددها بلغتها البائسة أمامه لترى الضحكات الجذلة في عينيه وهو يقوم بتقليد طريقة نطقها المرتبكة .. هل هناك درجات من الحب أسمى من أن تضع نفسك محل السخرية لترى الضحكات على وجه حبيبك؟ كان هذان علال ولوتس وهكذا صارا الآن بعد أن منحهما الله ثمرة عشقهما طفلًا.. ضبطت لوتس نفسها غير مرة وهي ترمق صغيرها الغافي بنظرةٍ تحمل حنقًا لا يليق بأمٍ لا تملك سوى طفلها الوحيد.. هل أتيت صغيري لتفرّق بين والديك؟ هل كان من الأفضل لنا جميعًا أن يتركك أبوك لقدرك، ولا يفعل ما بدا أنّه قد فعل ليستبقيك بيننا فتحيل حياتنا جحيمًا؟ كنّا نرجوك فلذة كبدٍ فصرت حُرقة قلب.

كانت تفيق من خواطرها على دموعٍ ساخنةٍ وضميرٍ يئن فتنهمر قبلاتها الدامعة على كل ما تقع عليه عيناها من صغيرها النائم.. حوصر الصغير بين مشاعر أمٍّ متضاربةٍ تكاد تسوقها للجنون وحسرة أبٍ لا يكاد يفيق من نوبات الندم والإشفاق مما هو آتٍ، كيف يملك عقلًا سويًا من غذّت روحه عواصف كتلك من الطاقات السلبية؟

لم تكن هناك متاعب تتعلق بتحصيل الصبي الدراسي، بل كان سريع الاستيعاب بدرجة لا تصدّق، يكفي أن تمر عيناه على الصفحات ببعضٍ من التركيز حتى يلم بما فيها، وكأنّ زمن التثبيت الذي يحتاجه العقل البشري لحفظ ما يطالع من كلماتٍ وأفكار قد تضاءل لديه إلى النصف، ولكنّ توازنه النفسي كان شديد الهشاشة، فكثيرًا ما كانت تنتابه حالاتٍ من الغضب الشديد والعدوانيّة المفرطة تجاه زملائه ما حدا بمديرة المدرسة لاستدعاء وليّ أمره غير مرة.. كانت لوتس تضطر إلى الذهاب عوضًا عن الأب الذاهل مما كان يثير دهشة مديرة المدرسة.

كانت تعلم بالتأكيد مَن هو مسيو علال وكيف كان تربويًا عتيدًا بالفطرة، فلِمَ يتجاهل أمرًا جللًا كاستدعائه لسوء سلوك ابنه الوحيد؟

لم تكن لوتس تجدا جوابًا شافيًا عندما تُسأل عن علال.. ماذا عساها قائلة؟ هل تنطلق في الشكوى لمن لا يملكون من أمره شيئًا؟ هل تلوث سيرته المهيبة بذكر حاضره المخجل؟ كانت تتعلل بسفره عندما تستفسر مديرة المدرسة عن عدم مجيئه متذرعةً بالإجازة المطولة التي كان قد حصل عليها بداعي السفر.. أما دائرة معارفهما وأقاربهما فكانت تخبرهم عندما يفتقدونه أو يرفض استقبال زياراتهم أنّ وزارة الثقافة قد أوكلت له عملًا ضخمًا لترجمة عشرات الكتب الفرنسية، وأنّه غارقٌ حتى أذنيه في العمل!

نعم.. صارت لوتس تكذب، بل اعتادت الكذب لتظل صورة حبيبها على ذات البهاء في عيون الجميع.. لم تكن تمقت في الحياة قدر الكذب.. هكذا علمتها منذ نعومة أظفارها أمها الراحلة أبيجيل والتي كانت كيانًا من المبادىء الفاضلة يمشي على الأرض.. وهكذا ألجأها من لم تحب سواه

إلى أن تمارس الكذب.. ما أقسى أن يدفعك من تحب إلى أن تفعل مالا تحب.

انزوت لوتس وذوت، ومرت بها الأيام متشابهة، حاولت أن تنغمس في مشكلات صغيرها السلوكية ولكنّها كانت زهرةً لا تحيا إلا بالرعاية.. تفاقمت حالات العدوانية لدى فارس ورافقته طيلة السنوات الأولى من دراسته الابتدائيّة حتى ذلك اليوم الذي توفيت فيه لوتس.. فجأة!

وكأنّ زهرة اللوتس المانحة للحياة لم تحتمل أن تحيا وبستانها قد سُلِبَت منه كل مسببات الحياة.. كانت تذوي ببطءٍ تلك المرة ولم يكن هناك (علال الذي كان) ليرويها بعنايته الولهى، ويربت على أوراقها الرقيقة بعطفه وعشقه الذي كان لها كنسمات الفردوس، فانزوت أوراقها ذات ليلةٍ ثم لم تتفتح في الصباح.

يالكل هذا الحزن الذي غمر بطوفانه المفاجىء كل موجودات الحياة، ألهذا الحد كنتِ أنت الحياة لهذا البيت يا لوتس؟ رغم سنين عمره التي لم تتعدّ الثمانية استقبل فارس الصدمة العنيفة كشيخٍ لم تعد الحياة تغريه كثيرًا ببهجتها ولم تعد مصائبها تطعن قلبه بنصالها الحادة، ارتسمت على وجهه تعبيراتٍ جادة تمترّج بجفاف أرضٍ جدباء وكأنه قد فقدَ الحياة، حتى إنّه كان أشد ثباتًا من والده أثناء مواراة زهرة اللوتس الثرى، وأثناء استقبال المعزين المتجّهمين والنائحات، بينما استحال ذهول علال الدائم إلى مايشبه الانهيار التام كمن أفاق من غيبوبته على صفعةٍ مدوية.. أكان لابد أن تُنتزع منك الحياة يا علال لتعرف قيمتها؟

فارقت لوتس حياة علال ولم يزل عبقها عالقٌ في كل الموجودات، انزوت مشاعر الندم والإشفاق على فارس التي ملكته لسنواتٍ واستغرقته حالةٌ من الصدمة والجزع، لم تعُد هناك لوتس ولم تعُد هناك حياة.. كيف مرت تلك السنوات وهو ذاهلٌ عن تنسم عبيرها الأخاذ؟ كانت حوله وداخله في كل لحظةٍ بينما هو زاهدٌ في جنتها، والآن تخترق ذكرياتها الزكية كل أنفاسه وتمترج بنبضه فيتمزق قلبه كل لحظة.. لم تعُد هناك لوتس فلم تعُد تلك البلاد بلاده.. أجمع أمره على أن يصفي كل ما يربطه بتلك الأرض الغادرة التي استأثر ثراها بقلبه النابض، وقرر أن يصحب فارس ويعود قافلًا إلى بلاده بلا عودة.

* * *

منال ونهلة

(٢٨)

- يللا يا ماما هتتأخري على طنط نهلة..

رمقت مدام منال ابنها أشرف بنظرة خبيثة وأبطأت من وتيرة فرشاة (الروج أجو) الّتي كانت تلطخ بها وجنتها لتمعن في استفزازه:

- وانت مالك مش على بعضك ليه؟ هو انا هاتأخر عليك ولا عليها؟ ولا هي يعني قاعدة تتعاكس في جروبي؟ ما هي قاعدة في بيتها مستنياني.

احتقن وجه أشرف كعادته عندما تتفنن أمه في اللعب على أوتار أعصابه المشدودة دائمًا، وكاد يبادلها الاستفزاز غير أنّه عدل عن موقفه لشيءٍ ما في نفسه:

- طيب براحتك بس مش حابب انّ أول مرة تزورها تبقي متأخرة أوي يعني، مش عايزين ندي انطباع اننا ناس مش ملتزمين من بدري كده.

لم تكن منال شديدة الحماس لهالة من الأساس، ولكن إصرار أشرف الغريب على طلبه المفاجىء بالزواج منها ألجمها، كانت كأي أم ترغب في تزويج ابنها الأثير خاصةً أنّ دراسته للطب ثم التحاقه بالخدمة العسكرية كضابط احتياط لمدة ثلاث سنوات قد استنزفت كثيرًا من سنين شبابه.. فليكن ما تريد يا بني وليعِنكَ الله على تلك الفتاة غريبة الأطوار:

- ماتقلقش انا مسيطرة وانت عارف كويس، مش بعيد بعد مرتين تلاتة تلاقيها بتتحايل عليا اجوزك بنتها.

انفرجت أسارير أشرف رغمًا عنه، وشعر بغبطةٍ شديدة وامتنان تجاه تلك الأم الأريبة، كانت توفّر له على الدوام ما يفوق احتياجه من الحماية والأمان خاصةً بعد وفاة والده منذ عامين.. كانت تعشق الحياة وكانت هي ذاتها حياةً لكل من يقترب منها.. كم أعشقك يا أمي:

- خلاص اما تجهزي يا حبيبتي اندهيني عشان انزل اوصلك، أنا في أوضتي.

استدارت في دهشة:

- مانا هاروح بزقزوقة.

أجابها في حنان:

- لا، زقزوقة مش مناسبة ليكي النهارده، الملكة لازم تروح في عربية تليق بيها، مش كفاية جبتيلي عربيتي واندبستي انتي في زقزوقة؟ أنا هاوصلك واستناكي تحت زي السواق لحد ما تنزلي كمان.

بخبث غمزت منال ونكزته في كتفه:

- قد كده بتحبها؟ والله ما انا عارفة انت أصلًا لحقت إمتى تعرفها ولا تكشف على عينيها اللي جننتك دي؟ ربنا يسعدك يا حبيبي وتنول كل اللي ف بالك.

تناول يدها التي نكزته وطبع قبلةً حانيةً :

- أنا في أوضتي مستني.

على أنغام (الأوضه المنسيّة) استرخى أشرف والمشاعر الجياشة تتناوبه، أحقًّا عشق هالة إلى هذا الحد؟ كانت ملكة قلوبٍ نعم، ولكن كم من

ملكاتٍ استماتت أمه في عرضهن عليه، كانت جميلةً تعشق الجمال ولم تكن تقبل لابنها بأقل من ملكة. وربما لهذا بالذات لم تعترض على هالة بالرغم من حكايات غرابة أطوارها المتداولة بين نساء العائلة.. شعر أشرف بسعادةٍ ممتزجةٍ بالفخر كونه الوحيد في هذا العالم الذي يعرف أسرار الملكة الحصينة.. أحبكِ يا هالة كما لم أتصور أن تملكني إحداهن يومًا، ولن أتخلى عنك وإن حاربك العالم وشياطينه أجمع.

" تعبانة و بدي حاكيك حاكيني الله يخليك

ونقّلني عا شبابيك اللّيل و ع سطوح الدار"

رأى بعين قلبه شفتيها تترنمان وتستعطفانه فطفرت منه دمعةٌ تمتزج بالسعادة.

انطلقت السيارة بوفد مفاوضات السعادة إلى بلاط فرجينيا جميلة الجميلات وكأنّ أشرف يقودها بقلبه لا بأطرافه، وتعجبت الأم كثيرًا من تكراره المريب لنفس الأغنية طوال الطريق. كانت تعشق فيروز كعاشقةٍ للحياة ولكن ليس إلى حد الاستماع إلى ذات الأغنية سبع مراتٍ على التوالي. كان أشرف ذاهلًا عنها في عالمٍ موازٍ فلم تشأ أن تقطع نشوته!

تحت المنزل الهادىء ودّع أشرف أمه بنظراتٍ حانية مستعطفة فأجابته بنظرات ثقةٍ وتشجيع ثم سرعان ما دلفت إلى المدخل واختفت عن ناظريه.

* * *

(٢٩)

كانت الربة حاضرة في نظرات نهلة عندما استقبلت تلك الزيارة المفاجئة التي أصرت عليها منال بشكلٍ مريب، كانت قد ارتضت بنسق حياتها الخاوي تقريبًا من البشر، حتى إنّها استرابت في قدرتها على تبادل الحديث وجهًا لوجه مع تلك المتطفلة الودود.. استقبلتها بترحابٍ حذر وعبارات مدغمة غير مفهومة، ثم قادتها إلى صالون المنزل التقليدي في خطواتٍ وئيدةٍ مترددة.

كان الصمت ليسُد طويلًا لو أنّ الضيفة شخصٌ آخر غير منال، انطلقت المرأة المفعمة بالحياة في الحديث المسترسل دون أن تمنح نهلة الفرصة حتى لتقوم بواجب الضيافة، وبدا صوتها متدفقا كجدول ماء يروي أرضًا عطشى، لم يكن من المبالغة أن نقول أنّ جدران المنزل وأثاثه قد شعروا بنشوةٍ مفاجئة بعد طول موات.. هل أشرق المنزل فجأة؟ على الرغم من خفوت الإضاءة في صالون المنزل إلا أنّ نهلة شعرت بمزيدٍ من الإضاءة المبهرة التي ربّما انبعثت من روح منال المنطلقة النائرة للبهجة من حولها.

حكايات أخّاذة عن العائلة لم تعرف نهلة قبلًا ولو لمحةً منها طفقت تخصف على روحها أزهارًا ومرحًا طفوليًا لم يعرف طريقه إليها منذ سنواتٍ وسنوات.. لم تتمالك نفسها حتى من إطلاق ضحكاتٍ مجلجلة لم تكن تدري أنّها تستطيع أداءها من الأساس.. مابال تلك الأسرة الصغيرة لا يمارس أفرادها الحياة إلا عندما يمنحهم الآخرون إيّاها؟ عطاشى هُم للحياة ولكّنهم لم يحاولوا يومًا أن يردوا ينابيعها بأنفسهم واكتفى كلٌّ بالانزواء في (أوضة منسيّة) وحيدًا يناجي ذاته.. حتى أسعد كان يختلي

بصنو روحه المريب فارس ثم إذا فارقه عاد جمادًا لا حياة فيه.. تنازعت الخواطر نهلة كلما كانت منال تصمت لحظاتٍ لالتقاط أنفاسها المجهورة من فرط الحماسة والضحك.

- أومال فين الأمورة الصغيرة؟ نفسي اشوفها.

بهت السؤال نهلة التي لم تكن تحسب له حسابًا.. هي تعُد نفسها وحيدة ولا رابط بينها وبين ابنتها الوحيدة حتى تبادرها إحداهن بطلب وساطةً لرؤيتها.. هي لا تتعاطى مع الزائرين إذا وُجِدوا ولا تحسب نفسها فردًا في أسرة.. هي هالة وكفى.

- مساء الخير يا طنط.

دقّ قلب نهلة بعنفٍ غير ملائمٍ للموقف، فاستدارت بغتة لتطالع ابنتها في أبهى صورة وعلى شفتيها ابتسامةٌ لم ترها منذ عهودٍ مضت!

- هالة؟

- ازّيك يا ماما، وحشتيني ما باشوفكيش ليه؟

تتكالب الصدمات على رأس نهلة فلا تكاد تفيق.. هالة تمزح؟ ما الذي يجري في هذه الحياة؟ أيكون حلمًا مخمليًّا تفيق منه على صوت أسعد الأجشّ يبصق سؤاله اليومي الجاف: (أنا نازل، عايزة حاجة؟)، ولكن لا، أسعد مازال في الصيدلية وهالة بالفعل أمامها تمزح!

منال هي من كانت تكابد صدمةً من نوعٍ آخر، وكأنّها كانت تطالع وجه هالة للمرة الأولى رغم أنّها رأتها مرةً أو مرتين في اشتراكٍ نادرٍ للأسرة المنعزلة في اجتماعات الأعياد العائلية، ربما جال بخاطرها في تلك اللحظة الآية الكريمة من سورة يوسف "فلمّا رأينه أكبرنهُ وقطّعن أيديهنّ وقلن حاشَ لله ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملكٌ كريم". كيف لا

تعشقها يا أشرف فأنا ذاتي أنسحب إلى حضرتها الآن، وأصير أسيرةً لتلك الطلة الساحرة.

هبّت منال من مجلسها واتجهت صوب هالة، وضمتها بحبٍّ جارفٍ وكأنّ روح ابنها المنتظر أسفل المنزل قد حلت فيها:

- حبيبتي انتي ازاي كنتي حارمانا من طلتك الحلوة دي؟ انتي للدرجة دي بتخافي من الحسد يا نهلة؟ بس تصدقي؟ عندك حق، أنا لو عندي القمراية دي أخاف عليها من الهوا الطاير.

تسربت حمرة الخجل إلى ابتسامة هالة فزادتها بهاءً على بهاء:

- على إيه يا طنط؟ ده حضرتك اللي زي القمر.

لا داعٍ للحديث عن طيور النورس التي أُرهقت تحليقًا كلما نطقت افروديت. اتّسعت بالطبع ضحكة منال التي تذوب فرحةً لكلمات الثناء على جمالها الذي كاد يذوي.. ضخت كلمات هالة إكسيرًا من الحياة في عروقها فأحكمت الوثاق على مشاعرها.. لقد أحبتها منال!

جرّت منال الفتاة من يدها لتجلسها إلى جوارها وأخذت تسترق نظراتٍ فخور باختيار أشرف إلى قسمات وجهها الملائكية، الأم هي الأم، تناست تمامًا كل ما كانت تخوض فيه مع الخائضات عن غرابة الفتاة وعن عزلتها المريبة، لقد كُن مخطئاتٍ بالتأكيد، فتلك الفاتنة لا يمكن أن تُوصَف سوى بكل ما هو جميل، والله لا يمنح جمال الروح والقسمات الأخاذ هذا لغريبات الأطوار.

- أنا ازاي ما خدتش بالي قبل كده انّ فيه في عيلتنا بنوتة زيك يا حبيبتي؟ معقول ما كُنّاش بنزور بعض ولا كنت باشوف الحلاوة دي كلها؟

- كل شيء بأوان يا طنط، أنا فرحانة أوي انّ حضرتك شرفيتنا بالزيارة دي.

- شرفتينا؟ ده الشرف كله ليا يا هلولة. ده انا أصلًا بافكر اخدك من مامتك اللي كانت حارمانا منك دي وتقعدي عندي كام يوم.. خسارة ماعنديش الا أشرف وأدهم، ولو كان عندي بنت ما كنتش سبتك النهارده.

- ودكتورأشرف أخباره إيه يا طنط؟

أُخِذَت منال وأُخِذَت نهلة بجرأة الفتاة.. بالطبع كانت منال تعلم بطرفٍ مما دار بين الشابين، ولكنّ ابنها لم يذكر لها على الإطلاق أي إشارات عن موقف هالة منه.. كانت تعتقد أنّ الفتاة ذاتها ستُفاجَأ يوم تلقي بقنبلتها وتطلب يدها، أما نهلة فحدِّث ولا حرج، كانت ترى فتاةً لا تمت بصلة لتلك الابنة التي تقبع في غرفتها لا تكاد تفارقها ووجومٌ دائمٌ يعلو قسماتها، حتى إنّها فوجئت منذ دقائق بضحكةٍ صافيةٍ على محياها لا تكاد تعرفها من الأساس.

لم تدع منال فرصةً كتلك تفلت من بين أصابعها الخبيرة فحاكت ببراعة أمّ محبة أحاديث مطولةً استرسلت فيها لتصف (بطولات) فارسها المنتظر في سيارته على جمر الفضول، منحتها هالة ما لم تكن تطمح إليه من إدارة دفة الكلام إلى منطقة أشرف.. سيرة ذاتية كاملة وُضِعت بطريقٍ غير مباشر بين يدي نهلة، حتى إن الظنون بدأت تراودها بعد أن استعادت حاستي الأنوثة والأمومة على يدي منال المنطلقة في تلك الجلسة. أحقًّا صارت هالة عرومٌ يرغبها الخطّاب؟ كانت سيرتهم التي استحالت على يدي أسعد إلى صندوقٍ لا يرغب الناس في معالجة أقفاله المحكمة حائلًا بينهم وبين الجميع.. لا تحادث أحدًا ولا يحادثها أحد، فكيف يتجرأ أحدهم على خطب ودها لينال فاكهة ابنتها المحرمة؟ انتابها عند هذا الحد مشاعر مجنونةٌ مختلطةٌ ، أَمَضى بها العمر حقا بتلك الوتيرة الراكدة لتستفيق على زوال الشباب الذي لم تجنِ ثماره بعد

فتصير أمًّا لعروس؟؟ تبًّا لك يا أسعد ولغرابك الصديق! أفنيت زهرة عمري في غرفةٍ مغلقةٍ بينما أنت تمارس المجهول في غرفتك الكئيبة، والناس من حولنا يرشفون رحيق الحياة كمنال.. أيامٌ تمضي كالجنائز صامتةً خانقةً والفرحُ فيها من الموبقات.. مرآتي صارت كانعكاس النفس لا الجسد أطالع فيها روحي فلا أجد سوى الخواء، ومشاعر وهبتها إياك ذات يومٍ فاستملَكْتَها جميعًا بحماقاتك وكأنّها علبة سجائر ستكوّرها بعد أن ينفد محتواها وتتخلص منها ثم تشتري أخرى بكل بساطة! وأنتِ أيّتها الناكرة.. كيف تهشّين لمقابلة امرأة لا تعرفين عنها سوى أنّها (طنط منال) بينما لا أحوز أنا -أمك- سوى كآبتك وصمتك المقيت؟ أين كانت ابتسامتك الساحرة ودموع قلبي لا تجد مسرحًا تنال فيه تعاطفك وبسماتك الحانية؟ تصفقين الآن لتلك الغريبة وتمنحينها جمال روحٍ طالما خبأتِه عمن منحتك تلك الروح؟ كم أنا غريبةٌ عن تلك الحياة وكم أنتِ غريبةٌ عني يا ابنتي.. ولكن.. كم أحبُّكِ كذلك وكم تمنيتُ أن تشاركيني ولو لحظاتٍ مما أكابد، فأشعر بدفء قلبك وبأنّ الحياة تستحق أن تُعاش؟؟ أين كنتِ يا ابنتي؟

لم يبدُ أنّ منال وهالة المأخوذتين بالحديث عن أشرف قد لاحظتا تلك الدموع الساخنة التي سالت على وجنتي نهلة قهرًا، حتى شعرت تلك الأخيرة بأنها تتضاءل أكثر وأكثر داخل كرسيها (الفوتيه) فانسحبت في صمت لتعد مشروبًا لضيفتها الثقيلة الساحرة!

* * *

(٣٠)

للمرة الأولى منذ اكتشف أغنيته الأثيرة أوقف أشرف مشغّل أسطوانات السيارة في ملل، بينما كانت فيروز تتأهب لاستعطاف فتاها كي (يحاكيها الله يخلّيه).. استحال فضوله قلقًا، فرغم أنّه يعلم أنّ كل تأخيرٍ لأمه قد يحمل (خيرًا) وأمارات انسجامٍ بينها وبين (طنط) نهلة، إلا أنّ تلك الحالة من الانتظار الخاوي لم ترُق له كثيرًا، وتمنى لو عبرت أمه الآن مدخل المنزل أيًّا كان التعبير الذي سيحمله وجهها. كان بمقدوره أن يقضي وقت الانتظار في (كافيه) قريب ولكنّ شعورًا ما ألح عليه بأنّ انتظاره في تلك البقعة الملاصقة لمنزل هالة سيمثّل دعمًا معنويًّا لها، وكأنّه سيمدها بفيضٍ من طاقة قلبه عبر الأمتار والجدران الفاصلة بينهما. لم تزعجه نظرات حارس المنزل الأسمر النحيل الذي يرمقه بين الفينة والأخرى في ارتيابٍ جال بخاطر أشرف أنّه يليق بحارس منزلٍ غير محترف.. بالنسبة لحارسٍ كهذا لا يهمّ إن كان من يحوم حول منطقة نفوذه شقيٌّ رثّ الهيئة أم شابٌّ تبدو عليه سيماء الأناقة والثراء، المهمّ فقط أن يدافع عن تلك المنطقة بعدوانيةٍ كافية تنفي عنه صفة (الكروديا)!

مضت ساعات الانتظار على تلك الشاكلة من الهراء، فعلاوةً على تحليل شخصيّة الحارس، قام أشرف بإحصاء عدد مكيفات الهواء في كافة مباني الشارع، ثم قام بتحليلٍ إحصائي لعدد المكيفات في كل مبنًى على حدة ليستخلص منها قرائن على المستوى الاجتماعي لسكان كل مبنى، وأخيرًا قبل أن ينتهي من إحصاء المارة في عينة زمنية تقدر بثلاث ساعاتٍ يحلّل فيها مدلولات نسبة الشباب إلى كبار السن والرجال إلى النساء من

أهل المنطقة المحيطة، ظهرت منال لتنتشله مما يفعل.. هبّ كالملسوع من جلسته المُنهكة على مقدّمة سيّارته ليستقبلها بدقّات قلبٍ تتسارع مع كل خطوةٍ يخطوها.

- ها!!؟

- هاا! إيه؟ انت هتخوفني ولا هتاكلني؟ ما تركز كده ماتبقاش خفيف من أولها.

- وحياة جدّي يا ماما ماتلعبيش بأعصابي، اركبي بسرعة كده واحكيلي كلمة كلمة.

- لا أحكيلك إيه؟ خلّينا في البيت ابقى احكيلك، عايزة اسمع في الطريق أغنية فيروز دي اللي كنت مشغّلها، أصلها وحشتني أوي بقالي ييجي تلات اربع ساعات ما سمعتهاش!

- أوووووه يا ماما، أنا مش ناقص تريقتك دي، يللا بس!

مودّعًا حارس العقار بنظرةٍ ناريةٍ بعد أن فتح باب السيارة لوالدته دلف أشرف إلى السيّارة، وانطلق بسرعةٍ لا تكاد تجاوز العشرة كيلو مترات في الساعة:

- هاقف على جنب بس لما نخرج من هنا علشان ما يشوفوناش من شباك ولا بلكونة وتحكيلي كل حاجة.

- انت بتتكلم جد؟ عايزنا نقف في شارع ضلمة احكيلك وتحكيلي؟ طيب ما تيجي نطلع المقطّم احسن!

- اللهم طوّلك يا روح، ياماما أبوس إيدك أبوس رجلك أنا مش قدك، عايز أعرف عملتي إيه من غير ما تقلّبيني تريقة، صعبة دي؟

- قول يارب، اتحرك بس انت وانا هاقول لك كل حاجة.. أفضي راسي شويه بس، أنا بذلت مجهود أكتر من ام عادل وهي بتقلب البيت عالي واطي. أووف ماعندكش صبر؟

على تلك الوتيرة استمر الجدال بينهما حتى فوجىء أشرف بمنزلهما يطالعه.. وصلا المنزل بالفعل وانتصرت منال كالعادة.

في استسلام تبعها أشرف الذي لم يعُد يجد جدوًى في الضغط عليها، ثم بعد أن تساقطت في إجهاد على أريكة في صالة استقبال المنزل تكلمت فجأة:

- أشرف أنا قلقانة!

تجهم وجهه وتقطّب جبينه:

- قلقانة؟ من إيه؟

قطّبت منال وجهها بدورها:

- اسمعني طيب من غير ماتقاطعني: البنت أنا بصراحة ما شفتش زيها قبل كده، أنا فعلًا مش مصدقة إنّك تقع على وردة زي دي وانت كان باين عليك هتقع وقعة منيلة بعد كل اللي رفضتهم واتبطّرت عليهم، اللي قالفني مش البنت، البيت ده يا أشرف مش مريح بالمرة.. أنا طول ما انا قاعدة حاسة بانقباض وحاسة انّ فيه حاجة مش مظبوطة. أكتر من مرة أحس انّ حد واقف ورايا مع إنّي كنت قاعدة على كنبة ضهرها العيطة، مامتها كمان مش مريحاني أبدًا، تصدق انت انّ أم تغير من بنتها؟ أنا أول ما أخدت البنوتة في حضني وقعدتها جنبي نتكلم، وقعدت ادلّعها واحاول ادخل قلبها بسرعة علشانك الست وشها قلب مية لون! في الأول قلت يمكن مستغربة انّي ما اعرفش البنت قبل كده فجبت العجب ده كله منين؟ بس انت عارفني ما تعديش عليا حاجة زي دي، عينها

ماجتش عليا أبدًا، بس كانت هتاكل البنت بعينها والغل كان بينطّ منها! الأخر لقيتها بتعيط وقامت من غير ولا كلمة ورجعت بكاسات عصير قال يعني كانت بتضايفني.. الموضوع مش سهل يا أشرف ومحتاج صبر، لازم نعرف كل حاجة عن الناس دول، ده لسه كمان المصيبة الكبيرة أسعد اللي ماعملناش حسابه، أنا عايزاك تتجوز أه والبنت ماتتسابش حقيقي، بس انا مش مستعدة اسلمك لناس ملبوسين ولا (سايكو) ومجانين!

ساد الوجوم بعد الحديث (الماراثوني) لمنال، وبدا أنّها على غير استعداد لمزيدٍ من المناقشة إذ نهضت متثاقلة، وأخبرت أشرف أنّها متجهة لتبديل ملابسها لتتركه نهبًا لمخاوفه وظنونه.

لم يكن هناك جديد فيما يتعلق بغرابة ما يحيط بهالة، ولكنّ أملًا ما كان يراوده أن تسير الأمور بيسرٍ، وألا يكون هناك مبررات فعلية لما تمر به حبيبته، فتنحصر الأمور في بعض الاضطرابات النفسية التي ألمت بها إثر الحياة بين أبوين منعزلين تقريبًا.. هو يثق في حدس أمه إلى أقصى الحدود ولم يخالها يومًا هستيريةً ككثيرٍ من النساء، وطالما استرابت في المنزل والأسرة فهناك إذن ما يريب.. شعر بالشلل يبسط سطوته على خلايا عقله، شيئًا فشيئًا بدأت حالة (التنميل) العقلي تبارحه وعادت خلايا عقله للعمل بهمّة.. هناك شيءٌ ما يحيط بعلاقة أسعد و فارس هو ما تسبب في كل ما يحيط بتلك الأسرة من اضطرابات، لا شكّ تبقى لديه في تلك الحقيقة المفترضة، يبدو أنّ هناك مهمةً أخرى كتلك التي قامت بها أمه يتوجّبُ عليه القيام بها، ولكنّها لن تكون في منزل هالة تلك المرة!

* * *

أشرف وأسعد

(٣١)

توقفت سيارة أشرف أمام صيدلية الدكتور أسعد وكاد نبضه أن يتوقف معها، لم يكن يعلم بالتحديد لِمَ يتوجه الآن لمقابلة الرجل، ومالذي قد ينجم عن لقاءٍ غير محمود العواقب مع من يفر من الاعاقات الاجتماعية فراره من هجمات الذئاب، ولاسيما إذا تطرق الحديث إلى ما له علاقة بابنته الوحيدة.

ندت شهقة خافتة من أشرف عندما طالعت عيناه اسم فارس التطواني على لافتة ضوئية تعلو المحل المجاور للصيدلية.. لم تذكر هالة تلك المعلومة من قبل.. إذن ففارس لا ينفرد بأسعد فقط في الغرفة المغلقة بمنزل الأخير، بل يتجاوران كذلك في محل العمل! ما تلك العلاقة اللصيقة بين الرجلين ليل نهار؟ "لا ينقصهما إلا أن يصيرا ذات الشخص" جال بخاطر أشرف.

انكمشت خطواته قبل أن يبلغ باب الصيدلية وعاد أدراجه إلى سيارته، ماذا لو قام بتعديلٍ بسيط في خطّته العشوائية؟ كان يعتمد فيما ينتوي فعله على ما يشبه نظرية (الفوضى الخلّاقة).. سيثير غبارًا بخطوةٍ غير متوقعة ثم ينتظر حتى ينقشع الغبار عن ردود الفعل، فربما يحدث ما يفيد عِوضًا عن حالة الجمود التام تلك، لا مكان للعقل والحسابات في تلك القصة المجنونة.

ولكن هل يعدل وجهته فيقصد عطارة فارس التي وقعت في طريقه دون إعدادٍ مسبق؟ قد تكون تلك علامة سماوية عليه أن يتبعها، على كلٍّ هو قد صار على قناعة تامة أنّ مفاتح الأسرار جميعها لدى فارس وليس أسعد.. الجلي مما سمعه في حواره المطول مع فاتنته أنّ التغيرات الكبرى قد طرأت على أسعد بعد تعرفه إلى فارس كما سمعت أمها تنتحب مرارًا بينما تسترق السمع خارج غرفتها، إذن فمن يملك التأثير هو فارس.. تُرى ما وراءك أيها الفارس غير النبيل؟

- سلام عليكم..

من خلف نظّارة طبية مستطيلة العدسات رمقته عينا صقر أخنف:

- عليكم السلام والرحمة.

- حضرتك الحاج فارس؟

مضيّقًا حدقتي عينيه أجاب الصقر:

- مش حاج، بس انا فارس.. أؤمر.

متبعًا نظرية الفوضى الخلاقة أطلق أشرف العنان لخياله كي يقوده:

- أهلًا بيك يا حا.. يا أستاذ فارس، أنا دكتور أشرف فؤاد دكتور عيون.. أنا باحضّر دراسة عن تأثير العلاج بالأعشاب على مرضى (بهجت سيندروم)، وولاد الحلال دلوني على حضرتك باعتبارك علّامة في الأعشاب والعطارة.

لم تعد هناك مساحة يضيق فيها فارس عينيه ففتحهما مستنكرًا:

- بهجت؟ مين بهجت ده؟

اتسعت ابتسامة أشرف رغمًا عنه إعجابًا بما جادت به قريحته من حيلة.

- لا حضرتك، ده مرض اسمه متلازمة بهجت نسبةً يعني للدكتور التركي اللي اكتشفه زمان وشخَّصه، ده مرض عيون مالوش علاج ومضاعفاته خطيرة في بعض الحالات.. أنا باعمل أبحاث عليه من فترة وفكرت الجأ للأعشاب والعلاجات البديلة كتجريب، يعني طالما الطرق العلمية ما قدرتش لغاية دلوقتي توصل لحاجة.. أنا فعلًا محتاج مساعدتك.

لم يستطع فارس ابتلاع بهجت هذا، لا يبدو الأمر طبيعيًا، ففي زمن الإنترنت لا يسهُل استساغة أن يلجأ طبيبٌ لعطّار لا يعرفه بحجة أولاد الحلال.. ولكن.. لا يجب أن يدعهُ يرحل هكذا دون أن يعرف حقيقة الأمر وماالذي يبتغيه هذا الغريب منه:

- آه، طيب اتفضل معايا يا دكتور...؟

- أشرف .. أشرف فؤاد يا أستاذ فارس.

كمن يُساقُ إلى المجهول تبع أشرف الصقر الكهل إلى عشه غير المأمون، لم يتصور يومًا أن يورط نفسه فيما لا يعلم ماهيته ولا يأمن عواقبه، أشياء تحدث وأطيافٌ تظهر وأحلامٌ غامضةٌ وبيتٌ غير مريحٍ وغرفةٌ مغلقةٌ على رجلين منذ سنواتٍ طوال لا يعلم أحدٌ ما يجري فيها، وعطّارٌ أخنف يرمقه كالصقر ويستدرجه لداخل عشه كي يستنطقه عن كذبة لا يدري إلامَ يمكن أن تُفضي.. فلتكن معنا يا بهجت!

في نفس الغرفة التي شهدت أول لقاءات فارس بأسعد تنشّق أشرف ذات الروائح العطرية المحببة إلى النفس، راوده خوفٌ مفاجىء من ان تكون هناك تركيبة سحرية ما يعبق بها المكان تؤمّن لفارس السيطرة على

ضحاياه.. صدمهُ كذلك مرور تعبير (ضحاياه) بخاطره. هو قد أصدر حُكمًا مسبقًا بالفعل على الرجل، بل وأدانه دون دليلٍ بالتسبب في كل ما يحيط بتلك الأسرة من أحداث لم تبلغ بعد حد الخطورة التي تجعله يتصوره في هيئة المجرم ذي الضحايا الكُثر! لابد أن يستعيد رباطة جأشه فلا يبالغ في تفسير أفعال وأقوال الرجل حتى يتمكن من الولوج إلى عقله، فربما يصدر عنه ما قد يفيد في استنتاج ما يجري لهالة.

- اتفضل يا دكتور ارتاح.

- شكرًا، اتفضل حضرتك.

- قلت لي بقى إيه موضوع بهجت ده؟

- احم.. آه.. هو باقول لحضرتك انّه مرض مش خطير لكن بيسبب معاناة للمريض، وأحيانًا بتحصل نتيجته مضاعفات خطيرة و...

- أيوة أيوة، قلت نفس الكلام من دقيقتين، أنا ممكن اعمل لك إيه وإيه اللي هاستفيده من كده؟

- لا طبعا ازاي؟ حضرتك لو ساعدتني في البحث ده ووصلنا لنتيجة أكيد هنقلب الدنيا، باقول لك مرض مالوش علاج، تخيَّل بقى لو لقينا علاج ينفع ليه ممكن شركات الأدوية تعمل معانا إيه علشان تاخد التركيبة وتعملها علاج كيميائي يدل ما الناس تشتريه بملاليم، أكيد هينوبك، أقصد هينوب حضرتك من الحب جانب ساعتها.

نظرات صقرٍ يستعد للانقضاض.. قلب ساحرٍ كهل لا يشتري هراءً كهذا من شابٍ غريرٍ.. لهذا امتدت يد عطّارٍ خبير يمزج الأخلاط بدقة صانع الذهب إلى كتف أشرف لتمسكه في قوة:

- يا ابني أنا مش تلميذ معاك في الكلية بتاعتك، قوللي بالراحة كده انت مين وعايز إيه؟

- إيه يا أستاذنا فيه إيه؟ انت هتضربني ولا إيه؟

- لا انا مش باضرب حد، فيه حاجات تانية كتير بتأذي غير الضرب!

- تأذي؟ بقى انا جاي قاصدك في مصلحة وكلام مهم تقول لي تأذي؟

- ما باحبش اللف والدوران، أدخل في موضوعك وفهمني عايز ايه أحسن لك، انت مين وعايز ايه؟

ساد صمتٌ ثقيلٌ للحظاتٍ وأخذ عقل أشرف يعمل في سرعة، بالتأكيد إذا حاول دفع فارس ثم الهرب سيلحق به هذا الأخير قبل أن ينطلق بسيارته، وسينكشف ملعوبه إلى الأبد، وقد تجذب الجلبة والصياح انتباه حميه المستقبلي القابع في الصيدليه المجاورة فيراه.. ليستبعد إذن فرضية الهرب.. فجأة انارت فكرةٌ ما عقله:

- عيب على فكرة تعمل كده مع قريب أعز اصحابك!

نجحت هجمة أشرف المضادة في تخفيف قبضة فارس على كتفه والنفاذ إلى ملامح وجهه التي ارتخت قليلًا:

- أعز اصحابي؟

- أنا قريب الدكتور أسعد، تفتكر هاكون جاي اضحك عليك مثلًا؟

استعادت عينا الصقر خاصية الضيق مرةً أخرى وبدأ عقله يعمل:

- طيب مادام انت قريب أسعد، ما قلتش ليه من الأول أو حتى ما عديتش عليه ليه يعرفك بيا أسهل من الحركات دي كلها؟

- باقول لك بحث وبحث سري، معلش هو دكتور أسعد قريبي وكل حاجة، بس ما حبيتش برضه أدخّل حد في الموضوع، مش كل باحث ليه قريب هيقول له أسراره يعني.

- باقول لك ايه؟ تعال معايا.

- آجي معاك فين تاني؟

- على الصيدلية!

* * *

(٣٢)

ضيَّق أسعد عينيه من أسفل نظّارته الطبية سميكة الإطار ليتذكر هذا الوجه المألوف:

- مش انت ابن ا.... ابن منال؟

برباطة جأش لا يدري من أين امتلكها في ذلك الموقف الشاذ أجابه أشرف:

- آه يا عمي أسعد، أنا دكتور أشرف ابنها.

تفرّس أسعد في ملامحه الشابة مليًا وسرت على وجهه ابتسامة بترها فورًا ثم استطرد:

- شَبه فؤاد الله يرحمه انت بشكل غريب.. يااه، فكرتني بأيام الشباب أما كنت انا وابوك الله يرحمه بنتصرمح سوا في الشوارع لحد الفجر، ده قبل ما يخطب منال بنت عمه..

تدخل الصقر الكهل فارس مقاطعًا لينهي تلك الحالة من (النوستالجيا) العائلية:

- أظن يا أسعد تخلي الذكريات دي بعدين، ونشوف الأول الدكتور كان عايز ايه من الأخر بدل ما يقول لي بهجت وحشمت.

لم يكن أسعد قد استوعب بعد مشهد فارس وهو يقتحم الصيدلية ممسكًا بتلابيب أشرف في صخبٍ أفزع سيدة عجوز كانت على وشك

إخراج (الروشتة) من حقيبة يدها السوداء الضخمة فانسحبت جزِعَة.. كان يعرف الفتى ولكنّه لم يعُد يذكر الكثير مما يربطه بتلك العائلة، حتى إنّه توقف منذ سنوات عن حضور التجمعات العائلية السنوية في الأعياد، فكان يكتفي بإرسال نهلة و هالة إن رغِبَتا في الذهاب:

- بهجت إيه يا فارس؟ ما تفهمني.

- هو اللي يفهّمنا انا وانت، جاي لي يقول بيعمل أبحاث وعايزني اساعده وبهجت وما اعرفش مين وما قالش من الأول انّه قريبك، اللّوَع ده مش عاجبني وعايز افهم دلوقتي إيه قصته، هو مش قريبك؟ اتصرف معاه، مش ناقص انا لعب عيال.

بشكلٍ مفاجيء انطلقت كلمات أشرف الغاضبة:

- هو فيه إيه يا عمي أسعد؟ هو انا جيت مقر لأمن الدولة غلط؟ هو الأستاذ مش عطّار خبرة برضه ولا لِوا عمليات خاصة؟ مستحمل رزالة من بدري وساكت احترامًا لحضرتك بس كده كتير! هاعوز منّه إيه يعني هو بيشتغل في الممنوعات مثلًا وفاكرني جاي مزقوق عليه؟؟ بحث.. بحث! هاقولهاله بالإنجليزي يعني؟ research يا سيدي شغال عليه ومحتاج خبرة من عطّار فاهم، والناس دلوني عليه وما جتش مناسبة اقول له اني قريب حضرتك، كفرت يعني؟؟

كان الموقف هزليًا بما يكفي ولم يشأ أسعد أن تستمر مناقشة صاخبة كهذه داخل صيدليته الهادئة، فتوجه بنظرةٍ مطمئنة إلى فارس:

- لو سمحت يا فارس سيبني مع دكتور أشرف شوية وانا هاعدي عليك بعدين، ومعلش امسحها فيا لو كان ضايقك، ماشي؟

ملقيًا نظرة أخيرة نارية اخترقت رأس أشرف استدار فارس منصرفًا:

- ماشي يا أسعد هاستناك.

بنظرة متفرسة بدوره استدار أسعد تجاه أشرف:

- اتفضّل اقعد يا دكتور أشرف.

اتخذ أشرف مقعده في بطءٍ وهو يشحذ عقله للمواجهة القادمة مستدعيًا كل طاقاته ومستغيثًا بشياطين الفوضى الخلاقة:

- متشكر يا عمي.

أخذ أسعد ينقر بأصابعه على المكتب تفريغًا لعصبيته التي لم يشأ أن يظهرها لأشرف:

- خير يا أشرف، اسمح لي اقول لك أشرف على طول انت زي ابني.

شاعرًا بالاستدراج أفرغ أشرف حقنةً مهدئة:

- ده شرف ليا يا عمي طبعًا وتقدر تعتبرني ابن حضرتك كمان لو تحتاجني في أي وقت.

بابتسامة امتنان بترها سريعًا هاجم أسعد:

- إسمح لي يا أشرف أنا بس مستغرب شوية، مستغرب كتير كمان، إيه سبب زيارتك لفارس؟ اشمعنى هو بالذات رغم انّه مش مشهور ولا حتى عطارته من العطارات الكبيرة اللي ليها فروع والناس بيجولها من كل مكان؟

حنانيكِ يا شياطين الفوضى الخلاقة:

- ماهو علشان السبب ده بالذات حبيت استعين بيه، البحث بتاعي سري مش عايزه يتعرف على نطاق واسع، وأي حد مشهور هيبيع ويشتري فيا لو حس انّ فيها مصلحة، وبصراحة مش عايز أخد من مصادر كتب مجرد كلام نظري، عطّار زيه متمرس هيديني اللي انا عايزه من غير ما يدور في كتب، غير كمان ميزة تانية فيه ومش في حد تاني..

بنظرة شك متنامية جاء رد أسعد:

- ميزة إيه؟

بثقة متزايدة في خطّته العشوائية أردف أشرف:

- إنّه مغربي واسمع انه ليه باع في السحر!

جفل أسعد وبدت على وجهه أمارات عدم الارتياح للمنحى الذي اتخذه حديث أشرف:

- سِحر؟ مين قال لك الكلام ده؟ فارس عطّار شاطر بس ماله ومال السحر؟ هو أي حد من المغرب هيبقى ساحر؟

واثق الكلمة أجاب أشرف:

- لأ طبعًا أنا مش ساذج انّي أقول كده يا عمي، بس حضرتك متأكد من حكاية انّه مالوش في السحر دي؟

أفلتت ذرة من عصبية أسعد فخالطت رده:

- انت اللي جبت الكلام ده منين؟

مبتهجًا بقرب وقوع أسعد في الشَرَك:

- ما انا باسأل حضرتك اهو. أنا سمعت من ناس أكيد حضرتك ما تعرفهمش، وكويس انّي اعرف الحقيقة من حضرتك لو تثق فيا يعني.

بدا الارتباك على أسعد للمرة الأولى:

- ثقة إيه يا دكتور أشرف؟ هو انا مخي سر وخايف منّه؟ ما توزن كلامك كويس، وبعدين فعلًا إيه دخلك بفارس؟ سحر ولا شعوذة يخصك انت ف إيه؟ هي الأبحاث الطبية دلوقتي بقت بتستخدم السحر؟

مستعدًا لضربة قاضية استجمع أشرف تركيزه بعد ان اتخذ قرارًا صادمًا له شخصيًا.. بدت له كل الطرق مسدودةً إلا هذا الطريق المباشر وليكن ما يكون:

- يخصني طبعًا يا عمي، أنا هاقول لك بصراحة انا جيت ليه، وفي الحقيقة انا كنت من الأول جاي لحضرتك مش ليه.. عمي انا يشرفني اطلب من حضرتك إيد هالة!

* * *

(٣٣)

هناك (أوضه منسيّة) داخل عقل كل منّا. ركامٌ من الذكريات والمخاوف والقناعات المسبقة، آلامٌ وأحزانٌ تتصارع مع بهجاتٍ طفولية، قصص حبٍّ مراهقةٌ غضةٌ تخالطها قطوف حكمةٍ قديمةٌ قِدَمَ الدهر ذاته، مروج خيرٍ ظليلةٌ تجري فيها أنهارٌ من الشر المطلق، خليطٌ كاملُ الجنون مستحيل التمازج يقودنا في الحياةِ دون أن ندري، وويلٌ لنا إن انفرج بابُ تلك (الأوضة) بما يزيد عن قدرتنا على المواجهة.

قد يُفلت حينها حكيمٌ أبديٌّ من الباب يفجرُ العقل بما لم يصمم له من إبهار معارفَ نورانيةٍ خيرٌ لها أن تبقى حبيسة (الأوضة)، لا تسري منها عبر مسام الباب الموصد سوى نفحاتٍ تصبغ أفعالنا بما يمنحنا لحظاتٍ من الرضاء الذاتي.

وقد يقتحم الباب شيطانٌ رجيمٌ يحيلنا مَرَدةً نُعيث في حيواتنا فسادًا يدمر كل جميلٍ فيها، بعد أن كان ما يخالط أفعالنا من شرٍّ مجرد نفثاتٍ محسوبةٍ تلهبنا بها أنفاس شياطين (الأوضه) كل حينٍ من مسام الباب ذاته.

جاءت طرقات أشرف على باب (الأوضه المنسيّة) في عقل أسعد عنيفة هادرة هزت كيانه بعنف وأيقظت فيه مشاعرَ غفت منذ زمنٍ بعيد.. تذكر كل ما مَرَّ به منذ مولد هالة ابنته الوحيدة التي لم ينتبه قبلًا أنها قد صارت شابّةً، فإذا بهذا الشاب الآن يطلب يدها!

وليدةٌ غضّةٌ يحتويها بين ذراعيه وقلبه يتمزق بين مشاعر من صار أبًا لتوّه وذعرٍ ممسوسٍ يواجه شيطانه.. ذهب الحلم ولم يأتِ الولد.. هو ليس أبا لهب لكي يند فلذة كبده، ولكنّه لا يملك ألا يجتاحه الخوف من عواقب ما يحاصره من تهديداتٍ جاءته حلمًا..

" إرحل أيُّها المفقود.. أو لا ترحل.. هو اختيارُك تحمِلُهُ وتحتمِلُه.. لا تكُن أصلًا بلا فرعٍ.. ولا بيتًا بلا عُمّار.. لا تكُن قولًا بغير حروف.. كُن أبًا بلا ولدٍ وولدًا لابنتِك.. إبقَ كما أنت وستفنى وتبقى منكَ لعنتُك تجوبُ بزُوحها الأزمان.. تتمنّى لو أنّها لم تكُن وتلعنُ رُوحها روحَك للأبد.. ولن ينجيك سوى الولد.."

تجتاح قلبه الفرحة والشفقة على تلك القطعة من روحه التي انفلتت منه إلى الحياة دون أن تعلم ما ينتظرها من مصيرٍ يجهلُهُ لكن يخشاه كالموت.. لا يدري لِمَ مر بخاطره صوت "أم كلثوم" تشدو (آه.. كم أخشى.. غدي هذا.. وأرجوه اقترابا.. كنت أستدنيهِ لكن.. هبتُهُ لما أهابا).. هو يخشى الغد ولكن لا يستدنيه.. ألا فلتبتعد أيها الغد المجهول؟ لا يبغض في حياته قدر المجهول.. لم يُعانِ قَطّ من شيئ أقسى من خشيته المجهول وحتمية أن يسعي بنفسه لاستجلاب المجهول، وهاهو الآن يواجه أولى ضربات الفشل في استجلاب ما لا يستطيع إليه سبيلًا.. لم يأتِ الولد فكيف ينجو من ذلك الخطر الذي لا يعرف ماهيّته من الأساس؟

تمرّ به أيامٌ سود لا يتوقف فيها عن الاستيقاظ فزعًا كلما غفت عيناه، يراوده الحلم فيها مرات ومرات.. يتكرر التهديد من ذلك الفارع بذات الألفاظ.. يتجنب الوليدةَ كما لو كانت جروًا أجرب ويحاول الانهماك في صيدليته قدر المستطاع، حتى إنّه لم يعُد يغلقها لفترات الراحة بين

صلاتيّ الظهر والعصر كالمعتاد، كما صار يتساهل مع مساعده كارم عندما يستميحه عذرًا في السفر إلى بلدته لرؤية والدته المريضة.

ثم ظهر فارس.. كان ذلك الظهور نقطة تحوُّلٍ في مجرى أحداث حياته الراكد، فللمرة الأولى يلقى من يتحدث عن السحر بذلك التبجيل وتلك الجدية العلمية، صار الرجل في عينيّ أسعد أيقونةً متحركةً تفعم أيامه بالأجواء الساحرة والنشوة.. جلساتهما اليومية أصبحت (كالأفيونة) التي لا غنى عنها لمزاج أسعد المعتل، وأملٌ جديد صار يدغدغ قلبه بالنجاة مع وجود ذلك الأسطوري الخبير في كل شيء.

قاوم كثيرًا أن يصارحه بذلك الحلم الذي يقض منامه خشية أن يبدو وهو الصيدلي الخبير في صورة الساذج الغرير الذي يخشى خُلمًا أجوف.. إنّها الطبيعة الإنسانية التي تمنعنا أحيانًا من مدِّ أيدينا إلى الدواء خوفًا من اتهام الآخرين لنا بالضعف والاحتياج!

سارت علاقة أسعد/فارس في مجرى هادىء كالنهر الذي لا نهاية لرحلته ولا بداية معروفة كذلك.. كان أسعد يشعر في كثيرٍ من الأحيان أنّ فارس كان دائمًا هناك، وكأنّه جزءٌ من الأزل ذاته. قرأ يومًا عمّا يسمى بالساينتولوجي: تلك الديانة الناشئة التي غزت عقول علية القوم من مرفهي المجتمع الأمريكي ونجومه والتي تعتمد مبدأ تناسخ الأرواح وترى أنّنا عشنا قبلًا في أجسادٍ أخرى، فمر ببالهِ خاطرٌ أنّه و فارس كانا يومًا صديقين أو أخوَيْن في حياةٍ سابقة.. كان يشعر دائمًا أنّ صوت فارس مألوفٌ لديه وأنّ كل ما يقوله قد استقر قبلًا في متاهات عقله ربما قبل مولده.. غريبٌ هذا الرجل القادم من خلفية أغرب.

وجاء اليوم الذي لم يطِق فيه أسعد الكتمان فباح لفارس بما يؤرقه. والغريب أنّ الأخير لم يبدُ مندهشًا، بل استزاده من الوصف وبدا عليه الاهتمام الشديد بتفاصيل الحلم، لم يستهن بما قاله أسعد بل شاركه القلق وأنبأه بما لم يحب.. ليس السحر بفرضيةٍ مستبعدةٍ في تلك الحالة، والأمر يتعدى على الأرجح كونه مجرد حلمٍ مزعج، جلسات طوال جمعت بينهما استجوبه فيها فارس بشأن كل تفاصيل حياته السابقة وما قد يدفع أحدًا لأن يرميهِ بسحرٍ، من قد كن يرغبن في الزواج منه من فتيات عائلته، كل من نافسه يومًا على قلب فتاةٍ في شبابه وصولًا لنهلة زوجته، كل من قد يحقد عليه ممن يرونه محظوظًا تخرج من الجامعة ليجد أبًا ثريًا يمنحهُ صيدليةً مجهزةً تختصر سنواتٍ وسنواتٍ من عمرهِ، بغير قصدٍ صارت حياة أسعد كتابًا قرأه فارس من الغلاف إلى الغلاف.. استضافت غرفة أسعد الخاصة تلك الجلسات المطولة التي روى فيها لفارس كل ما مرَّ به في حياته تقريبًا، حتى تطور الأمرُ إلى مرحلةٍ أخرى.

أفاق أسعد من سيّال الذكريات الذي اجتاحه في ثوانٍ معدودةٍ على صوت أشرف الذي بدا كصوتِ ماردٍ اقتحم عالمه بما لم يحسَب لهُ حسابًا:

- إيه يا عمي؟ قلت إيه؟

بصعوبةٍ استعاد أسعد ما كان أشرف قد قاله قبل رحلة ذكرياته:

- قلت إيه في إيه؟ هالة؟!

تململ أشرف في جلسته وأجاب بثقةٍ بدت مفرطة بعد أن وضع ساقًا على ساق:

- أيوة يا عمي هالة. أنا مش عايز طبعًا رد من حضرتك حالًا. أنا كمان عارف انّها لسه قدامها سنين في الكلية وانا مش مستعجل. أنا كل اللي يهمني نرتبط بكلمة وهي توافق وبعد كده التوقيتات مش مشكلة.

بدا الكلام غريبًا على أذني وقلب أسعد.. هالة صارت عروسًا يتحلّقُ حولها الخُطّاب؟

- هالة؟ دي لسّه طفلة.. أنا عمري ما فكرت انّها تتخطب دلوقتي.. لا لا إصرف نظر عن الموضوع ده خالص!

دون أن تتأثّر ملامحه أسرع أشرف بالرد وهو يهب واقفًا لكي لا يمنح أسعد الفرصة لمزيدٍ من الجدال:

- لا.. إزاي بس الكلام ده يا عمي؟ الأمور دي ما تتقيمش في لحظة كده، خد حضرتك وقتك وفكر وانا مش هاستعجل.. يللا هاستأذن انا دلوقتي وأكيد هاجي لحضرتك قريب.. سلام عليكم.

تسارعت خطوات أشرف في اتجاه سيارته وقلبه يرقص حرفيًا من فرط الحماسة والانبهار بما فعل، لقد حرك بيادقه في نقلاتٍ ماهرة كادت أن تحاصر الملك.. هتفت خلايا عقله: المجد كل المجد للفوضى الخلاقة!

* * *

هالة والغرفة

(٣٤)

ألمٌ حارقٌ يجتاحها وذلك القيد الحديدي يعتصر معصمها وكاحلها.. مثبّتةٌ إلى جدارٍ حجريّ في ما يشبه مغارةً مظلمةً إلا من شعاع شمعي متسلّل.. وجوهٌ تعلوها ضحكاتٌ شيطانية تحيط بها من كل جانبٍ، وكهلٌ فارع الطول يرفع سيفًا يلتمع نصله الماضي في الظلام فيرتجف قلبها رعبًا.. ينشد المتحلقون حولها ما يبدو كتعويذةٍ غامضةٍ بلغةٍ لا تفقه منها حرفًا وتفيض وجوههم بتشفٍّ و غلٍّ لا تخطئه عيناها اللتان اعتادتا الظلام.. امرأةٌ بادية الحسن ممن يلتفون حولها تتقدّم خطوةً لتطبق على عنقها فتختنق أنفاسها وتجحظ عيناها في استغاثةٍ لا تدري بمن.. لا وجه حبيبٍ لينجدها هناك.. تسري في كيانها فجأة كلماتٍ تنذر بالويل: " قطعةٌ من روحه أنتِ.. هامت قرونًا لتحلّ في جسدك.. الآن تتمنّين الموت فلا تجديه، وتودّين لو كنتِ ترابًا فلا تنجدكِ الأرض.. عذابًا استحقّه ولم ينله سيحلّ اليوم بروحه التي تحملينها.. مرحى يا ابنة الشرق.. سيراق دمك اليوم على مذبح الكاهنة فترتوي الأرواح وتصدح جوارح الجبل بأنشودة الموت الأبديّة.."

تفيق هالة والعرق البارد يغمر جبينها.. دقاتٌ كالمطارق تهوي على رأسها وتنفض جسدها كالمحمومة.. تجيل بصرها في الغرفة من حولها فيهدأ روعها قليلًا.. تتحسّس عنقها وتعبّ الهواء بقوّةٍ كالناجي من الغرق.. تستعيذ بالله وتتمتم بالمعوّذتين ثمّ تتذكّر أشرف.. شعورٌ جارفٌ بالحماية يكتنفها لم تعهده قبلًا. لم تروِ ذلك الحلم حتى لأشرف ذاته.. يستقرّ في يقينها منذ أن كانت طفلةً أنّ الكوابيس لا تُروى، هكذا يقول علماء الدين.

منحها طيف أشرف قوّةً محت كلّ خوفٍ ينتابها إثر ذلك الحلم، بعد أن توقف أبواها منذ سنواتٍ طوالٍ عن لعب دور الجدار الواقي الذي ترتكن إليه عندما يدهمها خطرٌ ما، في كذلك قد توقفت عن مجرد الحديث إليهما، ناهيك عن أن تلجأ إلى كنفهما وتستودعهما أسرارها.. تحوّل منزلها إلى اتحاد كونفيدرالي بين ثلاث دولٍ مستقلة تواجه الأخرين فقط كوحدةٍ واحدة، ثم تنكفىء كل منها على شؤونها الخاصة فلا تلقي للأخرى بالًا. حتى ظهر أشرف من العدم في بيت الجد تمّام ليصير في وقتٍ وجيزٍ جدارها الواقي وحدودها التي طالما سعت قبله لترسيمها فلم تُفلِح..

استدارت بغتةً كعادتها لتحاول اصطياد واحدٍ من تلك الأطياف العابثة فتلاشى.. وقعت عيناها في ذات اللحظة على جهاز (اللابتوب) الخاص بها فنهضت في حيويّةٍ ونشاط لتمنح نفسها دقائق من السعادة الخاصة على صوت فيروز.

شعورٌ آخر خالجها لم تخبَره من قبل.. فقد ضبطت نفسها تبتسم منذ لحظاتٍ عندما كانت تهم بمحاولة اصطياد طيفٍ من أطيافها المراوغة! استعادت ذاكرة شعورها في تلك اللحظات فبدت لنفسها كفتاةٍ ناعمة البال تطارد الفراشات في حديقة دارها الوارفة! ألهذا الحد كنت أحتاجك وأشتاقك يا أشرف؟ رن هاتفها المحمول بنغمةٍ جنائزيةٍ كلاسيكية تعتمدها منذ شهور فانطلقت متحمّسةً لتحتضن صوت أشرف فإذا بها ريم:

- أيوة يا ريمتي!

- نعم؟ ريمتك؟ من إمتى؟

- من زمان بس ماكنتش باقول لك.

- هالة.. هاااالة. فيه إيه يا حبيبتي؟ انتي مصطبحة بإيه؟

- بفيروز يا ريمتي.

- وهي فيروز بتسطل؟ دي حتى مافهماش كحول! انتي هتقلقيني ليه؟ دانا مدمنة بيريل الله يقطعك!

- بيريل؟ حرام عليكي الفصلان ده والله.

- فصلان؟ داحنا اتطورنا أوي! إيه حكايتك يا ماما؟ دانتي صغرتي عشرين سنة يا ست الحاجة. إيه الموضوع بقى؟ ماتجيش الكلية وقلنا ماشي كسلتي ولا عندك برد. لكن ريمتي وفصلان وفيروز؟ ما تجيبي م الآخر يا هلهولتي. إحكي لماما يا حبيبتي احكي!

- (مدندنةً أغنية عمرو دياب) راح اقول لك إيه ولا إيه ولا إيه؟

- يا حبيبيزني. عمرو دياب؟ لا باقول لك إيه؟. أنا جايالك. محروقة الكلية على الكل كليلة!

- (عمرو دياب من جديد) ياليالي العمر تعالي تعالي..

- هالة.. إقفلي الله يحرقك. ربع ساعة وابقى عندك. علّقي على النسكافيه.

جذلٌ مفاجىء غمر هالة ومنحها أجنحةً تحلّق بها في سماء غرفتها مع طيور النورس المجهدة مؤخرًا.. أدارت (تراك الأوضة المنسيّة) ورقدت على فراشها تستدعي كل كلمةٍ دلل بها أشرف أذنيها منذ التقيا.. احمرار أذنيه خجلًا وبريق عينيه عشقًا.. اختلاجات قلبه الّتي شعرت بها تضخ البهجة في عروقها.. جال بخاطرها أنّها سوف تمسك بيد أحد هذه الأطياف إذا ما تجسد لها لتراقصه التانجو فتثير غيرة أشرف ليتعلّم الرقصة من أجلها!

دقاتٌ على باب غرفتها انتزعتها من خيالاتها الراقصة لتهبّ حانقةً وتستعد لثوانٍ من الحوار الصامت مع أمها التي لم تتبادل معها كلمةً منذ الأمس بعد أن غادرتهما (طنط منال):

- صباح الخير يا حبيبتي. أنا سمعت صوت الكاسيت فعرفت انّك صحيتي قلت اشوفك لو محتاجة حاجة.

هالتها الابتسامة الصافية على وجه أمها. "يا إلهي. كم أشبهها وكم اشتقت تلك الابتسامة":

- ماما؟ وحشتيني..

تبادلت طيور النورس في سماء الغرفة نظرات الدهشةِ والشك! أحقًا ذابت هالة في حضن نهلة؟ أدموع فرحةٍ تلك التي انهمرت من أعينهما؟ ما الذي يحدث في هذا البيت وأي أنوارٍ صارت تغمره؟

واقعةٌ صادمةٌ أخرى ألمّت بغرفة هالة الآن.. جلست نهلة على طرف الفراش وهي تكفكف دموعها بيدٍ، وبالأخرى تمسك بيد ابنتها في حنانٍ اخترّل سنواتٍ من الجفوة غير المبررةِ بينهما:

- انتي بتحبيه يا هالة؟

خجلٌ فطريٌّ تدفق في جسد هالة ليصيبها بما يشبه تنميلًا في أطرافها وعقلها كذلك، فجلست إلى جوار أمها وتمتمت في خفوت:

- مين ده يا ماما؟

بسمةٌ حانيةٌ أنارت وجه نهلة وكلماتها:

- كبرتي يا حبيبتي وما خيّبتيش ظني فيكي.. أنا طول عمري مرعوبة عليكي يا هالة، طول عمرك بعيدة عنّي ومش عارفة حتى انتي بتفكري ف إيه، دايمًا كنت باخاف اسألك عنّك وحاسة انّي لو حضنتك هتبعديني.. بس كان برضه فيه حاجة مطمناني عليكي ومحسساني انّك عمرك ما هتخذليني ولا تعملي حاجة تخوفني عليكي..

قاطعتها هالة بقبلةٍ ملائكيةٍ على وجهها:

- ماما.. إيه اللي بتقوليه ده؟ أنا اللي طول عمري خايفة عليكي ومش قادرة اكلمك عنّي.. أنا حاسة بيكي وباللي انتي عايشاه، عاجزة انّي اعمل لك حاجة وكنت باقول لنفسي مش معقول هتقوليلي على اللي واجع

قلبك لأني بنت صغيّرة ف نظرك.. انتي فاكرة انّي مش فاهمة انتي قد إيه بتعاني؟ أنا ياما سهرت اعيط علشانك وحاسة بدموعك وانتي حابسة نفسك في أوضتك وبابا قاعد مع الغراب اللي بيقعد معاه ده وسايبك لحالك ولا كأنّه عايش معاكي.. سيبك منّي أنا الحمد لله كويسة، أنا أصلًا هاطير من الفرحة دلوقتي انّك بتكلميني وتحضنيني.. ماما.. أحضنيني تاني والنبي.

لم ينتزع هالة من حضن أمها الذي خُلِق من جديدٍ سوى تغريد عصافير جرس باب المنزل.. ريم بالتأكيد..

- حبيبتي دي ريم جاية تقعد معايا شوية، عن إذنك هافتح لها.

كفكفت هالة دموعها ورافقتها بسمةٌ رائقةٌ من عيني أمها المغرورقتين بالدموع حتى الباب لتفتحه بأطراف أصابعها، وكأنّما صارت طيفًا يسري على سحاباتٍ من البهجة.

على الباب صاحت ريم في أداء مسرحي:

- هلهولة في ثوبها الجديد، تعالي ورايا على أوضتك اما اشوف حكايتك إيه!

مرت الفتاتان في طريقهما بباب غرفة أسعد الذي بدا كالحًا مسودًّا في عيني هالة.

* * *

(٣٥)

- إيه ده؟ انتي كمان معيّطة؟ إيه الموريستان ده؟

- ماتفصلينيش تاني بقى، أنا مبسوطة ومش معيطة ولا حاجة، أنا بس حاسة انّ عندي مشاعر كتير دلدقت بس شوية.

- دلدقت؟ الله.. أجمل لفظ شاعري سمعته ف حياتشي!

- طّب أنا هاقوم اعمل نسكافيه لحد ما تخلصي تهريج مع نفسك بقى.

- نسكافيه مين؟ اقعدي دلوقتي النسكافيه يستنى ما هوّاش جرعة اصطباحة يعني، قوليلي بالتفصيل يللا، مالك؟

- عادي يا ريم انتي مستكترة عليا ابقى مبسوطة شويّة؟

- شوية مين يا أمي؟ دانتي مخلصة قرشين حشيش وانتي لسه صاحية تقوليلي شوية؟ أشرف.. مش كده؟

- .....

- يابنتي اتكلمي، أنا ماما مش حد غريب، قولي قولي.

- مامته زارتنا امبارح!

- أبيييوه بقاااااا داحنا جامدين أوي! مامته مرة واحدة؟ بت يا هالة.. الموضوع دخل في الجد ولا إيه؟ الواد باين هيخيّب ظني فيه!

- جد إيه بس يا بنتي؟ دي جت تزورنا عادي، هي أصلها عمرها ما زارتنا قبل كده فبتتعرف بماما يعني، وانا مبسوطة انّ ماما هتبدأ تعمل اجتماعيات وتندمج مع الناس.

- ماما؟. على ماما برضه؟ طب بذمة الدكتور أسعد كده، ماكانتش بتخطبك لأشرف؟

- تخطبني إيه يا عبيطة انتي؟ باقول لك أول مرة تزورنا هتيجي تخطب؟

- وفيها إيه يعني؟ أكيد رمت كلام كده ولا حاجة، مش فجأة يعني حبت مامتك والحسين دعاها فجت تلبي، هتبقي عروسة يا بطّة؟ ياخوتيي!

- ما تتعدلي بقى، باقول لك جت تزورنا وخلاص، لا اتكلمت في حاجة ولا رمت حاجة.

- يبقى هتتكلم، مش مهم احنا مش مستعجلين، أهي حتى فرصة تتعرفوا ببعض شوية.

- انتي مالك واثقة كده؟ أنا لسه متعرفة عليه من مافيش، ما انتي عارفة لا كنا بنتقابل ولا بنزور بعض، أشرف زي أي حد غريب لسه متعرفة عليه.

- لأ فيه! هو انا هاتوه عنّك؟ انتي مش حاسة باللي بيجرالك ولا إيه؟ انتي بقيتي حبّيبة رسمي، ده كفاية ريمتي دي!

- خلاص مش هاقولهالك تاني! كل ده علشان دلّعتك؟

- يا دلعو يا دلعو! ماشي يا ستي دلعيني انا قدامك اهو!

- ماشي ماشي، توّهي كمان، عمالة تستجوبيني انا وانتي أساسًا غرقانة!

- أنا؟ غرقانة ف إيه يا ماما؟ شايفاني باطلع بقاليل من بقي وباقول الناجدااااة؟

- آه النجدة يا باهي. مش كده؟ انتي فاكراني نايمة؟

- باهي؟ ماله باهي؟

- لا ما مالوش. تلاقي مامته بس جت تتعرف على مامتك!

- مامته؟ حرام عليكي يا هالة الولد مامته ميتة.

- يا عيني، بتتكلمي بجد؟ والله صِعِب عليا تلاقيه علشان كده ساكت دايمًا وشكله حزين.

- آه يا حبيبي ده مسكين!

- حبيبي؟ أيوة بقا تعاليلي، مش تقوليلي أشرف، إحكي بقى، إرغي!

- ما تقومي تعملي نسكافيه!

- دلوقتي بقى النسكافيه اصطباحة خلاص؟ ماشي يا ريمتي هاقوم اعمل اتنين نسكافيه وآجي تكوني عقلتي كده وجهزتيلي تقرير مفصّل عن حكايتك!

تاركةً ريم في حالة من الارتباك وعدم الارتياح للسقوط في فخ الإفصاح عن سرها الصغير اختالت هالة في خطواتٍ ناعمة صوب المطبخ، ولكنّ الرنة الجنائزية لهاتفها المحمول استوقفتها.. كان أشرف هذه المرة:

- أشرف..

- هالة.. وحشتيني.

- .....

- ماشي، عارف انّه وانا كمان.. المهم انا سايق بس هاقول لك حاجة بسرعة، عارفة انا جاي منين دلوقتي؟

- إيه..منين؟

- من صيدلية الدكتور أسعد!

رجفةٌ عنيفة كادت تسقط الهاتف من يدها فصاحت:

- بابا؟

- أيوة بابا طبعًا! مالك اتخضيتي كده؟

- انت اتجننت يا أشرف؟ عملت إيه عند بابا؟

- أبدًا.. طلبت إيدك منّه!

دوارٌ مفاجئٌ اكتنفها وانهرت أنفاسها فتوقفت واستندت بيدها الأخرى إلى باب غرفة أبيها الكالح:

- أشرف انت بتقول إيه؟ بابا؟ طلبت إيدي...؟

- أيوة يا هالة أمال رحت له اصرف روشتة؟ باقول لك إيه؟ إحنا مش بنعمل حاجة غلط، أنا باحبك وانتي.. انتي برضه بتحبيني، هاستنى ليه يعني؟ آه احنا مش مستعجلين بس انا مش عريس وحش وكمان انا اتكلمت معاه مبدئيًا بس، انا ماطلبتش منّه رد سريع، بس بصراحة لقيت دي أفضل طريقة اقدر اتحرك بيها وادخل بيتكم كمان.. انتي عارفة انّه كده ممكن اقدر ادخل الأوضة لو جيت وزرته؟ هاطب عليكم في يوم

والبومة اللي اسمه فارس ده عنده ومش معقول يعني يطردني ولا يقعد معايا في الصالون ويسيبه قاعد لوحده جوه.. بذمتك مش فكرة برضه؟ هالة انا قعدت افكر ولقيت انّنا يمكن نكون مبالغين والموضوع يطلع أبسط من كده بكتير.. باباكي ممكن يكون بيخاف بس حد يلعب في حاجة جوه أوضة مكتبه، معظم الناس كده ويمكن يدخلني معاه عادي ونكتشف انّ مافيش حاجة خالص وتطلع أوضة مكتب عادية بيلعبوا فيها طاولة ولا (بلاي ستيشن) حتى!

.....

- هالة.. انتي رحتي فين؟

- سيبني يا أشرف دلوقتي في اللي انا فيه، أنا أساسًا بقالي سنين ما باتكلمش مع بابا كلمتين على بعض، حتى موضوع الكلية اما كان عايزني ادخل صيدلة كانت ماما زي الوسيط بيننا، وتيجي انت تفاجئني انك طلبت إيدي؟ مش عارفة انا دلوقتي رد فعله هيبقى عامل ازاي، ده حتى ما يعرفش انّ طنط جت زارتنا امبارح، هو ما كانش في البيت وماما أكيد ما قالتلوش.. هيفتكر ايه دلوقتي كمان؟ انت قلت له اننا اتقابلنا؟

- لأ طبعًا يا هالة ما قلتلوش، انتي نسيتي انّنا قرايب ولا إيه؟ يا بنتي انا قابلتك أصلًا في بيت جدو تمّام آخر مرة، غريبة يعني انّي اعرف بنت واحد في مقام عمي؟ ماتقلقيش من حاجة وثِقي فيا بس.

جفلت هالة فجأة عندما طرق أذنيها صوت نحنحة مألوف من حلق أبيها بينما يدور مفتاحه في مزلاج الباب:

- اقفل يا أشرف دلوقتي، سلام سلام!

(٣٦)

عادت هالة بخطواتٍ كالوئب إلى غرفتها، وأغلقت الباب خلفها ووجهها ممتقعٌ كالموتى! استبدت الدهشة بريم عندما طالعها فصلٌ جديدٌ من فصول السنة على وجه صديقتها، ما الذي أحال الربيع المنطلق على محيّاها إلى خريفٍ باهتٍ تتساقط أوراقه منها فزعًا؟

- مالك يا مجنونة انتي؟ لقيتي فار في المطبخ ولا إيه؟

- اسكتي خالص دلوقتي يا ريم مش ناقصاكي، أقول لك؟ خدي شنطتك وامشي!

- نعم؟ انتي بتطرديني عادي كده؟ انتي أكيد لابسك عفريت النهارده.

- ريم أبوس إيدك امشي بس دلوقتي، مش عارفة الجو في البيت هيبقى عامل ازاي كمان شوية، يللا بس وانا هاتصل بيكي أول ما اقدر.

غزت الجدية ملامح ريم التي استشعرت أنّ شجارًا ما سينشب في المنزل، فبدا عليها الاقتناع والتقطت حقيبة يدها الضخمة واتجهت صوب باب الغرفة في استسلام، وقبل أن تبلغ الباب طرقت مسامعهما دقاتٍ وئيدةٍ خلعت قلب هالة المرتجف فتمتمت في جزع:

- المجنون أشرف هيبوظ كل حاجة...Shit !

من خلف باب الغرفة جاء صوت أبيها أجشًا عميقًا:

- إفتحي يا هالة.. عايزك!

لم يعُد من الممكن تأجيل المواجهة، ففتحت هالة الباب بأصابع مرتجفة والتصقت بريم كأنّما تلتمس منها الحماية:

- أيوة يا بابا اتفضل، ريم بس كانت قاعدة معايا شوية.

- أهلًا يا ريم.. طيب يا هالة اما تخلصوا قعدتكم ابقي حصليني على أوضة المكتب!

استدار أسعد في اتجاه غرفته ببساطة تاركًا هالة في حالةٍ يرثى لها من وقع المفاجآت المتتالية التي انهالت عليها كضربات المطرقة دون فرصةٍ لالتقاط الأنفاس! بهذه البساطة يدعوها إلى محرابه المقدس؟ ما الذي يجري من حولها؟ تبدو وكأنّها فتاةٌ أخرى تحيا حياةً موازيةً تتحطّمُ فيها الثوابت وتسقطُ الأصنام تباعًا، أطيافها المرعبةُ تهاوى في عينيها.. حضنُ أمها يصير دافئًا بعد موات.. حبيبها ينبِهُها في بساطة الدعوة لزمةٍ عابرةٍ بأنّه قد طلب يدها.. ثم يفتح العرين المطلسم بابه لها دون قيدٍ أو شرط؟ كل تلك المستحيلات تتحقق في ساعةٍ من نهار؟

- اسنديني يا ريم!

- مالك يا هالة؟ هالة .. هالاااااة، يا طاااااانط!

على فراشها الدافئ أفاقت هالة وكل عضلةٍ في جسدها تئن كأنّما أنهت لتوّها سباق مئة متر عدوًا استنزف طاقاتها جميعًا.. الوجوه الملتاعةُ تظهرُ حولها شيئًا فشيئًا فتخرج كلماتها ضعيفةً حتميةً كأي مستفيقٍ من إغماءته:

- أنا فين؟

انطلقت نهلة تلثم يد هالة ووجنتيها وجبينها وشعرها في حنانٍ أدهش أسعد وريم وهي تهتف:

- حمد الله على سلامتك يا حبيبتي الحمد لله الحمد لله.

أخذت دائرة الضوء تتّسع أمام ناظري هالة حتى اكتملت استفاقتها، وبدأت تتذكر ما حدث قبل أن تغيب عن الوعي.. الغرفة.. كانت هناك في بؤرة ذاكرتها يتصدرها بابها الكئيب الموصد كأظهر ما يكون، وحولها خيالات باهتة لباقي شخصيات عالمها الخاص، كانت دعوة أبيها التلقائية الصادمة لدخولها عالم الغرفة قشةً قاصمةً لتوازن جهازها العصبي الذي لم يحتمل مزيدًا من المفاجآت ليومٍ واحد..

- حمد الله على سلامتك يا بنتي رعبتينا عليكي، انتي ما فطرتيش ولا إيه؟

طرق صوت ريم الحاد وعي هالة فاكتمل، رفعت ناظريها بضعفٍ وتمتمت:

- الله يسلّمك يا ريم خضيتك بقى معلش.

- يا بنتي خضيتيني إيه بس؟ المهم اتطمنا عليكي، يللا انا هاسيبك ترتاحي بقى وامشي انا ولو عاوزاني في أي وقت أجي اسليكي واعمل لك أراجوز رني لي، هاستأذن انا بقى يا طنط، سلامُ عليكم يا عمو.

رافقتها نهلة إلى باب الغرفة:

- ألف سلامة يا ريم متشكرة يا حبيبتي.

كانت عينا أسعد مغرورقتين بدموعٍ حبيسة.. كان يرمق هالة في حنانٍ لم يعرف قبلًا أنّه يملكُه.. ربما جاءت صدمة أشرف بطلب يدها بمثابة إفاقة له، ذكّرته بأنّه لم يغنم من تلك الحياة سوى ابنةٌ واحدةٌ ثم نضب معينه ومعين زوجته، لماذا أهدر أحلى أيام حياته وحياة ابنته في عزلةٍ

عنها؟ لماذا استسلم لذلك الشعور الشاذ بالنفور منها؟ لا ذنب لها في احتلال مكان الولد الذي لم يُقدّر له أن يولد.. يراقبها الآن جميلةً كالحياة ذاتها في أبهى صورها فيشعر أنها وُلِدَت لتوّها، وأنّه لم يرقها تُزهِرُ طفلةً فمراهقةً فشابةً متفتّحةً تخجل الأزهار ذاتها من طلّتها الساحرة.. ربّما الآن فقط بدأ عقله يمعن التفكير فيما رغبه أشرف من خطبةٍ مبكرة. لم يكُن ليتردد هو ذاته -إن حل محله- أن يستميت للظفر بملاكٍ كتلك الراقدة على فراشها (سنو وايت) عصريةً يعصف حُسنُها بألباب الأمراء.

- معلش يا بابا قلقتكم عليا، بس دخت فجأة مش عارفة ليه.

حاولت هالة بعد أن صفا ذهنها أن تكسر جليدًا محتملًا بينها وبين أبيها قد يكون طلب أشرف المنهور قد تسبب فيه، ربما جاءت إغماءتها كنجدةٍ من السماء لتؤجل مواجهةً غير محمودة العواقب بينهما، وربما أيضًا لم تكن هالة ذاتها مهيأةً بعد لولوج الغرفة المهيبة.. لم يقبل عقلها أبسط الحلول وهو الذي مرَّ بخاطر أشرف نفسه أثناء محادثتهما الهاتفية الأخيرة.. قد لا تكون الغرفة سوى وكر مزاجٍ بريء خاص بأبيها وصديقه غريب الأطوار، ربما حتى كانت تحوي بعض الممنوعات البسيطة التي يتعاطاها كثيرٌ من الناس استجابةً لضعفٍ بشريّ، هناك ألف سبب قد يبرر أحدهم لماذا حرص أبوها دائمًا على عدم ولوج أحد من أهل البيت تلك الغرفة بالذات.. ربما قد ظلمتهُ وحمّلته ذنبَ ما تمرُّ بهِ من معاناةٍ لم تفكر يومًا في الاستعانة به في مواجهتها.. أحست بثقلٍ رهيبٍ يجثم فوق صدرها من فرط التشتت وعدم اليقين، لا أصعب من أن تحمل شكوكًا في أقرب الناس إليك ولا تملك سوى تنويعاتٍ وتنويعاتٍ على كلمة (ربّما)!

- ألف سلامة عليكي يا هالة، إحنا فعلًا اتفزعنا، ما كناش حاسين انتي غالية عندنا قد إيه لحد ما شفناكي قصادنا واقعة ما بتنطقيش.. الحمد لله عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم.

تنامت الشكوك في صدر هالة بعد تلك الكلمات الحانية الورِعة من أسعد، هي لم تتصور من الأساس أن يستشهد أبوها بآياتٍ من القرآن.. لم تره يصلّي من قبل وتعلم جيدًا أنّ أمور الدين لا تشغل حيزًا من عقله وقناعاته، هي على كل حالٍ ابنته وتعلم عنه ما قد تعلمه أي ابنة عن أبيها وإن كانا لا يتبادلان الحديث تقريبًا. ماذا يحل بهذا البيت؟ يبدو الأمر وكأنّه مشهدٌ متقدّمٌ في (فيلم سينمائي) عن بيتٍ تسكنه روحٌ شريرة، فإذا بأشرف وأمه يقتحمون المشهد كطاردي الأشباح ويطهرونه وسكانه من دنسها.. منذ اجتاز أشرف أبواب عالمها وكل شيءٍ في تحسُّنٍ غير عادي.. الغرفةُ يا أشرف قد صارت هدفًا سهلًا، هل تحس بكلماتي؟ أبي ذاته دعاني اليوم إليها دون تحفظات وقد يفعلها ثانيةً حين أنهض من رقدتي.. أحتاجك الآن يا حبيبي.. أحتاجك بجانبي هواءً أتنفسه، لا أريدك بجانبي بل أريدك في قلبي.. أحتاجك دمًا يجتاح عروقي فيطهّرها من الشكوك والمخاوف والآلام.. نبضًا تسير عليه خطواتي كإيقاع التانجو الراقص فلا أتيهُ ثانيةً أبدًا.. صوتًا يترنمُ في كياني فتطربُ لهُ كل ذَرّة فيهِ وأصم أذنيّ بعده عن كل صوتٍ سواه.. لا تفارقني يا حبيبي لحظةً بعد الآن.. كُن معي ولو طيفًا يمرُّ بخيالي فيلوّن الموجودات من حولي بوهجٍ دافيءٍ لشمسٍ توشك على الإشراق..

مرّت كل تلك الأحاسيس بقلب هالة في لحظاتٍ معدودةٍ كسريان حلمٍ أفاقت منه على صوت نحنحة من حلق أبيها بعد أن نطق بكلماته الودود، فرمقته في تركيزٍ وهي تستجمع قواها ثم خرجت كلماتها خافتة:

- بابا.. أنا باحبك أوي.

* * *

علال وفارس

(٣٧)

أرض الأسلاف من جديد.

دون أن يُبلِغ عبد الحميد الناغي والد زهرته الراحلة، اصطحب علال ولده فارس إلى بلاده مرتحلًا عن تلك الحياة التي لم تعُد تعنيه في شيء، لن يربط ولده بتلك البلاد شيءٌ كذلك في القريب المنظور، اتخذ قراره مطمئنًا له.. تلك البلاد لفظت قديمًا تاريخ قومه وأمجادهم ثم هي الآن تسلب منه حياته الجديدة.. لا يشعر بذات الحماس المتدفق الذي كان ينساب في عروقه عندما يذكر الأجداد وأمجادهم، يبدو أنّه لا مناص من أن يعود إلى ماضيه لتتجدد دماء الأسلاف في عروقه.. حياته الحقيقية التي يجب أن يتشربها ولده ليصير تطوانيًّا ناجحًا، ولا يلقى مصير والده المتخاذل الذي ارتكن إلى حياة الدعة والرغد في كنف لوتس. رحلت لوتس ولم يبقَ إلا كل ما يذكِّره بها.. هو أضعف من أن يتجرع مرارة فقدها كل لحظة، فليرتمي إذن في أحضان الريف المغربي من جديد.

لا يدري كيف ستسير به الحياةُ بعد أن قطَع بيديه أواصر ما يربطه بالحياة هنا، ولكنه اكتسب كثيرًا من الخبرات في سنوات إقامته بمصر.. يمكنه حتى أن يحترف تدريس اللغة الفرنسية إلى جانب ما يعتزم أن يفعل من استئناف ما كان يبحث فيه من قبل.. هناك كذلك أرض أبيه، ما زال يأمل خيرًا في أعمامه ولا يظن أنهم سيحولون بينه وبين ميراثه حتى

بعد أن أهمل الأرض وهجرها كل تلك السنوات.. ليس الآن وقت التفكير فيما سيفعل، مازال مشتّتًا خاوي البال مسترخي الأفكار بعد ما كابد إثر الفقد والأحزان.

- هو احنا هنقعد هنا كتير يا بابا؟

نظر بخواءٍ إلى ولده وتمتم في شرود باللهجة المغربية:

- ماعرفتش آ فارس خلينا نشوفو الأيام شنو غدي تعمل.

لم يكن الصغير يدري أبعاد الموقف، كما لم يدرك منذ البداية أنّه قد حُرِم إلى الأبد من أمه ولكنّه لم يكن يدري بعدُ أنّه سيفقد الصلةُ بمدرسته وأصدقائه بل وجَدِّه الحبيب.. عندما كان يسأل لوتس عن جدته أبيجيل كانت تشرُدُ وتخبره في حنانٍ أنّها بمكانٍ أفضلَ كثيرًا من دنيانا وأنّنا سعداء لأنها سعيدة.. استقرت تلك الكلمات في عقله ورسخت، حتى إنّه أخبر والده بوجهٍ بشوشٍ طلقٍ أمام جسد لوتس المسجى في سلامٍ أنّه سعيدٌ من أجل أمه لأنها ذاهبةٌ إلى الجدة أبيجيل في مكانٍ أفضل كثيرًا من دنيانا! أجهش حينها علال ببكاءٍ مريرٍ واحتضنهُ في عنفٍ تأذّى منه الصغير وأنت منهُ ضلوعُه.

ولكن السور(Soeur) كاترين مازالت هناك وهو يفتقدها كثيرًا الآن. هي الوحيدة التي كانت قادرة على استيعابه وإطفاء جذوة ثورته عندما تنتابه لحظات العدوانية تجاه الجميع.. شيءٌ ما في عينيها كان يشبه لوتس.. ذات النظرات الحانية التي لا تغضب مما يفعل، وذات الزرقة الصافية التي يبحر فيها بلا خوف.. سأل والده في براءة:

- هو ما ينفعش يا بابا نرجع و(السور) كاترين تعيش معانا؟ هي لسه موجودة وما راحتش عند ماما ونينة أبيجيل، مش ممكن تعيش معانا بدل ماما؟

دموعٌ قريبةٌ سالت على وجنتي علال فحمل ابنه وضمه إليه بعنفٍ كيوم الفقد.. راودت فارس الشكوك حينها أنّ (السور) كاترين قد رحلت هي الأخرى، ولكنّه لم يشعر بالسعادة من أجلها تلك المرة.. لِمَ يرحلن جميعًا إلى تلك الحياةَ الأفضلِ ويتركنه وحيدًا؟ راوده اشتياقٌ كذلك إلى تلك الأرض التي يسكنها وودّ لو لحق بهنّ الآن.

"رفقًا بي وبولدي يا بلادي.." جال بخاطر علال في رجاء.

في تلك المرة لم يقفِل علال إلى جبال تافوغالت كسابقها بل اتجه من فوره إلى بلدته في ضواحي تطوان ليستقر بعضًا من الوقت ويعيد ترتيب أولوياته، لم تكن تكليفات الأسلاف قد توقفت وكان يعلم جيدًا أنّه يعدّ فارس لمهمته المرصودة.. سيكون في خدمة من منحوه فرصة الحياة عند مولده المتعسر كما أُمِر علال، سيلقنه فنون السحر كلما أتاه الوحي حُلمًا.. راودته أفكارٌ سوداء لم يجرؤ على الخوض فيها ولو بعقله كثيرًا.. أكان هذا هو السبب الحقيقي لرحيل لوتس المفاجيء؟ كان يعلمُ أنّ عليه أن يرحل يومًا إلى بلاده عندما تتم المهمة ومعه لوتس وفارس أو على الأقل فارس.. لوتس لم تكُن لتقبل أن تترك أرضها التي نبتت منها، ولم تكُن لتترك أباها وحده يكابد الوحدة بعد رحيل حبيبة عمره أبيجيل وسفر ابنه الأصغر عبد الكريم إلى إنجلترا لاستكمال دراسته.. فهل سلبوها الحياة كما منحوها لفارس يومًا؟ ما هذه النار التي ألقى بنفسه ومن يحب في أتونها الشرير؟ ليته ترك الأمر لأقدارٍ تمنحُ أو تمنع، لربما

نجا الصغير دون أن يلجأ لذلك السحر المأفون، ولربما لم ينجُ فكانت مركب الحياة لتمضي بالحبيبين وقد يمنحهما الله ما يُقِرّ أعينهما في أوانٍ آخر.. ولكن ماحدث قد حدث، وهو لا يقوى على أن يتحدى تلك الإرادة الكاسحة الآن بعد أن صار فارس روحه التي حلت في جسدٍ صغير.. سيمضي في طريقهما المحتوم وليكُن ما يكون، ولَسوف يسامحه فارس يومًا عندما يصير أبًا ويعرف أنّ الروح ذاتها قد تهون إذا ما صارت ثمنًا لبقاء فلذة كبده.

الترحابُ والدهشةُ كانا عنوانًا للقاء علال بعشيرته بعد ان غاب سنين فتناساه الجميع، حتى ظهر فجأةً وبيده طفلٌ بهي الطلعة. تلقته عماته بالأحضان والدموع، وتناثرت الذكريات في مجالسه مع الأعمام والأخوال وأبنائهم تستمطر الرحمات على والديه. مازال علال شابًا كذلك وسوف تتنافس العمات لاستقطابه زوجًا لإحدى بناتهن بالتأكيد، رجلٌ يافعٌ من نسل العائلة سيحتاج بلا شك لمن تُعنى بوحيده، مازال أيضًا يحتل في أنظارهن صورة الشاب الذي تفاخرُ به العائلةُ في الجوار بعد أن نشأ وحيدًا بلا أبٍ قضت زوجته حزنًا عليه فضاعفت محنة الصغير، فلم يجزع وشق طريقه في الحياةِ في كنف الأعمام والعمات بعقلٍ راجح، وأصر بمساعدة إرث والده على أن يصير شابا تام التعليم لا تصرعه الحياة مهما نزلت به نوازلها.

ظل منزله مغلقًا في انتظارِه، وظلّت صورة والده الضخمة تحتل مكانها في صالة الدار الفسيحة.

- ده جدك اللي حملت اسمه يا فارس.

- جدي؟ شكله بيخوّف يا بابا!

- ما تقولش كده تاني يا فارس. جدك أبويا زي ما أنا ابوك، انت ممكن تخاف منّي في يوم؟

- لا يابابا.. هاحبه خلاص.

كان علال كذلك ابنًا وحيدًا لفارس التطواني، البطل الريفي الذي التحق بركب زعيم المقاومة المغربية عبد الكريم الخطابي في مواجهة الاحتلال الفرنسي فاستشهد شابًا يافعًا، ولم يخلف وراءه سوى أرضٍ زراعيةٍ وابنٍ وحيدٍ.. ما ظلم من شابه أباه، ففي أعماق علال كان يعلم أنّه لن يُنجب بعد فارس، فهو لن يبتغي غير لوتس وذكراها أنيسًا لما سوف ينتظره يومًا من وحدةٍ مهما تداعت عليه العمات.

* * *

(٣٨)

في طريقه إلى منزل طارق كان عقل علال يعمل بلا كلل، كان يعلم أنّ ذلك الفتى الأمازيغي الذي رافقه دليلًا في رحلة صعوده إلى قمة تافوغالت قد أنكر معرفته به قبلًا بعد هبوطه من الجبل، ولكنه قرر أن يجتهد ليذكّره بما جرى حتى يرافقه مرةً أخرى إلى ذات النقطة. كان بحاجةٍ ماسةٍ لأن يتيقن من أنّ العجوز لم تعُد هناك، فربما كان كل ما مَرَّ به مسٌّ شيطانيٌّ ما، راودته تلك الفكرة رغم ما هبط به من الجبل من دمى ومخطوطاتٍ مطلسمةٍ داخل الكيس الخيشي، كان عقله مشتعلًا بالاحتمالات منذ أن استقر به الحال في بلدته وبدأ فارس يألف الحياة نوعًا.. كان يبحث عن أي طرف خيطٍ يمكنه من الإفلات من تلك التكليفات، ويحفظ على ولده حياةً هادئةً بلا كياناتٍ ماورائيةٍ تطارده.

لم يجد منزل طارق! هو يذكر المكان جيدًا ويذكر الحوانيت القريبة من منزل طارق، ولكنّه ببساطة لم يتمكن من الاستدلال على الدار. توجه إلى تلك الحوانيت التي أرشده أحد مالكيها يومًا إلى دليله الأمازيغي، فلم يتعرف أحدهم على من يبحث عنه.

ماهذا السخف؟ أكان يهذي عندما صحب طارق إلى داره وتناول معه الطعام؟ أكان وحيدًا عندما صعد ذلك الجبل المهيب، وهل كان يتحدث إلى نفسه عندما تبادل حديثًا مقتضبًا مع الدليل الصامت؟ كاد يصاب بالدوار من فرط الجنون الذي يواجهه.. للهلوسات العقلية حدودٌ هو يتخطّاها الآن، يذكر جيدًا كل مليمتر من وجه طارق الأسمر حتى إنّه

يستطيع أن يرسم ذلك الوجه بدقة كاملة.. هل تكفي تلك السنوات المعدودات لأن يرحل طارق عن أبركان وينساه الجميع كرجلٍ لم يوجد من الأساس؟ وإذا اختفى هو فكيف تختفي داره؟ كان على يقينٍ من أنّ تلك البقعة بالذات هي دار طارق، المسجد المواجه لها ذو المئذنة الزرقاء ما زال قائمًا، والبيوت المجاورة مازالت على حالها، فأين ذهبت الدار؟ جنونٌ مطبق! مكان الدار ذاته هو نهر الطريق الذي كانت تطل عليه، فكيف اختفت وصار موقعها هو الطريق ذاته؟ أما من نهايةٍ لهذا الجنون؟

تحت تأثير السخط الذي انتابه من الاختفاء العجيب لكل ما يتعلق بطارق قرّر أن يصعد الجبل وحيدًا وليكن ما يكون.. قد هبط من الجبل يومًا دون دليلٍ وكأنه ذاته دليلٌ محترف فلِمَ لا يفعلها الآن؟

كان قد عهد بفارس لرعاية عماته حتى يعود من رحلته الشاقة، وكان هذا ما منحه كثيرًا من الاطمئنان. لا يشعر بقلقٍ يذكر على فارس..بل إنّه أكثر اطمئنانًا عليه الآن، حتى أنّ خاطرًا رهيبًا ما راوده فلم يزعجه كثيرًا.. ماذا لو ابتلعته متاهات الجبل فلم يعُد إلى تطوان؟ ألن يكون ذلك أفضلَ كثيرًا لفارس؟ ربما فارقته اللعنة إذا ما رحل حاملها وراءها إلى الأبد.. ماذا ينتظر هو نفسه من الحياة أكثر مما سُلِب منه؟ لن تعود لوتس ولن يشب فارس أمام عينيه فتًى طبيعيًّا يُقِرُّ عينه طالما بقي هو عاجزًا عن مواجهة ما جلبه عليهما من لعنة.. "ليتك تبتلعني يا تافوغالت فأصير طيفًا يجوب أنحاءك ويحيا فارس حرًّا لا يناله أذاي.." حدث علال نفسه.

تمكّنت الفكرة من علال في السويعات التي قضاها على أحد مقاهي البلدة ليستجمع شتات نفسه، وراوده طيف لوتس وما ذكره فارس عن الأرض الأفضل التي تحيا فيها برفقة والدتها أبيجيل، فألحّت عليه الرغبة في أن يلحق بها هناك. لم يحاول البحث عن دليلٍ آخر وأجمع أمره ثم انطلق إلى مصيرٍ لا يعلم عنه شيئًا.

في دار العمّة مهيرة حاول فارس أن يتأقلم على وضعه وحيدًا دون أمه ولا أبيه للمرة الأولى منذ وُلِدَ . لم يكن يتبادل الحديث مع عماته وأبنائهن إلا بردودٍ مقتضبة، ولم يكن يفهم من الأساس كثيرًا مما يسمع، كانت اللهجة شديدة الغرابة والسرعة على أذنيه مما زاد من حالة الغربة المباغتة التي يحياها.. مرّ أسبوعٌ كامل ولم يعُد علال، مما أثار قلق الجميع وفزع فارس.. كان الرجل قد قدّر عودته في غضون بضعة أيامٍ ولم يبلغ أحدًا بوجهته الحقيقية، وعندما طالت غيبته لأسبوعين ثارت مخاوف الجميع من تكرار مافعله قبلًا عندما رحل دون أن يُبلغ أحدًا، ليعود بعد سنواتٍ طوالٍ وبصحبته فارس.. ماذا يفعلون إذا ما لم يعُد علال؟ هل تُعيد الأيام دورتها فيرحل الأب وينشأ الابن في كنف العائلة؟

ازداد فارس سقوطًا في دوامةٍ من الاكتئاب الطفولي، فبدا عليه الهزال وتعدّدت نوبات بكائه وعدوانيته، وأحجم تقريبًا عن الطعام وعن الحديث إلى أيٍّ ممّن حوله.. لم يعُد يرغب في أن يذهب أحباؤه إلى تلك الدنيا التي هي أفضل من دنياه.. من سيبقى جواره إذا ذهب أبوه لرفقة لوتس والجدة أبيجيل و(السور) كاترين؟ لا يبتغي البقاء وسط هؤلاء القوم الذين يضحكون ويتبسّمون في وجهه ثم ينطقون كلماتٍ مبهمةً لا يفهمها. لم يعُد يتبادل معهم تقريبًا سوى ذات الكلمات: "عايز اروح عند

بابا وماما". وتعددت ردودهم الباسمة التي لم يفهم من أغلبها شيئًا. مرت أيامٌ ثقيلةٌ على الجميع وقاتلةٌ لطفولة فارس حتى بدأ الأمل في عودة علال يخفت في نفوسهم.. توجه عمٌ له إلى مقر عمله القديم علّه يجد هدًى فلم يهتدِ لشيء.. يذبل فارس أمام أعينهم فلا يملكون له شيئًا سوى مزيدٍ من حنان العمات ومحاولات الأعمام وأبنائهم لإدماجه في حياتهم المستقرة. والصبي على حاله من الهُزال والوجوم.. مرّ شهران على تلك الحال حتى أيقن الجميع فيما بينهم أنّ علال لن يعود.. يبدو وكأنّه قرر التخلص من فارس فعاد ليعهد به إلى العائلة، ثم يرحل ليبدأ حياةً جديدةً في مكانٍ لا يعرفه أحد.. ربما لم يكُن فارس ابنه من الأساس، من يعلم؟ فكيف يترك أبٌ طفله يتيم الأم لكل تلك الفترة بعيدًا عن ناظريه وقلبه؟ احتمالٌ آخر جال بخواطرهم.. ربما توفي علال أيضًا في أرضٍ غريبة ولم يستدلّ أحدٌ على أهليته، فابتلعه تراب تلك الأرض وفقده فارس حتى يلقاه يوم يعود الناس إلى بارئهم.. يا لتصاريف القدر.. يبدو أنّ نسل فارس التطواني الكبير قد كُتِب عليهم أن يشبّوا أيتامًا غرباء وكأنّما تعيد الحياة دورتها.

* * *

(٣٩)

هل تكرّر الحياة دورتها بالفعل؟ فكما نشأ علال غريبًا في داره نشأ فارس، ندوبٌ عميقةٌ في روحه نثرت الكثير من الأشواك في طريق طفولته وصباه. فليس أقسى على طفلٍ مدلّلٍ كفارس من أن ينشأ بلا جذور، وكأمرٍ واقعٍ فقد اعتاد الحياة في بلدة أبيه، ولكنّ إدراكه المبكّر لمعنى الفقد منذ رحلت لوتس وتبعها علال حال بينه وبين التعلق بأيِّ ممّن نشأ في كنفهم، ظل يخشى شعور الفقد الحتمي إن هو أحبَّ أحدًا؛ فصار منطويًا كئيبًا حتى استحالت العلاقة بينه وبين العائلة إلى علاقة منفعةٍ واضطرار.. لا يستطيع الحياة دونهم ولا يمكنهم أن يتخلّوا عنه لهيم مشردًا في الطرقات.

لم يكمل فارس تعليمه، فقد اكتفى بالمراحل المبكرة من التعلّم حتى تمكن من القراءة والكتابة، ثم فضّل العمل في الزراعة كبعضٍ من أبناء عمومته، كان يصبو إلى أن يحقق استقلاليةً مبكرةً أرادها، كما كان يرغب في مباشرة أرض أبيه التي ورثها عن فارس التطواني الجد، والتي ظل أعمام أبيه يزرعونها ثم يستقطعون من ريعها ما تم إنفاقه من تكاليف وما ارتضوه من أجورٍ لقاء زراعتها، ثم يحفظون باقي أثمان محاصيلها لعلال حتى يعود.. الآن بعد أن بلغ فارس الخامسة عشرة من عمره قرر أن يعمل فمها بيديه تحت إشراف الأعمام حتى يبلغ أشدّه ويتمكن من الاستقلال الكامل بحياته.. ظلّت ذكرى منزله وجدّه في مصر تلحُّ عليه، ولكنّه لم يكُن يرغب في محاولة العودة، لن يحاول العودة

ليجد جدّه قد لحق بالراحلين أو ليتعلق به بعض الوقت ثم يتركهُ وحيدًا كعادة كل من أحبَّهم. استسلم لحياته الرتيبة واشتدّ عوده شيئًا فشيئًا حتى صار شابًّا يافعًا، وبدأت نساء العائلة تنسجن شباكهن حوله لتظفر به إحداهنّ زوجًا لإحدى بناتها، ولكنّ فارس لم يكُن سهل الانقياد.

ظلّ يراوغ ممسكًا العصا من المنتصف، يُلمحُ أحيانًا لرغبته في الزواج المبكر حتى يبدأ في تكوين أسرةٍ تُعينه مستقبلًا على أعباء العمل وتملأ عليه فراغ حياته، وأحيانًا أخرى يصرح بارتياحه الشديد لحياة الوحدة والفراغ من المسؤوليات غير عالمٍ بما تخبئه له الأقدار، حتى جاء ذلك اليوم عندما كان جالسًا في حقله يتأمّل أشجار الزيتون ويشرب الأتاي (الشاي المعدّ على الطريقة المغربية)، بينما يترنم بصوتٍ خفيضٍ بتلك الأغنية الشعبية:

أه يَا الصِّينِيَّة

أيَا نْدَامْتِي وْلِيعَة بْرَّادِي
فِينْ غَادِي يْتْشْحَّرْ ؟

أيَا نْدَامْتِي وْجِيرَةْ بْرَادِي
جَانِيبِنْ جُوجْ مْجَامْرْ

مْجْمرْ عَامَرْ بِالْفَاخَرْ

وْمْجْمرْ بِاللَّظَى

الْهَاجَرْ فَاخَرْ صَارْ رْمَادُه

لْفْلِي الْمْحْرُوقْ بْ لْبَعَادْ . . .

اشْنُه ذَنْبْ الْبْرَّادْ

أه يَا الصِّينِيَّة . .

وبينما هو منهمك في أغنيته طرق مسامعه صوت عميق يلقي عليه التحية:

-السلام عليكم.

رفع فارس بصره في بطءٍ ليجد أمامه شابًّا أسمر فارع الطول تبدو الهيبة على سيمائه رغم العَوَز، ويبدو عليه وقارٌ لا يتناسب وسنَّه حتى إنّ مرآه أوحى لفارس بأنّه يمثُل أمام أحد الأولياء التاريخيين! هو لا يدري كذلك أين طالع وجه ذلك الولي قبلًا.

هكذا ظهر طارق للمرة الثانية في حياة أسرة التطواني، ولم يعلم فارس حينها أنّ أباه كان يسعى للقاء ذلك الفارع عندما تركه وحيدًا منذ ما يربو على عشر سنواتٍ غاب فيها دون أثر.

مع أقداح الأتاي الساخنة كان فارس يستمع مشدوهًا لقصةٍ أغرب مما يمكن أن يمر بخاطره، قصَّ عليه طارق كيف أنقذه أبوه علال عند مولده، فأصبح رهين سداد الدين لأرواح الأسلاف الذين أنقذ سحرهم وليده من الهلاك ذلك اليوم، قصَّ عليه ما مرَّ به في طفولته من أحداثٍ يذكر فارس أطرافًا منها، أخبره حتى ما خفي عنه مما حدث في الغيب الخفي، فقص عليه أنّ جده عبد الحميد الناغي مازال على قيد الحياة، وأنّ خاله عبد الكريم قد قطع رحلته الدراسية وعاد من إنجلترا بعد أن أصابت أباه حالةٌ من الاكتئاب الحادّ إثر سفر علال المفاجيء مصطحبًا

فارس آخر من تبقّى لعبد الحميد من عبير لوتس. فهُرع الخال الحنون ليبقى بجوار أبيه مضحيًا بعامه الدراسي.

ظلّ طارق يقص على فارس تفاصيلَ وتفاصيل حتى وصل إلى ما جعل فارس كالرِشدة في مهب الريح من فرط الدوار المفاجيء.. لم يأتِ طارق من تلقاء نفسه، ولم يأتِ بتكليفٍ من العالم الخفي.. بل جاء بتكليفٍ مباشرٍ من علال ذاته!

ظل فارس كالمشدوه للحظاتٍ حتى استجمع شتات نفسه وتناول رشفةً من الأتاي ليخفف من جفاف حلقه.. نظر نظرة تشككٍ جارفٍ إلى طارق. ماذا يعني بأنّ علال قد أرسله؟ أبوه على قيد الحياة؟ أي وغدٍ قد يكونه إذا ما اتضح أنّه حيٌّ يُرزق، وقد ترك ابنه الوحيد يكابد الوحدة ومرارة اليُتم طيلة هذه السنوات؟ لم يشعُر بذرّةٍ من السعادة لذلك البصيص من الأمل الذي بثّته كلمات طارق في وجود أبيه حيًّا.

ظل طارق صامتًا يتأمل فارس بملامح جامدة بينما تشتعل رأس الأخير بالأفكار.. كان الانتقام من ذلك الأب غير المستحق للأبوة هو ما يدور في باله الآن.. لم يحلُم بأن يرتمي في أحضانه باكيًا، بل تخيل نفسه وهو يوسعه ضربًا وركلًا بل ربما نازعته نفسه إلى أن يقتله.. ألم يكن ميتًا في نظره طيلة تلك السنوات الكئيبة؟ فليمُت بالفعل ولن يخسر فارس حينها أكثر مما خسِر.

وكأنّما يقرأ طارق أفكاره قال فجأة:

- باك ولى خادم ديال الجبل! (لقد صار أبوك خادمًا للجبل).

- خدّام ديال الجبل كيفاش ؟ (ماذا تعني بخادم الجبل؟).

- يعني ولى مكلف من أرواح القدام باش يحمي الجبل ويعطي المهمة للي اختاروهم.

(أعني أنّ أباك أصبح مكلفًا من أرواح الأسلاف أن يحمي الجبل وينقل للمختارين تكليفاتهم).

- شْمْن مهمّات؟ وشكون هما هادو اللي ختاروهم؟ نا ما فاهم والو! (ما هذه التكليفات ومن يكون هؤلاء المختارين؟ أنا لا أفهم أي شيء).

- غادي تفهم وانت تما! (ستفهم هناك في الجبل).

- فين تما ؟ (هناك؟ أين؟).

- نت غادي تمشي معايا لتافوغالت وتلاقا مع باباك وتما غادي يفهمك كلشي. (سوف تصاحبني لجبل تافوغالت وسيشرح لك أبوك كل شيء هناك).

لم يُبدِ فارس أي اعتراضات على ما قاله طارق.. الفضول الجامح لمعرفة ما يجري وكذا مغزى ذلك اللقب العجيب (خادم الجبل) كان أقوى من أن يقاومه، وخلال ساعاتٍ كان فارس قد حزم حقيبته وانطلق برفقة طارق إلى تافوغالت ليلتقي أباه خادم الجبل.

* * *

باهي

(٤٠)

- لذيذ أوي (البرجر) ده يا باهي.

من فمٍ ممتلىءٍ بالطعام خرجت كلمات ريم مفخّمة فنظر باهي لها في هيامٍ لا يتّفق مع الموقف:

- بالهنا والشفا. لو اعرف انّه هيعجبك كنت جبت لك منه كل يوم وانا جاي.

رمقته بخبث:

- أفهم من كده انّك مش عايزني اعمل (دايت)؟

اتسعت عيناه في استنكار:

- (دايت)؟ انتي أصلًا في نظري (موديل) وباحبك زي ما انتي. أنا أصلًا مش عايزك تعملي حاجة زي دي أبدًا وشايف (الدايت) ده لو قلّل منك حاجة هيبقى زي العمر اللي بيعدي وياخد من حياتنا أيام حلوة.

في رضًا هزت ريم رأسها وقضمت من (ساندوتش البرجر):

- بجد انتَ لقطة! بس تفتكر انّك ممكن تجيبلي (برجر) على الفطار كل يوم عادي كده؟ أنا ممكن ما اعملش (دايت) أه لكن مش عايزة يطلع لي زلّومة!

بدا الأسى على وجه باهي الحالم:

- ريم انا ما باحبكيش تقولي حاجات زي دي عن نفسك. انتي بقيتي غالية عندي لدرجة مانتخيلهاش، وماباحبش حتى إنك انتي تقولي أي كلمة تقلّل من قيمتك.

في دهشة حقيقية صاحت ريم:

- باهي انت بجد ولا عفريت؟

ارتباك غريب بدا على باهي عندما ورد ذكر (العفاريت) فقطّب جبينه واستأذن لدخول الحمّام.

لم تقاوم ريم دهشةُ اعترتها، هل يخشى باهي العفاريت إلى هذا الحد؟ يبدو رقيقًا ولكن لا يريحها أن يكون بهذا الجُبن، على أي حال لم يكن باهي على ما يرام منذ بداية اليوم وكأنّ شيئًا ما يؤرقه.. أكثر من مرة تبدو عليه سمات الجدية وكأنه سيلقي بيانًا حكوميًا. ثم تسأله فينفي أن يكون هناك أي أمرٍ يريد الحديث عنه! شردت في أحوال هالة وأسرتها رغمًا عنها عندما اختفى باهي من أمام عينيها، تلك الأسرة تُخفي الكثير وتبدو في حاجة لإعادة بناء. مشاعر غير طبيعية تربط الثلاثة برباطٍ واهٍ يكاد أن ينحل من تلقاء نفسه. تشعر كلما زارت هالة بانقباضٍ يخيم على روحها لا تدري له سببًا.. قرأت ذات مرة على (الفيسبوك) عما يسمى بالطاقة السلبية، ربما تبحث عن هذا المقال عن طريق (جوجل) وتنصح هالة باللجوء لـ... لا تدري بمَ تنصحها، هل هناك من الأساس معالجون لصرف تلك الطاقات، أم أنّ الأمر لا يعدو كونه نوعًا من النصب الأنيق؟ سترى.

- اتأخَرت عليكي؟

صوت باهي الحنون باغتها فتفرست فيه بتركيز:

- ها.. رحت صرفت العفريت اللي عليك؟

احتقن وجهه غضبًا:

- قصدك إيه؟ هو انا شكلي ملبوس؟

أيقنت ريم أنّ هناك شيئًا ما وراء باهي. هي صارت بارعة في استفزازه عندما تستشعر أنّ هناك ما يخفيه عنها. توجست خيفةً. فما الذي قد يربط ذلك الحالم بالعفاريت؟ ولكنّ أمره صار يهمها ولن تدعه يُفلت بعيدًا عنها بعد أن جلب نجوم السماء عند قدمها:

- باهي.. بااااهي. أقعد كده واهدى معايا وقول هِديت وفهّمني إيه حكايتك.

في ارتباك وعصبيّة شوح باهي بيديه:

- حكاية إيه يا ريم؟

بثقة من أحكم وثاق الفريسة:

- بااااهي قول هِديت.

وكأنّها منومٌ مغناطيسيٌّ بارع تهدلت كتفاه وجلس في هدوء:

- هديت يا ريم. أنا أصلًا هادي.

في هدوءٍ أشد:

- ماشي يا هادي قول بقى مالك؟ من الصبح وانت مش على بعضك. وفجأة تقوم تقول لي الحمام. مش كل ما تتزنق تقول لي رايح الحمام.. قولّي مالك أنا ريم اللي فاهماك يمكن اكتر من نفسك.

استجمع شجاعته وكأنّه بصدد البوح بأمرٍ جلل ثم أخذ شهيقًا عميقًا وغمغم في هدوء:

- ريم فيه موضوع انا عايز اكلمك فيه ومتردّد من فترة. ماتستعجلينيش وما تقاطعينيش لو سمحتي لأن الموضوع خطير بجد.

تلك رميةً من غير راجٍ.. حدثت ريم نفسها.. انتابتها الحماسة. ثم أردفت وهي تلوي أذنيها بأصابعها:

- قول. أنا كلي ودان كبيرة.

صمتٌ مطبق أحكم قبضته على باهي حتى ملّت ريم.. كان وجهه ممتقعًا كمن ينتظر حكمًا بالإعدام. وأخيرًا لانت ملامحه وسحب شهيقًا آخر ثم بدأ حديثه:

- ريم أنا مش عارف صح اني أحكيلك موضوع زي ده ولا لأ. بس انا خلاص. ما بقيتش قادر استحمل أكتر من كده ولا ضميري ساكت عليا..

قاطعته ريم فورًا:

- فيه إيه يا باهي انت زي ما تكون قتلت حد!

لدهشتها البالغة أطرق باهي وبدا عليه الأسى وكأنّ ما قالته قد مسّ وترًا حساسًا لديه! رفع رأسه في بطء وأردف:

بصي يا ريم.. الموضوع خطير حقيقي وانا هائق فيكي واحكيلك كل حاجة خلاص.. الموضوع ليه علاقة بهالة! ما تخليش بس عقلك يروح بعيد... أنا مش باحب هالة ولا كنت باحبها، طبعًا انتي لاحظتي انّي كنت مهتم بيها شويه، بس الموضوع ليه أبعاد تانية خالص أكبر من الإعجاب والحب.. ريم انا كنت مُكلّف اشاغل هالة واخلّيها تحبني.. من غير مقاطعة بس الله يخليكي المرة دي وانا هافهّمك كل حاجة..

ساعتان من الحديث المتصل تناوبت فيهما كل أشكال العجب والانزعاج والفزع أحيانًا على ملامح ريم.. كان ما قصه عليها باهي يتخطّى حد العجب.. بدأها بحكاية علال التطواني الذي انغمس في دراسة التاريخ والسحر الأمازيغي فقادته أبحاثه إلى مناطق شائكةٍ من هذا التاريخ.. حكايات غابرة عن صراع بين ملكة تدعى تهيبا ملكت فنون السحر ورجلٍ عربيّ هامت به وهي في أوج شيخوختها فمنعته بنوّتها.. قصة مثيرة عن خيانة ذلك الرجل خالد بن يزيد لتهيبا، وعن هزيمتها ثم هلاكها على يد ملكٍ عربيّ يدعى حسان بن النعمان، وعن كاهنتها و خادمتها الأثيرة ماسيليا التي كانت تراقب ما حدث بنفسٍ ملأى بالحقد والرغبة في الانتقام.. رواياتٍ لم يقصّها التاريخ عن سعي ماسيليا للانتقام من خالد، ثم أسرها على يديه حتى لقت مصيرها المحتوم كساحرةٍ معاديةٍ تسقط في يد قائدٍ منتصر.. أحداث أشدّ عجبًا عن نوميديا التي سعت لإكمال مسيرة ماسيليا فلجأت إلى أقصى الأرض في جبال تافوغالت لتحيك المكائد لخالد وللعرب الغزاة بعونٍ من سحر تهيبا الذي ورثته ماسيليا، ثم انتقل لها علمًا ومخطوطات بعد أن لقت تلك الأخيرة مصرعها حرقًا.. اصطحب باهي مخيّلة ريم إلى عالم تافوغالت المهيب بكياناته وغموضه،

فرأت رأي العين علال وهو يدفع ثمن ما أحياه بعد قرونٍ من الموات.. شعرت بهلعه عندما مثل أمام العجوز الغابرة خادمة الجبل، ثم استمعت إليه وهو يلقّن فارس بعد سنوات ما كلف به.. كانت علوم نوميديا قد انتقلت إليه بواسطة العجوز التي انتهى دورها في الحياة بتلقينه ما سيوكلُ إليه، وحان الوقت ليتسلم فارس مهمته.. يقف فارس مشدوهًا أمام أبيه الذي صار كيانًا مخيفًا لا يتحدث ويسري إليه حديثه كالوحي فيملأ روحه دون صوت.. سيّالٌ من الأفكار والرؤى تدفق إلى كيانه دون توقف حتى فقد الوعي.. ليس هذا أبوه بل ليس هذا برجلٍ حيّ.. هو قد صار ككيانٍ قديمٍ قِدمَ الدهر لا يمُتُّ لعالمنا بِصِلة.. يسلّمه الكيس الخيشي المليء بمخطوطات ودمى ستصاحبه ما بقي من عمره، ثم يأمره بالرحيل لينفذ! ما هذا العبث يا باهي وما الذي يربطك بكل تلك الأحداث الغابرة الكئيبة؟ ظلت ريم ترمقه كالمسحورة في فزعٍ حقيقي.. من أنت يا باهي؟

- أنا ابن فارس!

ألقى باهي بصاعقته على ريم التي لم تربط أبدًا بينه وبين الأحداث التي كان يقصها، ودق مؤخرة رأسها بعنفٍ وقع اسمه الثنائي الذي عرفته مؤخرًا ولم تستسغ وقعه عندما استدعته من الذاكرة:

باهي فارس!

* * *

(٤١)

كعادة تافوغالت لم يعُد فارس من صعوده كما كان قبلًا.. لم يُعرّج على دار طارق الذي اختفى كعادته هو الآخر بعد أن قاده لعلال.. عاد إلى بلدته فلم يلحظ أفراد العائلة التغيرات التي طرأت عليه، فهو لا يجالسهم إلا قليلًا. ولكن عندما قرر فجأة أن يرتحل إلى مصر ألجمت الدهشة الجميع.. عاد علال بغموضه وارتحاله المفاجيء في صورةٍ أخرى تمثّلت في فارس، غير أنّ هذا الأخير كان قد قرر بوضوح قطع كل ما يربطه بتلك الأرض. لم يراجعه أحد تقريبًا فيما قرر، بل منحه عمه الأكبر ما ارتضى من ثمنٍ لأرضه ليبدأ حياةً جديدةً اختارها.. كان هناك شيءٌ من الارتياح كذلك لرحيله، فلم يعُد أحدٌ يعتبره عضوًا فاعلًا في العائلة لعزلته الدائمة، وعزوفه عن الزواج بإحدى فتياتها، ورغبته المهينة لهم نوعًا في الاستقلال بحياته.

رحل فارس في هدوءٍ بعد أن كان ظهوره برفقة أبيه صاخبًا. وبدأ رحلةً جديدة سوف يستقر فيها في بلد أمه ويسعى لتنفيذ ما كُلِّف به قسرًا.. لم يكُن العثور على منزل جده عبد الحميد الناغي صعبًا.. كان يذكر في ثنايا عقله تلك الفيلا الهادئة التي شهدت الكثير من أحداث طفولته الباكرة.. تبدو الفيلا مهملةً بلا روح.. اجتاز البوابة مغمورًا بمشاعر جارفة عندما تذكر نشأته كطفلٍ أثيرٍ يمثّل الحياة ذاتها لأمه وأبيه وجده.. سالت دمعاتٌ ساخنةٌ على وجنتيه مسحها قبل أن يضغط زر جرس الباب.

انفتح الباب على مرأى رجلٍ وسيم الطلعة في العقد الرابع من العمر قطّب جبينه وقال بهدوء:

- أفندم.

خاله عبد الكريم الذي لا يحمل له صورةً مسبقةً في خياله.. اتّسعت ابتسامته في ودّ:

- خالي.. نا فارس!

وكأنّ صاعقةً هبطت على رأس عبد الكريم ارتجّ جسده ولم يُحر جوابًا.. استجمع نفسه وصاح في حماسٍ وهو يفتح ذراعيه عن آخرهما:

- فارس بجد؟ ابن لوتس؟؟ يا ربي.. أنا.. أنا مش مصدق.. تعالى يا حبيبي.. تعالى.

غرق فارس في أحضان خاله، ورغمًا عنه انهمرت دموعه على خلفية شريط ذكرياتٍ مفعمٍ بالحسرة.. انخلع قلبه حزنًا وهو يتصور كيف كان سيحيا في كنف جده الحنون حياةً هادئةً طبيعيّةً تخلو من الجنون الذي أغرقه أبوه في نهره.. ودّ لو استطاع أن يحرق ما أثقل كاهله من مخطوطات نوميديا، ويضرب بعرض حوائط (الفيلا) جميعها ما ينوء به من تكليفاتٍ شيطانية، فيستعيد حياته التي حرمه أبوه إياها من أجل عبثٍ تحول إلى كابوسٍ قاتمٍ مقيم.

بعد الاستقبال الصاخب وبعد أن استوعب عبد الكريم الموقف اصطحب ابن أخته الراحلة إلى داخل (الفيلا) ممسكًا بيده في إحكامٍ، وكأنّه يخشى أن يكون طيفًا سيختفي فجأة كما ظهر فجأة.. عندما سأل فارس بلهجة مصرية بائسة عن جده وجم خاله وشخص بصره في حزن..

كانت تلك صدمةً لفارس الذي كان يحمل لجده حبًا جارفًا زرعته لوتس في قلبه طفلًا فلم تمحُه الأيام رغم الفراق.

رحل الجد منذ أيامٍ معدودات بعد أن نال منه المرض، والغريب أنّه عند موته أوصى عبد الكريم خيرًا بفارس رغم اليقين السائد لديهما من قبل بأنّ فارس لن يعود.. يبدو أنّ الجد قد رأى بشفافية المشرف على الموت حفيده الغائب يوشك على العودة..أيقن عبد الكريم الآن فقط أنّ المحتضر يرى مالا نرى، وأنّ للموت شفافيةً لا يعلمها المرء إلا وهو يسلم الروح.. وبالرغم من أنّ فارس يبدو شابًا يافعًا لم ينزعج عبد الكريم من أن يقيم في الفيلا مع وجود ابنتيه اللتين كانتا على أعتاب المراهقة، وزوجته الإنجليزية التي التقاها عندما عاد إلى بلادها ليكمل دراسته مصطحبًا أباه الذي وافق حينها على مضض، لن يتخلى عن ابن أخته الشاب الذي عاد لبلاده لكي يستقر فيها كما أخبره منذ دقائق، ولن يخالف وصية والده مهما كلفه هذا من متاعب.

بالطبع ديّج فارس لخاله قصةً ما عن وفاة والده بمرض القلب ومن ثم رغبته في أن ينتقل للعيش برفقة جده لأمه.. سالت الدموع عند ذِكر الجد والراحلة لوتس ليحتضن الخال ابن أخته من جديد.

لم يعلم عبد الكريم في ذلك الوقت أنّه سيضطر يومًا لمنح فارس مبلغًا من المال لبدء حياة جديدة مرةً أخرى في سبيل أن يبتعد عن حياة أسرته. في البداية حاول الخال أن يؤمّن للفتى قسطًا إضافيًا من التعليم يعينه على نيل وظيفةٍ محترمة، إذ أنّه ليس من اللائق أن يعمل ابن عائلة الناغي في الزراعة التي لا يجيد سواها، ولكن أبواب التعليم النظامي أوصدت جميعًا في وجه فارس، فلم يتيسّر للخال سوى أن يستجلب له

معلمين يلقنونه اللغتين الفرنسية والإنجليزية، وكذلك معلّمًا للغة العربية يساعده على إتقان الفصحى والعامية المصرية.. كان هذا كرمٌ فائقٌ من الخال رغم عدم تيسر حاله إلى هذا الحد، فالجد عبد الحميد لم يترك وراءه ثروةً طائلة ولكن عبد الكريم كان يحاول بشتى الطرق إرضاء روحي والده ولوتس.

لم تبتلع مارجريت زوجة الخال وجود فارس بالمنزل، كانت أمًا محافظةً بالفطرة، وظلت تشك في كل نظرةٍ لفارس يلقها تجاه ابنتها سكارليت وسارة حتى نجحت في نقل هذا الشعور لزوجها، فبدأ يفرض حصارًا غير مباشرٍ على تحركات فارس، وبدأ يستغل فترات عدم وجود الأخير في حجرته ليفتش وراءه علّه يجد خواطر ما قد دونها تثبت نواياه الخبيثة تجاه الفتيات! كان عبد الكريم قد نجح في نسخ مفتاح الغرفة التي لا ينسى فارس أبدًا أن يُحكِم إغلاقها.

ذات يومٍ جال بخاطر الخال أن يُمعن في تفتيش الغرفة فهداه تفكيره للبحث أسفل الفراش.. كيسٌ خيشيٌ سميك كان ما ظفرت به يدا عبد الكريم، فتحه في توجسٍ ومد يديه لتخرج بدمًى قماشية ومخطوطاتٍ عجيبة الهيئة سُطِرت على جلدٍ أعجب، ارتجف عندما جالت بباله فكرة أن يكون جلدًا آدميًا.. الملمس ولون المخطوطات أوحيا له بذلك.. كانت الدمى مهيبة الهيئة حادة الملامح تبعث شعورًا كئيبًا في النفس، وعندما ألقى نظرةً مدققة في المخطوطات لم يفهم حرفًا من تلك الأبجدية الشيطانية التي شكلت كلماتها، ولكنّ رسومًا شديدة القسوة على بعضها ملأت قلبه رعبًا ومنحته يقينًا أنّ ابن أخته يمارس كذلك السحر الأسود،

فكانت تلك القشة هي ما رجح كفة القرار الذي يراوده من فترة.. لابد أن يرحل فارس.

وبدأ التيهُ الثالثُ في حياة فارس الذي لم يتعدّ العشرين بعد.. لم يكن استئجار شقة مناسبة شديد الصعوبة رغم أنّ أزمة السكن كانت قد بدأت تلقي بظلالٍ كئيبة في ذلك الوقت، وكان للمال الذي توافر للفتى من ميراث أبيه ومما منحه خاله إياه أمانًا كافيًا ليوفر له سكنًا مناسبًا. وبقيت المشكلة الأكبر.. كيف يصل إلى ما كُلِّف به؟ قرر في البداية أن يلتحق بعملٍ يدمجه في حياة الناس فلم يجد أفضل من التجارة، الروائح العطرية الأخاذة في أحد محلات العطارة الشهيرة ملكت قلبه فقرر أن يكون عطّارًا!

سطوة المال مكنته من استقطاب فتحي أحد أمهر مديري محال العطارة لنفسه، حيث أغراه بعرضٍ اشتمل على ضِعفي مرتبه الحالي مع نسبةٍ ضئيلةٍ من الأرباح، على أن يتعلم منه كافة ما يعلم من أسرار العِطارة.. كذلك شجعت حداثة سن فارس ومنشأه غير المصري فتحي على قبول العرض، فبالتأكيد لن يتحكم فيه شاب غرير كفارس كما كان يفعل (الحاج) صاحب العطارة التي يعمل بها.

كانت تلك سنين عشقها فارس، اتسعت فيها مداركه وتشعبت علاقاته وطاف أنحاء مصر يستجلب الأعشاب ويتعلم منافعها، أما ما يتم استيراده فكان فتحي يتكفل بتلقينه كافة أسراره حتى صار موسوعةً متنقّلةً في عالم الأعشاب والعطارة. كان عليه كذلك أن يلجأ لأحد المهرة في علم الأنساب لكي يصل إلى من يتواجد على قيد الحياة من نسل خالد بن يزيد في مصر كما أنبأته المخطوطات.. كلفته تلك المهمة كثيرًا من

الجهد والمال، وساعدته أسفاره في عموم البلاد على أن يتوصل بعد سنواتٍ من البحث وتتبع الأنساب إلى قريةٍ صغيرةٍ في المنوفيّة، حيث تأكّد أخيرًا من أحد شيوخ النسّابين أنّ أسعد هو المطلوب.. وافق ما توصل إليه مخطوطاته فعلم أنّ أسعد هو المطلوب، كان الحنق يملؤه على تلك الكيانات التي تعلم كل شيء ثم تدفعه إلى الترحال والتطواف بحثًا عمّن يعلمونه منذ البداية، لِمَ لم يخبروه بشخصية أسعد في نبوءاتهم دون أن يضطروه للجوء إلى إنفاق أمواله على السفر وعلى أعتاب النسّابين، و(النصّابين) منهم كُثر؟ يبدو أنّهم كانوا يدفعونه للجدّية الكاملة واعتناق المهمة عبر السنوات حتى يتوحّد معها وتصير جزءًا من ذاته فلا تصبو روحه إلى الفكاك منها، يا لحكمة هؤلاء الشياطين!

* * *

- يا نهار أسود!! يعني انت اللي هتنتقم من هالة؟؟

ود باهي لو ابتلعته أرض المطعم عندما اتجهت الأنظار جميعها إلى منضدتهم بعد صيحة ريم الحمقاء، فكتم فاها بيده في حركةٍ تلقائية:

- وصّلي صوتك انتي اتجننتي؟

بوجهٍ ممتقعٍ غاصت في مقعدها دون كلمة وقد طغت عليها شخصية باهي الجديدة التي ألقت في نفسها الرهبة، فاستطرد الأخير:

- ما تخليني اندم انّي حكيتلك كل حاجة. أنا لو قابل حاجة زي دي ما كنتش حكيتلك ولا كنت بعدت عن طريقها، أنا خايف من ابويا، مش هيسكت حتى لو انا رفضت خطته، أكيد هيتصرف بطريقة تانية.. أنا لغاية دلوقتي ماشي معاه وماباعترضش وهو مش مستعجل.. إحنا لسه في إعدادي كلية ولسه قدامنا اربع سنين كمان، أنا بافكر معاكي بصوت عالي علشان نلاقي حل ننقذ بيه هالة.. انتي الإنسانة الوحيدة دلوقتي يا ريم اللي باثق فيها وأكيد تهمك مصلحتها كمان.

التقط باهي أنفاسه فانتهزت ريم الفرصة:

- باهي انا أساسًا خايفة منّك انت نفسك دلوقتي، انت مش واخد بالك من اللي بتقولهولي؟ أنا مش قادرة لسّه استوعب اللي باسمعه، ده لو فيلم رعب هاقول وِسعِت منهم مش افكر احلهالك ازاي!

اعتدل باهي في مقعده وانعقد حاجباه في إشفاق:

- لأ يا ريم إلا إنتي، دانتي الأمل اللي انا متعلّق بيه دلوقتي عشان اخرج من دايرة الشرّ دي.

أمسكت ريم رأسها التي كادت تنفجر ثم رفعت عينيها وقالت:

- أنا مش قادرة افهم أصلًا إزاي يكون فيه بني آدم يوهب حياته كلها للجنان ده، أحلام إيه وكلام فاضي إيه؟ إزاي أصلًا يروحوا برجليهم للأماكن دي ويستسلموا لل... مش عارفة حتى اقول لإيه؟ دول عفاريت ولا أرواح ولا فامباير ولا إيه بالظبط؟

لم ترْق مقاطعتها لباهي ولكنّه أشفق عليها من هول ما تسمع فأردف شارحًا:

- بصي يا ريم.. لا جدي ولا أبويا عاشوا الزمن اللي انا عشته، كل واحد منهم وقع فريسة لأوهام أكبر من حجم أي إنسان وماكانش فيه لا حد ولا وسيلة تساعدهم انهم يفكروا ولا يواجهوا.. أنا غيرهم، أنا ما سيبتش حاجة موجودة على الإنترنت لها علاقة بالتاريخ ده إلا وقرتها.. اللعنة دي لو موجودة فهي أضعف من إنها تتحكم في حياة بشر.. تافوغالت نفسه دلوقتي جبل مش مهجور لدرجة ان رحلات المدارس بتروح هناك.. أبويا مستحيل يستوعب ده مهما قلت له، ده عاش عمر كامل أسير اللعنة اللي ملكته هو وجدّي، المخطوطات اللي معاه برضه أكيد مش وهم، بس هي مهما كان مجرد أوراق زي العمل اللي الستات بتعمله هنا، يعني حاجة أضعف كتير من انها تقنع شاب زيي انه هيعجز يتخلص من لعنتها.. اللي

أبويا ما عملش حسابه اننا جيل ما بقاش يخاف من العفاريت وبقى أصلا بيدور على أفلام وقصص الرعب عشان يتسلى بيها بالليل!

رمقته ريم كالمشدوهة.. لم تعهده قبلًا بتلك القوة التي تحدث بها:

- أنا مش قادرة افهمك يا باهي. منين بتقوللي موضوع بجد خطير ومنين بتهون منه دلوقتي للدرجة دي؟

أشاح بيده معترضًا:

- أنا ما هونتش منه يا ريم. لحظة. أنا بس باشرح لك إيه اللي خلاني عايز اكون الحلقة اللي تكسر اللعنة دي، هي لعنة واختصت بعيلتي يمكن علشان جدي هو اللي أحياها من غير ما يقصد، أنا بقى خلاص مش هاستسلم زي ما هما استسلموا، لكن ده ما يمنعش اني باواجه حاجة شريرة ممكن اكون مش قادر فعلا اقدّر قوتها وممكن انها حتى تنهي حياتي.

صانحةً وضعت ريم يدها على فمها في جزع:

- بعد الشر!

مرت بسمة عابرة على وجه باهي ثم استعاد جديته واستطرد:

- ركّزي معايا طيب دلوقتي علشان اكمّل لك الحكاية وبعدين اسيبك تستوعبي براحتك.. أبويا أوّل ما دخلت ثانوي ابتدى يقول لي الحكاية واحدة واحدة عشان استوعب، الموضوع ما كانش سهل بس أكيد كان فيه حاجة بيعملها عشان يسلب إرادتي.. كنت باسمعه زي المسحور واحس اني شايف كل اللي بيحكهولي زي ما يكون فيلم في التلفزيون، لما

حدد هدفه في أسعد أبو هالة بدأ يجمع كل المعلومات عنده ولما عرف انه متجوز من فترة ولسه ما خلفش، قرر انه يتجوز هو كمان علشان النبوءة اللي عنده كانت بتقول انه لازم يجوّز ابنه لبنت من نسل خالد، ساعتها بقى على يقين أكتر ان الأسلاف دول صح. كان ممكن أسعد يكون مش متجوز خالص أو ما بيخلفش أو حتى مات، لكن كل حاجة وافقت المخطوطات والنبوءات، أبويا مجنون انا عارف، ما هو فنى حياته كلها عشان اللي بتسمعيه ده، اتجوز أول واحدة اتعرضت عليه من بنات التجار اللي بيتعامل معاهم وجابوني بعد سنة، بعد كده ما كملش معاها سنتين كمان وطلقها أول ما انا بطلت رضاعة، وهي طبعًا قبلت انّي اعيش معاه علشان انا متأكد انها كانت عايزة تخلص من جنانه وعشان تقدر تتجوز بعد كده من غير ما يكون معاها ولد ولا تلاقيها كانت عايزة أصلًا تفتكر ابنها منه.. تخيلي لما يحرمني من أمي عشان جنانه ده.. لما أسعد خلّف هالة ابويا اتأكد ان المهمة متنجح، كان ممكن يخلف ولد فساعتها النبوءة والمهمة يبقوا مؤجلين وممكن ما ينفعوش أساسًا، أنا وهالة اتولدنا في سنة واحدة وبعدها أسعد نقل شغله جنب صيدلية أسعد، وبدأ يحكم سيطرته عليه ويكمل تضليله بالأحلام اللي حكاهاله عن إنّه لازم يخلّف ولد، أبويا فهم ساعتها ان الأحلام دي شغل الأسلاف فآمن بقوتهم اكتر..فضل ابويا يقنعه انّ خلاصه وخلاص بنته من اللعنة اللي اتوهم بيها في إنّه يخلف ولد.. سنين وسنين وهو بيقنعه انّ اللعنة أقوى منهم وانهم لازم يستمروا في المحاولات لحد ما يجي الولد.. طقوس وجنان فضل يغذّي عقله بهم، وأسعد مستسلم مش قادر يفلت من تأثيره.. هالة نفسها من بعد ولادتها وأبوها بيقرا عليها تعازيم ابويا اللي

علّمها له علشان يهيأها للدور اللي المفروض تلعبه.. البنت بتضيع وانا مش مستعد اشيل ذنبها!

استوقفته ريم بإشارة من يدها:

- لحظة.. انت مش بتقول انّه لازم يخلّف ولد علشان يتخلص من اللعنة؟ مال هالة بقى بالحكاية؟

تراجع باهي في مقعده وصمت لحظات ثم أجابها:

- هي دي المرحلة الجاية يا ريم.. الحلم ده كان جزء من التضليل.. أبويا هيقنع أسعد في النهاية انّهم طول الوقت ده كانوا فاهمين النبوءة غلط، وانّ نجاتهم هتكون على إيد ولد يتجوز هالة ويبقى في محل ابنه.. الولد ده هيكون أنا!

بدا الفهم على ملامح ريم وغاصت في مقعدها وهي تهز رأسها في بطء:

- يا ابن الشياطين يا فارس.. للدرجة دي هيدمر حياة أسرة علشان الجنان ده؟

بدا غضب طفولي على وجه باهي:

- هو عشان هالة تتجوزني تبقى حياتها اتدمرت؟ ماشي يا ستي!

بسخطٍ ردت ريم على الفور:

- ده وقته يا ابني؟ انت اهبل؟ يعني ابوك بيعمل كل ده علشان يجيب لك عروسة؟

لاثت ملامح باهي واستطرد:

- معلش مش قصدي، انتي صح، أبويا فعلًا عايزني اتجوزها عشان يكمل سيطرته عليها، وبعدين ياخدها تافوغالت يسلمها لجدي علال أو للكيان اللي تقمص جسمه، والله أعلم إيه اللي هيحصل بعد كده، ما قالّيش هيعملوا فيها إيه هناك.. أنا متأكد ان هو نفسه مش عارف هيعملوا فيها إيه.. ممكن تكون روح تهبيا هتحل فيها، أو تكون هي نفسها خادمة الجبل اللي جاية، أو يكونوا هيرووا قبر نوميديا بدم هالة، الله أعلم!

تجلّى الفزع على وجه ريم بعد أن تخيلت ما قد يجري لهالة وتمتمت في شرود:

- يا ابن المجانين يا باهي.. أنا مش مصدقة اللي باسمعه ده.. دانتوا عيلة مجرمين!

في يأسٍ تطلع في عينيها:

- شفتي بقى المصيبة اللي واقع فيها؟ أبويا ده مجنون ولو حكمت هيخطف هالة ومش بعيد يقتلني ويسافر بيها، أنا ما اعرفش إيه اللي ممكن يقدر يعمله بالسحر الإسود بتاعه ده! أنا مرّة كان باب أوضته موارب بالليل وانا داخل الحمّام تخيلي شفت إيه؟ شفت عروسة قدامه بيكلمها بلغة غريبة، ولما حاولت ادقق اكتشفت انها شبه هالة! يعني ممكن يكون بيتحكم فيها عن طريق العروسة دي بالسحر بتاعه.

برقت عيناها وصاحت فجأة:

- يا نهار اسود!! يبقى نبلغ البوليس! أبوك ده لازم يترمي في السجن وبكده تخلص منّه وننقذ هالة!

رمقها في استخفاف:

- بوليس إيه بس؟ هنروح نقول لهم تهيبا وخالد بن يزيد وتافوغالت؟ داحنا نتحجز في العباسية! وبعدين إيه اللي يضمن لنا ان سجنه حتى هينهي اللعنة. هو القضبان بتحبس السحر؟

بدت الخيبة على وجهها واستمرت في التفكير ثم أردفت فجأة:

- خلاص، مش بتقول انّ السحر ده في المخطوطات اللي معاه؟ يبقى تسهّيه وتسرقها وتروح لشيخ يفك اللي فيها أو حتى نحرقها.

في بلادةٍ رد باهي:

- انتي فاكرة انّ فكرة زي دي مش هتجيلي لوحدي؟ المخطوطات أصلًا عند الدكتور أسعد في الأوضة بتاعته ومقفول عليها في خزنة مفتاحها الوحيد مع ابويا وما بتطلعش إلا لما يروح له ويشتغلوا عليها.

في شكّ مفاجيء رمقته ريم:

- باهي.. انت ازاي ابوك أصلاً قال لك كل الحاجات دي؟

في صدمةٍ أجابها:

- معقول يا ريم تشكي فيا؟ هو انا هاحكيلك كل ده وانا مثلا مشترك معاه في اللي بيعمله؟ الموضوع أصلًا ان اللي ابويا نقلهولي نقل لي معاه ذكرياته وأفكاره وكل حاجة حتى في عقله الباطن.. انا بس مش عايز اقول لك اللي عرفته عن ابويا من غير ماهو يكون عايز.. ده عقله الباطن طلع زي أوضه مليانة بلاوي، تقدري تقولي مزبلة!

رغما عنها ابتسمت ريم ولكن هيبة الموقف أعادتها إلى وجومها، فبدا أنها أزمعت أمرًا، ثم خرجت كلماتها في صعوبة:

- باهي.. إحنا لازم نقول كل الكلام ده لهالة.. من حقها نعرفها المصيبة دي وأكيد هي هتواجه أبوها باللي عرفته.. تفتكر أنكل أسعد لو عرف انّ بنته هتروح في داهية وفهم الحقيقة هيخاف من المخطوطات ولا من ابوك؟ أكيد هينقذ بنته ومش بعيد يقتل ابوك ده اللي خرب حياته كلها. أنا هاقول لهالة كل حاجة.

امتقع وجه باهي بدوره وبدا عليه التفكير العميق.. يبدو ما تقوله ريم حلًا حتميًا وأخلاقيًا كذلك.. قد يحيل هذا الحل حياته هو جحيمًا ولا يدري ما قد تكون ردة فعل أبيه، ولكنّ الجحيم ذاته هو ما يعيشه الآن.. أهي حياةٌ تلك التي يحياها دميةً مسلوبة الإرادة لأبٍ تجرد من آدميته وتمكّن منه شرٌّ شيطانيٌّ مطلق؟ هو يعتبر نفسه يتيمًا بلا أبٍ فليحيا كإنسان على الأقل أو ليمت على يديه تطهُّرًا مما نُذِرت له حياته رغمًا عنه.. لتكن الطامّة الكبرى بيديه هذه المرة وليكُن الله في عونه.. هو ينوي بكل جوارحه أن يخرج من دائرة تلك اللعنة العبثية، وإذا ما أنقذ حياة المسكينة هالة وأسرتها البرينة ثم لقي حتفه في أسوأ السيناريوهات فسيكون قد أحيا الناس جميعًا.. هكذا أخبره القرآن الذي يقرأه بعيدًا عن عينيّ أبيه:

- ريم.. أنا اللي لازم اقول لهالة وانا اللي هانقذها مهما كان التمن!

* * *

الخلاص

(٤٣)

كانت مهمة ريم تقتصر على أن تقنع هالة المنهكة نفسيًا وجسديًا بعد الصدمة العصبية التي مرت بها بأن تلتقيها وباهي في أحد (الكافيهات) الهادئة لأمرٍ هام.. تعجبت هالة في البداية لكنّها وافقت بعد تفكيرٍ عميق.. بعد أن أنهت المكالمة مع ريم على هاتف المنزل قررت أن تستعين بأشرف.. صار أشرف ملجأها الوحيد عندما ترتبك أو تعجز عن اتخاذ قرارٍ ما، ضغطت ضغطة طويلة على زر التشغيل لتسمع الموسيقى المميزة لهاتف (نوكيا) المحمول ثم طلبت رقمه:

- أشرف.

- هالة.. قلقتيني عليكي موبايلك كان مقفول ليه؟ أنا كنت هاتجنن وكنت هاجيلكم البيت النهارده.

- معلش يا أشرف كنت تعبانة شوية، هابقى احكيلك لما اشوفك.. المهم انت فاضي النهارده؟

- ولو مش فاضي افضالك طبعًا، خير؟

- عايزاك معايا في مشوار كده، هاقابل ريم وباهي في كافيه اسمه "باتيوشكا" الساعة ٧، مش عارفة عايزين إيه بس ريم بتقوللي موضوع مهم.. عايزاك جنبي.

- غريبة.. بس طبعًا هاكون معاكي.. هالة أنا ما بقيتش مستعد اسيبك لحظة بعد كده.. شكلك هتكملي الكلية وانتي معايا.

- ولا انا يا أشرف بقيت قادرة اكمل لوحدي.. انت بقيت حياتي نفسها.. أنا من ساعة ما اتقابلنا بقيت حاسة ان فيه أمل كل حاجة تبقى أحسن.

- باحبك يا هالة.

- وانا كمان.

- ربنا يخليكي ليا.

- هاقابلك الساعة ٧ إلا ربع على ناصية الشارع ونروح سوا.

- أنا هاستنى هناك من دلوقتي أساسًا.

- مش للدرجة دي.. الساعة لسه ٥.

- أنا ممكن أقضي عمري كله استناكي.

- مش عارفة اقول حاجة.

- ماتقوليش.. يلّا اجهزي بسرعة وانا هاستناكي.

- ماشي.. باي.

- باي.

على منضدة في ركنٍ هاديءٍ من (الكافيه) كان ريم وباهي يجلسان في وجوم.. لم يبدُ الارتياح على وجههما لمرأى أشرف.. ولكن باهي لم ينزعج كثيرًا، فالأهوال التي قد تواجهه تتضاءل أمامها منغّصاتٌ كتلك، ألقت

هالة التحية على الأصدقاء مقبّلةً ريم، وأومأ أشرف برأسه في جدية ثم اتخذا مقعديهما.

- خير يا ريم قلقتيني بجد.

لم تُجِر ريم جوابًا فنظرت مستغيثةً إلى باهي الذي غمغم:

- خير يا هالة.. خير أكيد إن شاء الله.

جاء جواب باهي ليزيد من حالة الترقب والضبابية التي سيطرت على هالة وأشرف.

بعد أن استنفد باهي كل ما استطاعه من تمهيدات استحلفهما بكل عزيزٍ أن يسيطرا على أعصابهما، وألا يقاطعانه قبل أن ينتهي مما سيقول مؤكّدًا لهما أنّ الأمر سيحمل كل الخير لهالة. ما استفزّ أشرف الذي راودته شكوكٌ قويّة في أنّ باهي سوف يبثّ هالة حبّه، فيضطر هو أن ينهي تلك الجلسة بدرسٍ قاسٍ يلقّنه إيّاه مُعلِنًا خطبته التي لم تتمّ بعد على هالة.. لم يتطرق إلى ذهن أيٍّ منهما على الإطلاق أنّ الأمر سيتعلق بمشكلة هالة وأطيافها!

وجومٌ ودهشةٌ وفزعٌ واستنفارٌ وتحفّزٌ وحنقٌ واحمرارُ آذانٍ ودقّاتُ قلبٍ عنيفةٌ واهتزازاتُ سيقانٍ ودموعٌ غزيرةٌ تناوبت على أشرف وهالة طيلة الساعة التي لخّص فيها باهي حياته وحياة هالة. عدم التصديق كان سيد الموقف في البداية، ولكنّ استسلامًا وحيرةً حلا في النهاية على الحبيبين.

كانت هالة في حالةٍ يُرثى لها من هول ما سمعت، وأخذ أشرف يربتُ على كتفها مهدئًا، والهلع يبدو على مُحيَا ريم الباكي، بينما بدا التصميمُ والتسليمُ بالقدر على باهي.

اتّخذ الموقف منحًى مختلفًا تمامًا بعد أن كشف باهي جميع الأوراق أمامهما، وجاهد أشرف نفسه حتى لا تطيح لكماته بباهي ذلك الشيطان ابن الشيطان، ولكن المنطق فرض نفسهُ كذلك، لم يكُن باهي ليكشف كل شيءٍ بتلك السهولة ما لم يكُن يرغبُ في التطهُّر ونجدة هالة.. هو ضحيةٌ أخرى من ضحايا اللعنة، وقد يكون هو كذلك الأمل الوحيد الذي ينتهي هذا العبث على يديه.

بعد أن هدأت هالة قليلًا مستمدةً الحماية من وجود أشرف بدأ الحديث الجاد يتخذ مساره بين الأربعة.. لا مجال هناك للومٍ أو تقريعٍ فالأمر خطيرٌ ويتطلّبُ التخطيط الهادىء، لا يعلمُ أيّهم مدى سيطرة فارس على هالة وأسعد وما الذي يملكه من أذًى إذا ما انكشفت خطّته.

أفلتت أعصاب أشرف أكثر من مرة فأعلن أنّه سوف يقتحم الغرفة ويحطّم تلك الخزانة ليحرق المخطوطات، ثم يعود لهذا مدركًا عبثية ما يقول.. اقترحت ريم أن يفاجئوا جميعًا أسعد ويقصّون عليه الأمر برمته، ولكن وقف جهلهم بمدى سيطرة فارس عليه ووجود مفتاح الخزانة لدى ذلك الأخير حائلًا دون هذا الحل بدوره.. تفتق ذهن هالة عن حلٍّ آخر فاقترحت على باهي أن يحاول سرقة المفتاح من أبيه أثناء نومه، فصدمها بأنّ أباه يُغلق باب غرفته بالمفتاح أثناء النوم، وأنّه لا توجد وسيلة لأن يسرق مفتاح الغرفة الذي لا يفارق جيب أبيه.. مزيجٌ غير متجانسٍ من الحماس واليأس سيطر على جلستهم، ولكنّ الأمل في نهايةٍ وشيكةٍ لتلك المأساة كان هو الغالب في النهاية.. أن تضع يدك على المرض خطوةٌ هائلة على طريق العلاج الأكيد.. هكذا طمأنهم أشرف.

شردت هالة بخيالها في نظرات أبيها عندما كانت راقدةً بالأمس بلا حراك.. هل رأت بالفعل عذاب ضميرٍ في عينيه أم أنّ ما علمته لتوّها قد أضاف تلك النظرة لتخيلاتها؟ لا تدري ولكنّها بالتأكيد كانت تشعر حينها كم يعشقُها.. لن يستطيع ذلك الشيطان نزع حبها من قلب أبيها مهما فعل.. لا يُفسد الشياطين فطرة الإنسان ولكنّهم يجتهدون في إهالة ترابهم الخبيث عليها.. اتخذت قرارها الأكيد.. هي من سينهي لعنتها بيديها.

- ما حدش هيعمل حاجة يا جماعة، أنا اللي هاتكلم مع بابا.

سرت نظرات الدهشة والإشفاق على الوجوه وبادر أشرف بالاعتراض ولكّنها أوقفته بإشارةٍ من يدها:

- أنا مش هاعرّض بابا لموقف زي ده معاكم، سيبوني أكلمه وبعدين يحلها حلال.

جاءت كلماتها الأخيرة تحمل قوةً لم يعهدوها فيها من قبل.. ربما استمدت تلك القوة من نور الحقيقة الذي سطع أخيرًا ومن ذكرى نظرات أبيها المُجبة.. لم تشعر بأي مشاعر سلبية تجاهه، بل غمرها حنانٌ جارفٌ وأسًى على ما استغرق حياته من خدعةٍ خبيثةٍ ستنهيها مهما كلفها الأمر.. تستحق تلك الأسرة المسكينة أن تحيا في هدوءٍ وسلامٍ بعد أن عكّر صفوها لسنواتٍ طوالٍ شيطانٌ مريدٌ يُدعى فارس التطواني!

* * *

(٤٤)

- بابا.. ما قلتليش اللي كنت عايز تقولهولي قبل ما اتعب.

فوجىء أسعد بهالة تبادره في ذلك الوقت المبكر من اليوم، كان قد استيقظ لفوره فوجدها تنتظره بجوار باب الغرفة المغلقة:

- هالة؟ إيه اللي مصحيكي بدري كده؟ انتي مش مريّحة من الكلية اليومين دول؟

ابتسامةٌ ساحرةٌ افترشت ملامح هالة الفاتنة فخرجت كلماتها كالبلسم على قلب أبيها:

- أنا صحيت بدري مخصوص علشان اشوفك واصبّح عليك قبل ما تنزل.

للمرة الأولى ربما منذ سنواتٍ ضم أسعد ابنته التي تذكرها مؤخرًا إلى صدره، وسالت من عينيه دموعٌ استشعرتها هالة، فكانت بردًا وسلامًا على قلبها وعلامةً على صواب ما اهتدت إليه:

- بابا.. عايزة اتكلم معاك شويه في موضوع مهم.

"آه.. أشرف بالتأكيد".. جال بخاطر أسعد فقطّب جبينه قليلًا ثم أجابها:

- ما ينفعش وقت تاني يا هالة؟ أنا نازل الصيدلية دلوقتي.

بدلالٍ تعلمُ أنّه لن يقاومه ردت:

- لا يا بابي معلش، لازم دلوقتي مش هينفع استنى، وبعدين انت بالليل بتبقى قاعد انت وصاحبك مش باعرف اشوفك.. معلش اتأخر شوية النهارده عشان خاطري.

في استسلامٍ أمام (بابي) تلك أجابها:

- طيب يا هالة هادخل الحمّام واجيلك.

عاود التوتر هالة بعد أن أتقنت دور الفتاة الحالمة لدقيقة كي تستدرج أباها للغرفة. في تلك اللحظة بالتحديد قررت أن تتجنب غرفة أبيها بالذات، لا تعلم ما يمكن أن يكون فارس قد زرعه في أركانها من شرورٍ يسيطر بها على أسعد.. قررت أن تتحدث إلى أبيها في أي مكانٍ خارج تلك الغرفة.

عاد أسعد ليجد هالة جالسة على مقعد (فوتيه) في غرفة الاستقبال.. كانت تشعر بالأمان في تلك الغرفة التي شهدت زيارة منال والدة أشرف والتي شهدت أولى خطوات كسر الجليد الشيطاني بينها وبين أمها.

- أنا معاكي اهو يا هالة.. فيه إيه؟

جلس أسعد متأوّهًا إثر خشونةٍ في ركبتيه وانتظر ما في جعبة هالة:

- بابا.. انت بتحبني؟

في دهشةٍ جاءت كلماته تلقائية:

- ده سؤال يا هالة؟ هو انا عندي غيرك يا بنتي؟

استجمعت هالة شجاعتها لتبدأ مهمتها المصيرية:

- طيب يا بابا، ما سألتش نفسك قبل كده احنا ليه بُعاد عن بعض في البيت؟ انت وماما أكيد بتحبوا بعض وبتحبوني وانا باحبكم ومالناش غير بعض احنا التلاتة، إيه اللي ممكن يخلي كل واحد فينا كانّه عايش لوحده؟

وجم أسعد عندما اتخذ حديثها مسارًا غير ما كان يتوقعه.. لم يكُن مستعدًا لتلك اللحظة:

- عادي يا هالة أنا مش شايف حاجة من اللي بتقوليه، كل الرجالة كده، بيرجعوا من أشغالهم يا إما يقعدوا على قهاوي مع اصحابهم يا إما بيكون لهم اهتمامات بتاخد وقتهم.. مامتك كمان عمرها ما اشتكت ومتهيّألي هي بتحبك ومهتمة بيكي.

قاطعته مستنكرة:

- ده لأنّ حضرتك مش عايش معانا خالص يا بابا، انت زي ما تكون بتيجي البيت ضيف انت وصاحبك ده، معلش لا انا ولا ماما بنرتاح له خالص، بصراحة انا متأكدة انه هو اللي متعمد يبعدك عنّنا!

في استنكارٍ جنوني صاح أسعد بصوتٍ هادر:

- فارس؟ ده أخلص إنسان ليّا في الدنيا ، انتي مش عارفة حاجة يا هالة، فارس ده بيهمل حياته نفسها عشاني!

لم تتمالك هالة نفسها من أن تصيح بعصبية مبكرة:

- لا إسمح لي بقى يا بابا انت اللي مش عارف أي حاجة عن ال... البني آدم ده لو كان بني آدم أساسًا!

هبطت كلمات هالة كدلو الماء المثلّج على رأسه:

- انتي ازّاي تكلميني كده يا بنت؟ تعرفي إيه انتي أصلًا عن أي حاجة عشان تتكلمي عن عمك فارس كده؟

قاطعته في سخرية:

- عمي؟ بابا.. انت لو عرفت فارس ده عمل وهيعمل فيك وفينا إيه مش بعيد تقتله، أيوة تقتله قبل ما يقتلني!

اتسعت عيناه عن آخرهما وتراجع في كرسيه:

- إيه التخريف ده؟ يقتلك؟!

طارقةً على الحديد الساخن استطردت هالة:

- أيوة يا بابا يقتلني. لو فاكر انّ اللي بيحصل في الأوضة بينكم سر تبقى غلطان، انت تعرف انّ فارس عنده ابن اسمه باهي؟

في شرودٍ وعدم فهمٍ تحت تأثير صدمة هالة تمتم أسعد:

- آه عارف بس ما بتجيش سيرته كتير، زي ما باقول لك فارس مهتم بشؤوني انا. بشؤوننا احنا كمان وعمره ما بيكلمني عن ابنه، بس ده ماله بأي حاجة؟ فيها إيه انّ يبقى عنده إبن؟

التقطت هالة طرف الخيط وأردفت:

- أنا هاقول لك بقى كل اللي انت مش عارفه، وهتعرف إبنه ده المفروض يعمل إيه، وهتعرف كمان إيه اللي انت عملته فينا بمشيّك ورا التِعبان

ده، إسمعني كويّس أوي لأن حياتي أنا هي تمن انك تفهمني أو ماتفهمنيش!

فجأة هب أسعد واقفًا في عصبية:

- خلاص الكلام انتهى يا هالة، أنا مش مستعد اسمع كلام عيّلة زيك مش فاهمة أي حاجة، انتي اللي لو تعرفي فارس بيعمل ايه وإيه اللي مهدد حياتك وحياتي عمرك ما كنتي نطقتي كلمة وحشة ف حقه.

وقفت هالة حائلًا بين أبيها وبين باب غرفة (الصالون)، وبحسمٍ أخرجت من بين طيات ملابسها سكينًا صغيرة وضعتها على باطن معصمها الأيسر وفي حسمٍ خرجت كلماتها مهدِّدة ليتسمر أبوها مكانه في هلع:

- هتسمعني يا بابا للآخر وإلا هاموت نفسي، اقعد مكانك واسمعني وإلا خلاص، أنا حياتي مابقتش فارقة معايا لما الاقي بابايا مستعد يضحي بحياتي علشان واحد حقير بيوهمه انه صاحبه وحبيبه..

لم تفتح صيدليّة أسعد أبوابها في ذلك اليوم.. فقد كان الرجل في حالٍ يُرثى لها من هول ما صعقته به هالة، لا يستطيع التصديق ولا يتمالك نفسه من الانهيار.. لم يكذب حدْس هالة عندما ألقت كل رِهاناتها على قلب أبيها.. في ساعةٍ واحدةٍ انهارت أسطورة أسعد وصار كالطفل المذعور بين يدي ابنته! كل ما روته هالة لم يكن يحتمل الشك، هي تعلم كل شيء بالفعل ولا سبيل لذلك سوى أن تكون صادقة.. حتى إن كانت قد استطاعت أن تدخل الغرفة دون علمه ما كانت لتجد شيئًا.. صهرت قوة الحقيقة قناعاته جميعًا فصار صلصالًا مرنًا ألقى نفسه بين أصابعها لتشكّلهُ كيفما شاءت، انهمرت دموعه أنهارًا ولعن فارس ألف

مرة، بل لعن نفسه لتكتم هالة فاه بيدها الرقيقة محتضنةً إياه في حنانٍ جارف. كان الأمر أيسر كثيرًا مما خشتهُ هالة.. هذا المأفون لا يملك من أمر أبيها إلا الخداع، انطلق أسعد يروي لها من بين دموعه ما يغرق فيه من أحلامٍ شيطانيةٍ ونبوءاتٍ مأفونة لتصعقه هالة بما يحيطها من أطيافٍ وأحلامٍ شيطانية هي الأخرى.. الخوف من المجهول هو سلاح فارس الماضي الذي سيطر به على كيان أسعد ربما بما يفوق مخطوطاته المطلسمة الملعونة، والآن تأتي طفلة قلبه الحبيبة بالحقيقة الكاشفة.. طفلٌ مذعورٌ بالفعل كان يرتمي بين ذراعيها وهو ينشج بالبكاء.. عمرٌ كاملٌ من المذلّة لذلك الشيطان يمرّ أمام عينيه فيقتله الندم وتذبحه الحسرة.

- ماتخافش يا بابا يا حبيبي.. طول ما احنا مع بعض هنهزم أي قوة، ربنا بيقول "وقال الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمرُ إنّ الله وَعَدَكُم وعدَ الحقّ ووعدتُكُم فأخلفتُكُم وماكان لي عليكم من سلطانٍ إلا أن دعَوتُكُم فاستجبتم لي"، الشيطان ده بيستمد قوته من تصديقك لخرافاته وانفراده بيك، دلوقتي خلاص انت عرفت كل حاجة ومش هيقدر يإذي أي حد فينا.

احتضن أسعد ابنته في قوةٍ وامتلأ قلبه بحبها كما لم يشعر من قبل.. أتملكين كل هذا الإيمان وكل تلك الحكمة يا حبيبتي؟ أي ولدٍ كان سيصبح مثلك أيتها الحبيبة؟ بل أي ضلالٍ عشتُ فيه وتهت بعيدًا حتى أغفل عن الحقيقة وأسلمك بيديّ الضعيفتين إلى الهلاك؟ كان أسعد يولدُ من جديدٍ على يديها الآن.. للمرة الأولى يستشعر مدى السُخف الذي أضاع زهرة عمره في ضلالاته، ما أقوى نور الحقائق حين يسطع وما

أوهن كيد الشياطين.. رحماك يا الله، فلتغفر لي ما قصرت في حقك وما فعلته بأقرب عطاياك إليّ.. سامحيني يا هالة ولتغفر لي نهلة الحبيبة ما كابدته بيديّ.

- تخيلي يا هالة اني كنت خلاص بدات ايأس وفكرت اتجوز على مامتك علشان اخلف الولد؟ السنين عدت ومافيش فايدة وفارس كان دايمًا يرفض الحل ده، كان بيوهمني انه خايف عليكي وعلى مامتك من انهيار الأسرة لو اتجوزت وبيقنعني ان الطقوس اللي بنعملها متجيب نتيجة ف يوم أكيد، وانه لما تجيله البشارة هيقوللي علشان اسعى مع مامتك اننا نجيب الولد.. تخيلي ازاي كنت باشوفه اما الاقيه حريص عليكم اكتر مني شخصيًا؟

- شيطان يا بابا، ماكانش عايزك تجيب ولد بأي طريقة علشان في الاخر يقول لك ان الولد ده مش لازم يكون من صلبك وان ابنه هو ابنك ولما تجوزهولي هيبقى ابنك بجد! مش بعيد يكون عمل لكم سحر ولا عمل يمنعكم من الخلفة علشان يضمن ان اللي هيقولهولك في النهاية هيكون هو الحل الوحيد قدامك!

هدأ روعُ أسعد كثيرًا بعد أن طهرته الدموع ومنحه قلب ابنته السكينة والمغفرة التي يبتغيها، دموعها تلك تنطق بغفرانها، ما أعظمك يا ابنتي.. ألحّت عليه النبوءة من جديد..

" كُن أبًا بلا ولدٍ وولدًا لابنتِك".. هو يصير الآن بالفعل ولدًا لهالة تبثّ في قلبه الطمأنينة كأمٍّ حكيمة.

- حبيبتي.. أنا مش هاسمح لمخلوق في الدنيا يقرّب لك، لو حكّمت هاقتله، أنا عايز اقطّعه بإيديا دول دلوقتي، كل حاجة انتهت خلاص. خليكوا انتوا بعيد وياريت تسافري انتي ونهلة يومين لحد ما اخلص انا الموضوع ده بطريقتي، مش ممكن اعرضكم تاني لشر الملعون ده.. تاخدي مامتك وتروحوا اسكندرية وماتقلقيش عليا، مش عايز بس خوفي عليكم يضعفني قدامه..

قاطعته في حزم:

- لا يا بابا.. انا قلت لك احنا ما بقيناش أقوى إلا واحنا مع بعض، قوته كانت في فرقتنا وأنا مش هاسيبك معاه لوحدك تاني، وانا كمان ليّا تار معاه، مش عمري ده اللي كان بيضيع خوف وكآبة وتخاريف بسببه؟ أشرف وباهي ابنه كمان هيكونوا معانا، كل الخير اللي في قلوبنا ده هو اللي هيقضي على شرّه، انت لوحدك مش هتعرف تعمل حاجة معاه، صدقني وجودنا معاك هو اللي هيقضي على لعنته مش مواجهته لوحدك.. وبعدين انت نسيت النبوءة؟ مش الولد هو اللي هينجّيك؟ مش الولد ده هو بنفسه اللي كان بيخطّط انّه يكون باهي ابنه؟ خلّي ابنه بقى يكون الولد اللي ينجّيك قصاد عينيه!

* * *

(٤٥)

الغرفة وقد انفتح بابها أخيرًا.. البهجة تشرق في أنحائها وقد حل سلام نفسيّ غير مسبوق على الجميع، يتبادلون أحاديث ضاحكة لا تشي بأنهم بصدد مواجهة شياطين غابرة.. يربتُ أسعد على كتف أشرف مقهقهًا لمزحةٍ صاخبةٍ ألقتها ريم كعادتها، بينما تطوف عليهم نهلة بأقداح العصير.. هالة في أبهى ثوبٍ تمتلكه وكأن الليلة حفل خِطبتها.. ولِمَ لا وتلك النظرات الحنون يتبادلها أبوها مع حبيبها؟ باهي يمسك بيد ريم بأطراف أصابعه في خجلٍ، وكأنه يستمد منها القوة في مواجهة أبيه الذي تضاءلت صورته كثيرًا في مخيلته.. بدا فارس في خياله الآن كمسخٍ مصطنعٍ أبدعت يد أحد فناني السينما في تشكيله.. "لا أقوى من الإنسان.. الله قد استخلفه في الأرض فسخّرها له بما فيها، أتهزمه مسوخٌ ذهبت أرواحها هباءً فلم تستطع أن تحمي أنفسها؟" جال بخاطر باهي فسيطرت عليه حالةٌ من الثقة والتفاؤل بددت أكثر مخاوفه.. شريط ذكرياتٍ حافلٌ بالقسوة مرَّ أمام عينيه، لا يستطيع أن يتذكر لوالده ما يمنحه قدرًا من التعاطف معه.. ألا يكفي أنه من حرمه من أمه طيلة طفولته وصباه؟ ألا يكفي أنه قد حرمه حتى من اختيار الطريق الذي حلم به لحياته فأجبره على الالتحاق بكلية الفنون الجميلة ليطارد هالة عن كثب؟ كان يحلم بالالتحاق بكلية الآداب ليبحر في آداب اللغة العربية ويصقل موهبته في الكتابة، ولكن حال بينه وبين حلمه جنون ذلك الأب الممسوس.

على الرغم من ذلك تشكلت دموعٌ حائرةٌ في عينيه ربما حزنًا على صورةٍ تمناها لأبيه؛ حزنًا على ما كان يحلم أن يكونه أبوه، لا على ذلك الرجل الذي يحتبس حياته وأحلامه بل ومستقبله رهن هدف عبثي شرير.

ينتظر الجميع وصول الغافل فارس ليحكموا وثاقه.. ستلتهي الليلة لعنتكن أيّتها الفانيتين ماسيليا ونوميديا.. ستبقين كما أنت يا تهيبا روحًا فانيّة لا تملك من أمرها شيئًا وستبقى تضحيتك من أجل خالد نبيلةً لا يمحوها شر كاهناتك المأفونات.. يشعر الجميع الآن بامتنان لا نهاية له تجاه باهي ذي الروح الطاهرة الذي منحهم جميعًا مفتاح السر وفرصة النجاة لتصير الحياة بهيّةً بحق.. لن يتركونه ليواجه مصيرًا مجهولًا مع أبيه الممسوس.. قرأها باهي في أعين الجميع، بل أنه جرؤ أن يتصور نفسه وقد صار ابنًا لأسعد.. ألم تقُل النبوءة ذلك؟ فلتكن قواعد اللعبة هي الحاكمة.

دق جرس الباب فسرى بعض التوتر.. هي في النهاية مواجهةٌ خطِرةٌ لم يستهن بها أحدهم.. أظلم أسعد الغرفة وتوجه إلى الباب بخطًى وئيدة.. تملؤه الحماسة وتحركه سنين عاشها في خداع.. مرحبًا بك في عرين الحقيقة أيّها المخادع.

- تعالى يا فارس.

مطمئنًا سار الغرير إلى مهلكه.. لا نهاية لغرور الشيطان، يكيد ولا يدري أنّ لمحةً من الحقيقة تنقض كيده كبيت العنكبوت..ولج فارس الغرفة في هدوءٍ ليضيء أسعد الثريّا من خلفه.

فور أن أضاءت الغرفة انطلق أشرف وباهي وأسعد نفسه يحكمون وثاق فارس بحبلٍ غليظ من الدوبار ليقاوم الأخير مقاومةً عنيفةً لم تفلح في إثنائهم قيد أنملة.. ابتسامات الانتصار تعلو وجوه الجميع وهلعٌ شيطاني يحتل وجه فارس الذي صاح بصوته الأخنف:

- إيه؟ إيه؟ سيبوني.. ابعدوا عني.. مالك يا أسعد؟ فيه إيه؟

بكل ما يعتمل في نفسه هبط أسعد على وجه فارس بصفعةٍ مدويّةٍ جاءت بردًا وسلامًا على الجميع بما فيهم باهي.. يملكون جميعًا ثاراتٍ متفاوتةٍ معه.. مرحبًا بك في يوم الحساب الأصغر!

- هتعرف دلوقتي مالي.. أشرف.. هات المفاتيح من جيبه.

أدرك فارس الآن فقط ما ينتظره.. مفتاح الخزانة.. المخطوطات.. ماذا يظن هؤلاء المخابيل أنفسهم فاعلين؟؟

- أسعد، انت اتجننت؟ هتعمل إيه؟ انت فاكر الحكاية سهلة؟ انت ما تعرفهمش، إسمعني بس، كل دول مش فاهمين حاجة.. أنا وانت وبنتك اللي هينتقموا مننا.. انت ما تعرفهمش يا أسعد.. إعقل.. إعقل.

صفعةٌ أخرى عاجلته من يد أسعد الذي بدا في عينيه كعنقاء نهضت من الرماد:

- أعقل؟ هو انت خليت فيا عقل يا ملعون؟ العقل هو اللي هيتكلم خلاص.. خليك انت في جنانك اللي ضيعت عمري فيه، لقيتها يا أشرف؟

في هلعٍ استطرد فارس:

- انت ما تعرفش ممكن يعملوا إيه! دول هما اللي ادوني الحياة وانا مولود.. اللي يقدر يحيي ممكن يموّت أسهل يا أسعد!

انبرى باهي ليصيح في حسم:

- انت عشت عشان كان ليك عمر، حد من شياطينك قدر يحيي نفسه عشان تفتكر انهم يملكوا حاجة لأي حد؟ انت بتكفر بربنا بكلامك ده.

بدا وكأن فارس لم ينتبه لوجود ابنه حتى تلك اللحظة فصاح في غضبٍ هادر:

- انت اتجننت يا باهي؟ انت بالذات عارف كل حاجة. انت هتكون أول ضحية للي بتعمله ده.. فوق وافتكر اللي عملوه في جدك واللي ممكن يعملوه فيا وفيك.. فوق يا باهي.

بكل مايعتمل في نفسه من حنقٍ صاح باهي:

- ما انت ما تعرفش.. أنا فقت فعلًا، وعارف كمان؟ انا اللي هاعمل فيهم مش هما اللي هيعملوا فيا! انت فاكرني هانسى اللي انت بقى عملته فيا؟ تحرمني اني أشوف أمي واعيش معاها طول حياتي عشان إيه؟ تهيبًا؟ تهيبًا دي تراب دلوقتي، وكمان أبوك نفسه زمانه تراب في الجبل والعيال الصغيرين بيدوسوه وهما يزوروا الجبل!

صاح فارس في ذعر:

- انت مش عارف تمن اللي بتقوله ده هيكون إيه، انت ما وقفتش قصاده في الجبل، ما حسيتش بروحك بتدوب منك ولا لقيت نفسك بين إيديه لعبة مش قادرة تحرك صباع واحد، ولا شفت اللي انا شفته.. ده خدام الجبل، اومال أسياد الجبل ممكن يعملوا إيه؟؟

في ذات اللحظة خرجت يد أشرف بسلسلة مفاتيح من جيب فارس فلوّح بها منتصرًا:

- خد يا عمّي، افتح انت الخزنة.

على خلفيّةِ من استعطافات فارس الخنفاء اليائسة وصيحاته الهادرة فتح أسعد الخزانة الحديدية في هدوء ومد يده ليتناول الكيس الخيشي الملعون.. ألجمه للحظاتٍ خوفه القديم من مس مخطوطات السحرة ثم..أظلمت الغرفة!

- هاهاهاا! شفت يا أسعد؟ قلت لك، ما سمعتش كلامي وهتعرف دلوقتي إيه اللي ممكن يعملوه.

صوتُ قداحةٍ تلا صيحات فارس ثم غزا الظلام فجأة وهجُ احتراق جذوات خشبية صغيرة كانوا قد أعدوها لحرق المخطوطات وسط الغرفة بعد إفراغها من أكثر أثاثها.

- هو ده اللي يقدروا عليه؟ ما تقلقش، النار ما بتحرقش مؤمن، بتنوّر له بس وبتحرق حاجات تانية، خاف على نفسك انت من حساب ربنا..

ألجمت كلمات أشرف الواثقة لسان فارس فأخذ يراقب ما يحدث في فزع.

بعد أن عالج مزلاج الخزانة أجمع أسعد أمره وتناول المخطوطات بيدين مرتعشتين على ضوء النار.. عشرات القرون من الهيبة كانت تسكن تلك الرقائق الجلدية.. خوفه القديم من المخطوطات المصفرّة سيطر عليه للحظاتٍ، ولكن تلاوة هالة للقرآن منحته الشجاعة ، فأجمع أمره وأمسك بها في سرعةٍ ثمّ ألقاها بعصبية من يمسك ثعبانًا سامًا إلى أشرف الذي ناولها بدوره لباهي.. وأمام عيني فارس بدأ ابنه الوحيد يلقي بالمخطوطات واحدةً تلو الأخرى في النار.. الآيات القرآنية التي كانت تتلوها هالة أفعمت قلب فارس بفزعٍ من نوعٍ آخر.. لم يستشعر الوحدة التي استملكت حياته كما تغزوه الآن.. ارتفعت النار بشكلٍ مفاجيءٍ إلى ما يقارب سقف الغرفة فتراجع باهي وأشرف في فزع.. تشكّلت النار على هيئة أطيافٍ تتراقص في ألمٍ فعلا صوت تلاوة هالة.. تلك الأطياف اللعينة تحترق أمام ناظريها الآن ورائحة شواء مقيتة تفعم المكان.. أيقنت هالة الآن أن تلك الأطياف هي ما عكّر صفو حياتها لسنواتٍ حين لم يقاومها أحد، فعَلا هديرُ تلاوتها ليغطّي على صوت زفير النار.. استجمع باهي شجاعته وألقى بمزيدٍ من المخطوطات غير عابيءٍ بالنار التي كانت تلفح وجهه.. فليتطهّر من دنس أبيه.. أضاءت الغرفة فجأة كما أظلمت فجأة فصاح أسعد في تحدٍّ:

- شفت انت يا فارس؟ ما طلعوش هما.. دي وزارة الكهربا بس كانت بتمسّي عليك وتلعب بأعصابك.

علت ضحكات هستيرية أفرغ فيها الجميع عدا فارس ما اعتراهم من توتر.. كانت نهلة في تلك اللحظات تُغرق في نشيجٍ حسرةً على عمرٍ راحت زهرته تحت أسر الوهم، وتمسك بمطفأة حريقٍ كانت قد أعدّتها حتى لا ينتهي الأمر بمأساةٍ عبثية. فتحترق الغرفة وينتصر الشيطان بنيرانٍ صديقة! انتهى باهي من حرق المخطوطات وبدأت النيران تخبو لمعدلاتها الطبيعية في وسط الغرفة.. لم يحدث شيءٌ آخر غير أنّ رأس فارس كانت ملقاةً على صدره دون حراك.

تحسّس أشرف عنق فارس ومعصمه ثم طمأن الجميع.. مجرد فقدان للوعي من فرط الإنهاك العصبي.. سرت حالة من البهجة المبالغ فيها بين الجميع وغرقت نهلة في أحضان هالة و ريم حتى أنّها صدمت تلك الأخيرة بمطفأة الحريق فصرخت متألّمة.. تبادل أسعد الأحضان مع أشرف وباهي واختصّ هذا الأخير بتربيتاتٍ قوية على ظهره مطمئنًا إيّاه:

- ما تخافش يا باهي انت أنقذت أبوك، أنا واثق ان هو نفسه اما يفوق ويلاقينا كلنا زي الفل هيراجع نفسه.. هو كمان كان ضحية، الوهم لما بيتمكّن من حد بيلغي عقله وهو مالقاش حد يقف جنبه.. هاتي يا نهلة الطفّاية، خلاص كفاية نار، كله بقى رماد.

جاء صوت الرغوة التي أكلت النيران رتيبًا مطمئنًا لقلب هالة التي كانت ترمق أشرف في عشقٍ وامتنانٍ يليقان بما فعله من أجلها.. غاب أشرف للحظاتٍ في أمواج عينيها اللتين استكانتا في دعةٍ أخيرًا بلونهما الأزرق الأخّاذ.

* * *

خاتمة

كانت فيروز تصدحُ في أنحاء بيت هالة بنفس الأغنية بلا انقطاع..

"يا رَيْتِ الدنيي بتزغَر و بتُوقف الأيام
هالأوضة وحدا بتسهر و بيوت الأرض تنام
وتحت قْناديل الياسمين انت وأنا مخبايين
نحكي قصص حلوين و لا مين يدرّى شو صار
يا أوضه زغيرة زغيرة فيها الحب تْلاقَيْت
أوسع من دنيي كبيرة و أغلى من ميّت بَيْت"

تهامست النسوة في استنكارٍ وهز الرجال رؤوسهم في عجبٍ.. أي حفل خطبةٍ هذا الذي يقتصر على أغنيةٍ واحدةٍ تدور بلا انقطاع؟ فقط هالة وأشرف كانا يهيمان مع صوت جارة الوادي ويرمقان باب الغرفة المفتوح في سعادةٍ مفتوحة.. ضحكات منال الهادرة لم تتوقف ومداعباتها المكشوفة لأشرف وهالة أغرقتهما في حمرة الخجل غير مرة.

باهي وريم كانا يجلسان على أريكةٍ صغيرة متشابكي الأيدي في غير خجلٍ يتبادلان الغمزات والضحكات الجذلة مع أشرف وهالة.. شرد باهي في أسًى عندما راقب منال ترمق ابنها في عشق.. سوف يبحث عن أمه وسيجدها بالتأكيد، لن يفرّق فارس بينه وبينها بعد الآن.. مسّ قلب باهي حنينٌ خجولٌ لأبيه الذي يرقد تحت العلاج في مصحّةٍ نفسيّةٍ بحي المقطّم.. مازال هناك أملٌ ما في أن يستعيد إنسانيّته رغم كل شيء، ربما

يعيد باهي النظر كذلك في علاقتهما بعد أن يفيق فارس مما حاق به من جنون. "لم يجد فارس من يحنو عليه" مرَّ بغياله خاطرٌ جلب ابتسامةً واسعةً على شفتيه عندما تخيل بيانًا عسكريًا يلقي تلك العبارة بصوتٍ أجشّ مهيب.. جالت بخاطره فكرةٌ أخرى في ذات اللحظة. فبعد أن تفقّد محتويات غرفة والده وجد مذكرات علال التطواني وتأريخه بديع السرد للأحداث التي مرت بها مصر إبّان التحرر من الاحتلال البريطاني.. أسَرته قصة حب علال للوتس ووصفه للقائهما، كم تمنى أن يراها.. طالما أحبها وأشفق عليها بعد أن قرأ ما سطره علال عنها.. سيكتب قصة علال ولوتس ويعنونها (لوتس). وسيجد سبيلًا لنشر مذكرات علال التي كان يعنونها (أيام الحرية). شعر للمرة الأولى بشفقةٍ على جدّه الذي ضاعت حياته نهبًا للخوف والوهم، وسوف يأخذ على عاتقه أن يعيد بعضًا من الاعتبار لاسم التطواني، سيسافر يومًا إلى تطوان ليتفقد أحوال عائلته ويعيد وصل ما انقطع.. "سأصير كذلك كاتبًا ذا شأنٍ لأجلك يا ريم".. رمقها في حبٍّ.

حرص أسعد على أن يشارك نهلة في الطواف بالحلوى والعصائر على الحاضرين وحبّ فتيٌّ لها يملأ قلبه وكأنّه أغنيةٌ حبسها زر الإيقاف المؤقّت لفترة، ثم تحررت فانطلقت من ذات اللحظة التي توقفت فيها...

همس أشرف في أذن هالة:

- انتي عارفة انّك ما حكيتيليش الحلم اللي كان بيجيلك لغاية دلوقتي؟

رمقته في استنكار:

- وده وقته يا أشرف؟ طيب والله ما هاحكهولك أبدًا.. إنسى بقى حرام عليك.

سعادةٌ لا تشوبها منغّصات كانت تجوب أرجاء المنزل وطيور نورس لا حصر لها كانت ترفرف في الأجواء..

- عمو، عايزك في كلمة على جنب لو سمحت.

استدار أسعد مبتسمًا وهو يسحب أشرف إلى ركن الغرفة:

- خير يا أشرف يا حبيبي؟

مال أشرف على أذنه وهمس:

- كان فيه طلب كده هو مش وقته بس عايز اقولهولك.

مستعجِلًا إيّاه أجاب أسعد:

- هاه، قول.

بابتسامةٍ واسعةٍ أردف أشرف:

- لو ممكن يعني تبقى تجيب كنية سرير ولّا حاجة في أوضة مكتبك.. لما نتجوز يعني ان شاء الله نضسي نبات فيها مرة انا وهالة!

انتفض أسعد في استنكار وقد احمرّ وجهه:

- عيب يا ولد، إحنا لسه على البر، دي حاجات تتكلم فيها من دلوقتي؟؟

هناك على بعد آلاف الكيلومترات كان الصمت يسود قمّة تافوغالت.. ليس هناك سوى صوت الجوارح الذي يعلو كل حينٍ في تهديدٍ صريحٍ لمن يجرؤ أن يقترب في تلك الليلة المظلمة.. ذرّاتٌ من ترابٍ كانت تتطاير فقط بفعل الريح لا يدري أحدٌ إذا ما كانت تنتمي لرفات نوميديا أم رفات علال.

تمّت بحمدِ الله

محمد الصفتي

* * *

شُكر

شُكر واجب لأصدقائي الأعزاء الذين أثروا حياتي بوجودهم ومنحوني السعادة والدفء والثقة وعاونني بعضهم بشتى الطرق لأن تخرج تلك الرواية في صورة أرجو أن تنال رضا القرّاء: أحمد القرملاوي، أحمد عبد المجيد، شريف عبد الهادي، محمد رفعت، أمير عاطف، د. محمد نجيب عبد الله، محمد فؤاد عيسى، شيرين هنائي، أحمد صلاح سابق، هبة شلبي، آن أدهم، محمد الزمزمي، محمد صادق، محمد عصمت، هبة علي، نور مانجا، تيام الترك، سمر الباز، محمد محسن، ماهي حلبي، هبة فايز، ندى هشام، دعاء الحناوي، مريم لكفيف (من المغرب الشقيق).

وأخيرًا أخي الأكبر ومعلّمي في الحياة الأستاذ خالد الصفتي: لولاك في حياتي ما اكتسبت الثقة لأسطر حرفًا واحدًا وترى كتاباتي النور.